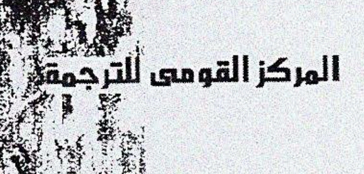


هوبير ديشان

الديانات فى أفريقيا السوداء

ترجمة: أحمد صادق حمدى

مراجعة: محمد عبد الله دراز

تقديم: مصطفى لبيب

ميراث الترجمة

1769



الديانات فى أفريقيا السوداء

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ بإشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1769
- الديانات فى أفريقيا السوداء
- هوبير ديشان
- أحمد صادق حمدى
- محمد عبد الله دراز
- مصطفى لبيب
- 2011

هذه ترجمة كتاب:

Les Religions De L'afrique Noire
Par: Hubert Deschamps

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة.
شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة– القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ –٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

الديانات فى أفريقيا السوداء

تأليف: هوبير ديشان
ترجمة: أحمد صادق حمدى
مراجعة: محمد عبد الله دراز
تقديم: مصطفى لبيب



2011

يشان، هوبير.

الديانات فى أفريقيا السوداء/ تأليف: هوبيرد يشان، ترجمة: أحمد صادق حمدى؛ مراجعة: محمد عبد الله دراز؛ تقديم: مصطفى لبيب. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠١١ .

٢٠٨ص ؛ ٢٠سم.

تدمك ١ ٨٤١ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ الديانات المقارنة.

أ ـ حمدى، أحمد صادق. (مترجم)

ب ـ دراز، محمد عبد الله. (مراجع)

هـ ـ لبيب، مصطفى. (مقدم)

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٥٦٤/ ٢٠١١

I. S. B. N 978 - 977 - 421 -841 - 1

ديوى ٢٩١

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

تقديم

مؤلِّف هذا الكتاب، أستاذٌ بمعهد الأجناس البشرية، وبمعهد الدراسات السياسية بجامعة باريس، وكان قد شغل منصب حاكم المستعمرات الفرنسية فى غرب أفريقيا. وصفةَ "أفريقيا السوداء" التى جاءت فى عنوان الكتاب إنما تدلُّ على شعوبL'Afrique noire أفريقيا الغربية والشرقية وعلى أفريقيا الاستوائية وأعالى النيل وجنوب القارة، وذلك تمييزًا لها عن الشمال الأفريقى (بلاد المغرب العربى) ومصر.

إن هذا الكتاب، الذى صدر منذ حوالى سبعين عاما، هو وصفٌ للأحوال الدينية بأشكالها المتنوعة فى الفترة التى عايشها المؤلف عن كثب؛ غير أن ما حدث من تطور لاحق يجعل لبعض ما أورده المؤلف من أحكام قيمةً نسبيةً تستوجب المراجعة، كما أن التوزيع الجغرافى لإحصاءات الطوائف الدينية العديدة يبتعد كثيرا عن الواقع الراهن : إذ من المقرَّر الآن أن أفريقيا هى قارة الإسلام بالنسبة لتعداد سكانها إذا ما قورنت ببقية قارات العالم.

* * *

فى المقدمة الرصينة التى أثبتها "محمد عبدالله دراز" مراجع الكتاب للترجمة العربية يُنبِّه إلى أن الدراسات الأفريقية "أصبحت شعبة مهمة من شعب العلوم الإنسانية فى هذا العصر. وقد لاحظ الباحثون فى شئون أفريقيا أن الدين هو العنصر الفعّال والقوة المحرّكة فى حياة المجتمع الزنجى، ولذلك اتخذوه نقطة ارتكاز فى سائر أبحاثهم. وأفادت الهيئات التبشيرية من هذه الحقائق فوضعت منهجها على هذا الأساس، وكان من نتائج ذلك أنْ تُرجِم الإنجيل إلى عدة لغات أفريقية كاللغة السواحلية وغيرها. هكذا سبقتنا أوربا إلى هذه الدراسات الأفريقية وجعلتها جزءًا من تفكيرها وثقافتها، ورسمت على ضوئها سياستها الإدارية والتبشيرية وكان حَريًا بمصر أن تسبق الأمم الأخرى لا لأن صلة مصر بداخل القارة أقدم من أن يُعرف أولها، بل لأن حاضر مصر ومستقبلها ومركزها الجغرافى كل أولئك يفرض عليها أن تُضاعف اهتمامها بشئون أفريقيا التى هى الوطن الكبير للأمة المصرية".

* * *

إن موضوع الكتاب الأساسى هو بيان تنوع صور الحياة الدينية الوثنية القديمة والحديثة وما يسودها من اعتقاد بالقُوَى الحيوية، وما يقترن بهذه المعتقدات من طقوس وممارسات خاصة ومن مُحرَّمات ووسائل تَطهُّر، وبيان الترابط الوثيق عند الأفارقة بين الأحياء والأموات. وفى القسم الثانى من الكتاب يعرض المؤلف لأوضاع الديانتين السماويتين العالميتين اللتين انتشرتا فى أفريقيا وهما الإسلام والمسيحية، وكيف ظلَّ الموروث الدينى القديم حيًّا يعمل عمله فى الحفاظ على الشخصية الأفريقية المتميّزة. فالتديُّن ـ كان ولا يزال ـ هو حجر الزاوية فى أى نظام اجتماعى أو سياسى أو اقتصادى، خلافا لما قد يتبادر إلى الأذهان.

ويبدأ المؤلف بتناول المعتقدات الوثنية فيشير إلى شيوع الاعتقاد بوجود قوى حيوية لا يختصّ بها الإنسان الحى وحده، بل تَعمُّ الأموات، وتدور فى الطبيعة بأجمعها فتسرى فيها كأنها سيال كهربائى يربط بينها. فهى طاقة موزّعة بين الحيوان والنبات والأشياء التى تعمر أرجاء الطبيعة والكائنات التى فوق الطبيعة، ووظيفتها أن تصون كيان الجسم الذى يحملها، ومظاهرها لدى الإنسان الحياة والحركة والكلام. وهى إما موقوتة فيه فيعرض له الموت، وإما دائمة فيكتب له الخلود. ويشير المؤلف إلى اعتقاد بعض القبائل الأفريقية أن أرواح الموتى مرهوبة الجانب جدا، وأن السحرة يتَّصلون بها ويخاطبونها. وأن البعض يزعم أن من هذه الأرواح ما يُصبحُ مفترِسا، ولذلك يقدّمون القرابين لجثة الميّت عندما تُحمل إلى مقرّها الأخير، وإلى الاعتقاد بتعدّد الأنفس، وأن الاضطرابات العقلية التى قد تصيب أحد الأشخاص إنما ترجع إلى تنافس روحين فى الحلول فى جَسده. كما تعتقد بعض القبائل الكينية أن لكل شخصين نفسين إحداهما تنفصل عن الجسد عند الموت لتنضّم إلى نفس أسلافها، والأخرى نفسٌ جماعية، وهى جزء من روح الأسرة التى تحل فى جسد أحد أعضائها بصفة موقوتة إلى أن تَحلَّ فيما بعد فى جسم مولودٍ فى الجماعة.

وللأسلاف مكانة مهمة ، فهم إن كانوا أمواتا إلاَّ أنهم أحياء، والخطر يتهدَّد القبيلة إذا أهملت الشعائر الدينية الواجبة لهم أو إذا أهدرت محرَّماتهم. وأرواح الأسلاف هى التى تضمن للقبيلة الاستمرار والبقاء. ويرتبط الأحياء بموتاهم فى الأسرة والقبيلة برباط وثيق من الالتزامات... وقد تُقام بين وقت وآخر ولائم دينية يشترك فيها الموتى مع الأحياء فى وحدة روحية، وتوزَّع فى هذه الولائم الأضاحى والصدقات.

ويظهر الموتى لذويهم فى الحلم ناصحين أو مقرِّعين أو مطالبين بما أهمله أبناؤهم من القرابين الواجبة لهم، هذا إلى أن البعض يستطيعون الاتصال بالموتى عن طريق الكهانة.

وتتكوَّن الهيئة الاجتماعية فى القبيلة من الموتى والأحياء جميعا، على أساس تبادل المنفعة والخدمات بينهما. فالموتى هم الرؤساء الفعليون فى الأسرة والقبيلة، وهم القَوَّامون على استمرار مراعاة التقاليد، ولهم حق الثواب والعقاب.

إن التماسك الاجتماعى ومراعاة النظام والاشتراك فى الحياة العامة وحفلاتها الدينية، والمساواة المادية إلى حد ما، وتبادل الاحترام كلها فروض مكفولة وميسورة بسلطان القُوى التى تسهر دائما على التمسك بالتقاليد، والتى تعبِّر بتشريعها الحكيم عن اندماج الإنسان فى النظام العالمى . وأقسى ما يُصيب الفرد أن يُطرد من الهيئة الاجتماعية للقبيلة، لأن قوته الحيوية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالقوة الحيوية من ناحية وبقوة باقى الجماعة من ناحية أخرى.

وهذه الهيئة الاجتماعية القوية المتماسكة تقوم على أساس دقيق من النظام التدريجى الذى يشمل الموتى والأحياء، فلكل مرتبته الخاصة به. والسن العالية ثم الجنس هما اللذان يُحدّدان الأوضاع الاجتماعية. وتَعتبر كل أسرة نفسها فى كفالة أجدادها من الموتى ورئيسها من الأحياء. ويُنهى المؤلف فصله الممتع هذا بملاحظة يقول فيها : إن الزنوج لا يُفرّقون بين الطبيعة وما وراء الطبيعة فالكون عندهم وحدة لا تتجزأ.

بعد ذلك يبيّن المؤلف عبادة بعض القبائل الأفريقية للطبيعة (الحيوان والنبات والمعادن والأشياء). وعلى الرغم من أن بعض القبائل فى جنوب

أفريقيا قد أصبحت مسيحية إلاّ أنهم ما زالوا يطلقون على أنفسهم أسماء الحيوان فيحتفظون بذكريات ديانتهم الوثنية. ويتطرَّق المؤلف إلى ذكر عبادة الأرض والعناصر والنجوم. وحول أفكار الأفارقة عن الألوهية يرى المؤلف أن جميع شعوب أفريقيا يعتقد بوجود إله متعالٍ خالق للكون، إلاّ أنهم يختلفون اختلافا كبيرا فى تقدير سلطانه فى تصريف أمور الدنيا. والفكرة السائدة بينهم هى أن هذا الإله يبعد بُعدا شاسعا عن العالَم، بحيث يصعب على الناس الاتصال به، والأحرى أن تُوجَّه العبادة إلى مَنْ دونه من الآلهة، إذ أنهم المكلَّفون مِن قِبله بالسهر على أمور هذه الأرض وهم رُسله ووكلاؤه. وتتعدَّد الآلهة الصغرى، ويختلف عددهم تبعا للبلاد والأقاليم.. وهناك من يتَّخذ أجدادهم الأسطوريين أو أبطالهم المؤسسين لمدنياتهم بدلا من هؤلاء الآلهة الصغار. ويختصّ كل إله صغير بمهمة ما. ويلى ذلك ذكر معتقدات كثير من القبائل فى الجن وعلاقته بالإنسان، والأشكال المختلفة للعبادات والطقوس وصور الاحتفالات الدينية العامة وأهدافها، والعبادات المنزلية، وأساليب التدريب على الكهانة وعبادة الملوك القدماء التى تحتل مكانا بالغ الأهمية.

وأخيرا يتناول المؤلف فكرة الكون وأساطير نشأة الخليقة عند قبائل الزنوج البدائيين وما يرتبط بها من تفاسير شتى تختلف اختلافا عظيما من بيئة إلى أخرى.

يلى ذلك فصل ممتع عن تلقين الأسرار وعلم السحر واختلاف احتفالات التلقين من قبيلة إلى أخرى، والختان للجنسين واستهجان هذه العادة عند قبيلة أخرى. ثم يذكر الجمعيات الدينية المعلنة والسرّية وتقاليدها الخاصة ونفوذها الملحوظ. وكيف يقوم الكاهن بدور الطبيب فى القبيلة، ويبيع للناس التعاويذ والتمائم لمختلف الأغراض للشفاء من

المرض ولاستنزال المطر ولاجتلاب الحب، ولاستعادة القوة، وكذلك للنجاح فى الامتحانات والانتخابات.

ولا تقتصر صناعة السحر على الكُهّان المحترفين، بل توجد أساليب أخرى من السحر والكهانة يزاولها الأفراد غير المحترفين، إذا كانت تكمن فيهم قوى خفية تكشف لهم عن الغيب. والسحر الذى يُستقى به المطر من أعظم ما تهتم به القبائل الزراعية.

والاعتقاد بقدرة السحرة على إيصال الأذى شائع فى كثير من البلاد، ويفيض المؤلف فى بسط الأشكال العديدة لممارسة السحر بين الكثير من القبائل، وبيان أساليب الوقاية منه.

ويعقد المؤلف فصلا عن خصائص العقائد الوثنية وتطورها موضّحا صفاتها المشتركة وأنها تلتقى كلها عند أساس واحد، هو عمق الإحساس بالروابط الوثيقة التى تربط المجتمع البدائى بالبيئة الطبيعية التى يعيش فيها. ولا يرى المجتمع القبلى فى الحيوان والنبات ولا فى الجماد إلا مخلوقات لا تختلف عنه وليس له عليها سيطرة ما، فأضفى عليها كل صفاته وأحاسيسه ورغائبه الإنسانية، وصوّر له خياله بسبب ذلك أن الإنسان، حيًّا كان أو ميّتًا، له قوة يستطيع بها أن يتخذ شكل حيوان أو نبات. والإنسان لا يحاول معارضة الطبيعة ومقاومتها لإحساسه بأنه جزء لا يتجزَّأ منها... وهذا ما يضفى على معتقدات الزنوج الوثنية سمات الجمال والشاعرية، بدلا من أن يحصروا كل همهم فى نفع الإنسانية وحدها. فهم لا يميزون بين الطبيعة وما بعد الطبيعة، ولا بين المادة والروح، لأنهم يؤمنون بأن القوى الحيوية الكونية تسرى فى الخليقة بأجمعها، كما لا يُفرقون بين الحلم والحقيقة. وإذا كان الفرد مرتبطا بالطبيعة، فهو أشد ارتباطا بالمجتمع الذى ينتسب إليه، إذ لا تقف صلته

به عند حَدَّىْ مولده ومماته، بل تظل هذه الصلة قائمة حتى بعد الموت. وكما يرتبط الفرد بآبائه وأجداده فإنه يرتبط كذلك بآلهة الجماعة ارتباطا تفسّره الأساطير والأقاصيص التى توراثتها الأجيال عنْ تاريخ نشأة الكون. فالديانة لديهم هى حلقة الاتصال بين أفراد المجتمع، وبين المجتمع والقوى العلوية الإلهية. ومن البدهى أن ديانة هذا شأنها لابد من أن تفرض على أفرادها سلوكا مثاليا، وخضوعا مطلقا لعادتها.

ويعقد المؤلف مقارنات طريفة بين المعتقدات الأفريقية وبين ديانة الإغريق القدماء وديانة الرومان (اللاتين) وديانة قدماء المصريين كما يقارن بين ديانات الزنوج والديانات القديمة فى القارات الأخرى، وبينها وبين الخرافات السائدة إلى اليوم فى القارة الأوربية، بل بينها وبين الأديان العالمية مثل المذهب الكاثوليكى. على أنه لا يمكن الجزم - فى رأى المؤلف - برأى قاطع فى تحديد المؤثرات الخارجية، ومدى اقتباس الديانات الزنجية منها.

بعد ذلك يتناول المؤلف تطور المعتقدات الزنجية فى الوقت الحاضر تحت وطأة زحف المستعمرين وما تبعه من شَلِّ سلطة زعماء القبائل وتضعضع السلطة الدينية وسلطة الرؤساء الروحانيين وقدسية الملوك، وتحرّر الفرد من ربقة الجماعة وتحكمها فى كيانه. وثمت عامل آخر كان له أبلغ الأثر ذلك هو التعليم الحديث الذى أمدَّهم بمعارف وحقائق حديثة تناقض ما تلقَّنوه عن آبائهم وأجدادهم. وفى المناطق القريبة من المدن أو من المواصلات يسير التفكك الاجتماعى والدينى سيرا حثيثا. ومن هنا نبت الشعور بين هؤلاء الزنوج المتحررين بالحاجة إلى أجوبة جديدة تهدئ اضطرابهم الروحى. والذى استفاد من هذا هما الدينان العالميان : الإسلام والمسيحية.

والقسم الثانى من الكتاب يتناول أوضاع الإسْلام والمسيحية فى أفريقيا. يتحدَّث الفصل الأول عن انتشار الإسلام فى غرب أفريقيا الفرنسى واعتناق قبائل البربر للإسلام على يد المرابطين فى ساحل السنغال، ثم قيام المرابطين بغزو البلاد الزنجية المجاورة، وقيام دولة مالى الإسلامية التى امتدت إلى أعالى النيجر، وتأثير دعاة الطرق الصوفية وبخاصة الطريقة القادرية والطريقة التيجانية اللتين وصلتا من شمال أفريقيا، وكذلك انتشار الإسلام بين قبائل الهوسا ومنها إلى أواسط نيجيريا وشمال بلاد الكاميرون. ولم يقم انتشار الإسلام فى غالب الأمر على القسْر، وإنما على الإقناع الذى كان يقوم به دعاة متفرقون من المرابطين لا يملكون إلاّ إيمانهم العميق بدينهم. وكان إذا ما اعتنقته الأرستقراطية، وهى هدف الدعاة الأول، تبعتها بقية القبيلة. وقد يَسَّر انتشار الإسلام أنه دين فطرة بطبيعته سهل التناول لا لبس ولا تعقيد فى مبادئه، وسهل التكيُّف والتطبيق على مختلف الظروف، وأن وسائل الانتساب إليه أيسر وأيسر، إذ لا يُطلب من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح فى عداد المسلمين. ولم يفرض الإسلام على الزنوج أن يغيروا من نظام معيشتهم أو تفكيرهم الدينى. هذا إلى أن عقيدة التوحيد التى جاء بها الإسلام لم تكن غريبة عليهم. وقد حَبَّب الإسلامَ إليهم مظاهره البعيدة عن التكلف، وكان الذى يدخل فى الإسلام يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة وأنه قد ازداد من القوة الحيوية.

وقد حلَّت الجماعات الصوفية محلَّ الجمعيات الوثنية الماضية فى صورة أوسع وأعظم. وعلى الرغم من أن الاستعمار الأوربى أوقف زحف الجيوش الإسلامية، فإنه مهّد للإسلام سرعة الانتشار السلمى بما أنشأه

من الطرق الممهدة الآمنة التى مكنت الدُعاة والتجار المسلمين من أن يتجولوا بحرية حاملين مع سلعهم بذور الدعوة الإسلامية.

وعن الإسلام فى شرق السودان يبيّن المؤلف انتشاره فى مملكة كانم الوثنية فى الشمال الشرقى لبحيرة تشاد منذ القرن الحادى عشر، وأنه أصبح فى القرن السابع عشر الدين الرسمى لمملكة باجرمى فى شرق حوض نهر "شارى". وكان وادى النيل من أهم المراكز التى زحفت منها الدعوة. فبعد سنة ١٣٥٠م فُتحت مملكة دنقلة المسيحية وتأسست فيها أسرة إسلامية باسم مملكة الفونج، وفى غرب هذه المنطقة وشرقى بحيرة تشاد تأسست فى القرن السادس عشر ممالك إسلامية فى "وداى" و"دارفور" و"كردفان"، وتسرَّبت قبائل عربية إلى تلك المناطق، وطبعت تلك الممالك بطابع عربى بسبب انتشار اللغة العربية منها.

وفى سنة ١٨٢١ غزا محمد على السودان وأسس مدينة الخرطوم وتوغَّل خلفاؤه حتى بحيرة "ألبرت" وشجعوا إرسال بعثات دينية إلى تلك الأرجاء، والتقت بجماعات ليبية منهم السنوسيون. ولما استقل المهدى بالسودان أرسل رسله لنشر الدعوة الإسلامية غربا.

وكان الملاحون العرب والإيرانيون ينزلون الساحل الشرقى لأفريقيا المطل على المحيط الهندى، منذ القرن العاشر الميلادى، وتألَّف من هذا الخليط شعب يسمى بالسواحيليين يدينون بالإسلام ويتكلمون برطانة بين العربية والزنجية المسمَّاة لغة "البانتو". وفى القرن الثامن عشر غزا سلطان مسقط أغلب الساحل الشمالى لشرق أفريقيا ونقل حاضرته إلى زنجبار.

بعد ذلك يذكر المؤلف وجود الإسلام فى أفريقيا الاستوائية وشرق أفريقيا، ويتحدث عن مظاهر خاصة بالإسلام بين الزنوج (فى العقائد

والشعائر والأخلاق)، وعن الطرق الصوفية المحلية ومظاهر التبجيل والتقديس لمشايخها. ويتحدّث بعد ذلك عن المجتمعات المختلطة من الإسلام والوثنية حيث ينتشر الاعتقاد بالسحر والعمل به، وحيث لا تزال رقصة المطر بما فيها من تهّوس وتخبط تُقام بكامل صورها الوثنية.

وأخيرا يتناول المؤلف مظاهر التجديد الإسلامى ومناداة العلماء بوجوب تطهير الدين من الشوائب والبدع الدخيلة عليه، ودور مصر فى ذلك حيث قصدت أفواج من طلبة نيجريا والنيجر إلى التعلم فى الأزهر، كما اشتدت أواصر الصلات بين منطقة تشاد وبين مصر وشرق السودان. وكان من نتائج حركة الإصلاح اقتراح الجمعية الوطنية فى السنغال بأن تكون اللغة العربية لغة إجبارية فى برامج الدراسة.

والفصل الثانى عن المسيحية، فيشير المؤلف إلى دخول الدين المسيحى إلى شمال أفريقيا فى نهاية الإمبراطورية الرومانية لكنه لم يتوغل إلى بلاد الزنوج بسبب غزو المسلمين لتلك البقاع الشمالية، ثم تأسست مملكة مسيحية فى بلاد النوبة حتى منتصف القرن السادس عشر. وأسس البرتغاليون مراكز للتبشير فى سواحل أفريقيا وفى بداية القرن السابع عشر أسس البرتغاليون أسقفية مسيحية فى أنجولا لكنهم لم ينجحوا فى نشر المسيحية فى داخل البلاد. وفى الساحل الشرقى حالت دون نشر المسيحية منافسة الإسلام لها واحتكار المسلمين للتجارة.

وقد أرسل الإسبان عدة بعثات تبشيرية كان حظها من النجاح ضئيلا. وقام الفرنسيون والهولنديون البروتستانت بجهود تبشيرية، وحاول الألمان أن ينشروا المسيحية بين قبائل الهوتنتوت لكنهم فشلوا فى ذلك ولم يكن للمسيحية فى بداية القرن التاسع عشر قدم ثابتة فى أفريقيا باستثناء

نقط ضئيلة على الساحل. بعدها توغَّلت حركة الكشف فى قلب أفريقيا وكثرت بها البعوث الدينية التبشيرية ثم تبعها الاستعمار الذى يَسَّر عمل المبشرين، فكان هذا القرن هو العصر الذهبى للتبشير فى أفريقيا. ولم يحلّ القرن العشرون إلاّ والمسيحية منتشرة بشتى مذاهبها والكنائس قائمة. وفى أفريقيا الجنوبية صارت الأكثرية للهولنديين البروتستانت بسبب هجرة البيض إلى تلك البقاع. وتأسست كليات لتخريج المبشرين والمعلمين وانتشر الأنجليكان فى المدن والغابات. واشتركت فى هذا السباق بعوث أمريكية وسويسرية وألمانية. وعادت البعوث البرتغالية إلى نشر الدين المسيحى فى أنجولا وموزمبيق بالاشتراك مع بعوث أخرى. وترجع سرعة انتشار المسيحية فى أفريقيا الجنوبية إلى عدة عوامل منها : وجود جالية كبيرة من البيض المسيحيين أثرت فى السكان الزنوج، ثم انحلال النظم القبلية بسبب خضوع القبائل للمستعمرين، واستخدام عدد كبير من العمال الزنوج، وتأسيس المدن الكبرى.

وقد كافح رجال البعوث الدينية تجارة الرقيق، وعادة تعدّد الزوجات، كما نشروا التعليم بفضل ترجمتهم الكتاب المقدَّس إلى لغات تلك القبائل. وتسود العنصرية المتطرّفة كنائس المسيحيين الهولنديين، فللبيض كنائس يُحظر على الملوَّنين دخولها. أما الأنجليكان والكاثوليك فلم يُقروا فكرة العنصرية؛ ولذلك وجدت مذاهبهم رواجا بين الزنوج. بعدها يتحدّث المؤلف عن التبشير فى شرق أفريقيا وفى أفريقيا الاستوائية، ثم فى غرب أفريقيا. كما يذكر الجهود التى قامت بها بعثات التبشير النسوية.

لقد اشترك فى نشر المسيحية فى أفريقيا أكثر الأمم المسيحية، فالأمم الكاثوليكية على رأسها الفرنسيون ثم البلجكيون والبرتغاليون والألمان والإيطاليون والإسبان، والأمم البروتستانتية أهمها الإنجليز

والأمريكان الأنجليكانيون. ولقد فُرِض على أعضاء البعوث التبشيرية، قبل أن يقصدوا تلك الجهات، اتّباع خطة مرسومة تقضى بدراسة تلك البيئات دراسة شاملة، وتفهّم نظمها الاجتماعية وعاداتها ولغتها. كما كان يجب على المبشر أن يختلط بالسكّان بالزيارة وأداء الخدمات والإخلاص فى التعاون معهم فى كل فرصة تتطلَّب ذلك. فالمدرسة والمستشفى أو المستوصف، والمثابرة على الدعوة المسيحية، وترجمة الكتاب المقدّس والتعليمات الدينية إلى لهجة السكّان، ومعرفة الأعياد المقدّسة، وغرس شعور الأخوّة المسيحية بين الجميع ـ كل ذلك وسائل تساعد دون شك على توسيع نطاق عمل البعثات وتبشيرها. وهكذا يصبح المبشرّ هو الرئيس الروحى فى تلك البيئة.

وقد شعرت الكنيسة بوجوب تعيين قساوسة من الأفريقيين، حتى يُدرك الزنوج أن الكنيسة ليست احتكارا للجنس الأبيض وحده. وفى الآونة الأخيرة نجد فى أفريقيا خمسة من الأساقفة الزنوج.

بعد ذلك يتحدَّث المؤلف عن الكنائس المسيحية المستحدثة والمنشقَّة وما تنفرد به من نظم خاصة بها متصلة بالمعتقدات الموروثة، وعن الدعوات الجديدة المُلفَّقة بين المسيحية والوثنية.

ويختتم المؤلف كتابه الممتع هذا بالتنبيه إلى أن دراسة الأديان بأوسع معانى هذه الكلمة ـ هى من أجدى الأساليب الحديثة لاستكمال الكشف عن أفريقيا السوداء. إنه كتاب مثير جدير بأن يُقرأ.

والله الموفق،،،

مصطفى لبيب عبد الغنى

« التعريف بالمؤلف »

ولد الأستاذ (هوبير ديشان Hubert Deschamps) فى ٢٢ من يولية عام ١٩٠٠ ببلدة (رويان) وهى ميناء يقع على خليج (بسكاى) بمقاطعة (شارنت ماريتيم) بفرنسا . وتلقى علومه بمدرسة ليسيه دى نيور ثم السوربون ونال درجة الدكتوراه فى الآداب إلى جانب شهادات عالية أخرى ، منها ليسانس الحقوق ، ودبلوم اللغات الشرقية الحية .

بدأ حياته مدرساً بمدرسة الليسيه بمدينة الدار البيضاء بمراكش ، ثم أستاذاً بمدرسة اللغات الشرقية الحية . وفى عام ١٩٣٦ أختير مديراً مساعداً لمكتب (ليون بلوم) رئيس وزارة الجبهة الشعبية الأولى وقتئذ . وفى عام ١٩٣٨ عين حاكما لمستعمرة الســـومال الفرنسى ، ثم ساحل العاج ، ثم السنغال . وشغل تلك المناصب حتى عام ١٩٥٠ ، إذ أحيل إلى المعاش بناء على طلبه . وهو يشغل اليوم عدة مناصب علمية هامة

وأما إنتاجه العلمى فقد بدأ منذ ١٩٣٨، وما يزال مستمراً إلى اليوم إذ أخرج ســـتة عشر مؤلفاً اغلبها فى الدراسات الأفريقية من قبائل ، وديانات ، ونظم إجتماعية ، ولغات ،وأحصاء . نخص بالذكر منها كتبه (نهاية الاستعمار) و (تنبه الوعى السياسى فى أفريقيا) و (الديانات فى أفريقيا السوداء) والأخير بين يدى قراء العربية . والمؤلف بصدد وضع كتابين عن تاريخ جزيرة مدغشقر وجغرافيتها ولهجات سكانها . وقد أعيد طبع بعض هذه الكتب مرات، وترجم بعضها إلى الانجليزية والأسبانية واليابانية .

المترجم

هذه ترجمة كتاب :

LES RELIGIONS
DE
L'AFRIQUE NOIRE

Par
HUBERT DESCHAMPS

Coll. (Que Sais-je?)



مقدمة

١ — كلمة « أفريقية » التى نطلقها الآن على القارة كلها ، كان الرومان ، أيام حروبهم مع قرطاجنة إنما يطلقونها على جزء من الشمال الغربى للقارة (تونس الحديثة) . والكتاب الذى بين أيدينا لا يتناول هذا الجزء الشمالى ، المعروف من قديم بأنه يؤلف وحدة متجانسة مع بلاد البحر الأبيض المتوسط . وإنما يتناول بقية القارة حيث تستوطن القبائل الزنجية . وهذا هو الذى يسمى « أفريقيا السوداء » .

٢ — وقديماً جاب أرجاء القارة كثير من الرحالة والمستكشفين فوصفوا بلادها وشعوبها وصفاً سطحياً ، يثير فضول القارئ بعجائب العادات والعقائد ، وتغالوا فى تصوير همجية قبائلها وظلماتها حتى دمغتها تلك الصفات وأصبحت فى أذهان الناس حقائق لا تقبل النقض . إلى أن جاء القرن العشرون بحقائق جديدة مغايرة .

٣ — وكانت الاستكشافات والفتوحات القديمة تقترن بنزعة الاستغلال والاضطهاد العنيف فاتجر الواغلون فيها بسكان البلاد وباعوهم ببيع الرقيق فى الدنيا الجديدة . . ولوثت كل الدول أيديها بهذه التجارة الخاسرة لما كانت تدره من أرباح طائلة فاستنزفت معين السكان حتى أقفرت بذلك مناطق واسعة وتدهورت اقتصادياتها .

٤ — ثم فترت هذه السورة على يد رجال حفزتهم إنسانيتهم أن يقفوا معارضين للمستغلين والمستبدين من الحكام ، فاستطاعوا بعد جهود شاقة أن يحملوا الدول على تحريم تجارة الرقيق وعلى إدخال الإصلاحات

التى تحسنت بها أحوال القارة فسادها الأمن والسكينة بل حظى بعض شعوبها بمجالس نيابية وأحزاب سياسية وحكومات مسئولة .

٥ ــ وأدرك المستعمر البعيد النظر أن مصلحته المادية تعتمد كل الاعتماد على القوى البشرية فى القارة واتضح له أن الكشف الجغرافى عن المجهول من أرض القارة كان عملا سطحياً هيناً بالقياس إلى الكشف عن المجهول من أخلاق أهلها وعقائدهم وعوائدهم . ولذلك استنهض المستعمر همم رجال العلم والبحث إلى القيام بتلك الدراسات النفسية والاجتماعية فقاموا بها فى استقصاء وتحقيق دقيقين وبذلك أصبحت الدراسات الأفريقية شعبة هامة من شعب العلوم الإنسانية فى هذا العصر . وأفاد المستعمر من وراء تلك الدراسات أيما فائدة فقد وقف على مواطن الضعف والقوة فى القبيلة واستغل ذلك لخدمة مصالحه المادية والإدارية

٦ ــ ولاحظ الباحثون فى شئون أفريقيا أن الدين هو العنصر الفعال والقوة المحركة فى حياة المجتمع الزنجى ولذلك اتخذوه نقطة ارتكاز فى سائر أبحاثهم . وأفادت الهيئات التبشيرية من هذه الحقائق فوضعت منهجها على هذا الأساس وكان من نتائج ذلك أن ترجم الإنجيل إلى عدة لغات أفريقية كاللغة السواحيلية وغيرها .

٨ ــ هكذا سبقتنا أوروبا إلى هذه الدراسات الأفريقية ، وجعلتها جزءاً من تفكيرها وثقافتها ورسمت على ضوئها سياستها الإدارية والتبشيرية وكان حرياً بمصر أن تسبق الأمم الأخرى لا لأن صلة مصر بداخل القارة أقدم من أن يعرف أولها بل لأن حاضر مصر ومستقبلها ومركزها الجغرافى كل أولئك يفرض عليها أن تضاعف اهتمامها بشئون

أفريقيا التى هى الوطن الكبير للأمه المصرية . وهذا هو هدفنا من نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية .

٨ — قسم المؤلف كتابه إلى قسمين :

القسم الأول عن العقائد الوثنية . فى أربعة فصول :

حدد فى الفصل الأول منها العقيدة الأساسية للمجتمع الزنجى (وهى الاعتقاد بالقوى الحيوية) وشرح ما لهذه العقيدة من أثر بليغ فى حياة الفرد والمجتمع القبلى وخاصة عند قبائل البانتو والبامبارا والدوجون .

وفى الفصل الثانى تكلم عن الآلهة والعبادات وفكرة الوجود ويدرك القارىء منه تصورات الرجل القريب من البدائية عن وجود الله وعن نشأة الكون . وهو من أمتع فصول هذا الكتاب .

وأهم مافى الفصل الثالث وصفه لحفلات التلقين والختان وصفاً رائعاً مثيراً للمشاعر . يصور للقارىء أدق التفاصيل عن حياة ذلك المجتمع .

وفى الفصل الرابع يرسم المؤلف صورة عامة للديانات الوثنية القديمة والحديثة ومنه يخرج القارىء بفكرة واضحة عن الترابط الشديد بين الأحياء والأموات الطبيعية ترابطاً يبدو الإنسان فيه لا على أنه محور الكون بل على أنه صورة عارضة فى لوحة الكون الكبرى .

والقسم الثانى عن الديانات السماوية ، فى فصلين :

(أولها) عن الإسلام ومدى انتشاره ووسائل انتشاره يخرج منه القارىء بأن جمهرة الدعاة له كانوا من المغاربة وأن انتشاره غالباً لم يكن بوسائل العنف ولكن بالتبشير السلمى الهادىء من جماعة إلى جماعة .

(وثانيهما) عن المسيحية وأساليب انتشارها ويستخلص القارئ منه أن المسيحية لم تأخذ فى الانتشار السريع إلا بعد دخول جيوش المستعمرين وأفواج المستغلين وقد نوه المؤلف بالخدمات الجليلة التى قام بها المبشرون هناك فى سبيل نشر الدين والتعليم والصحة وسط الغابات الكثيفة والمناطق الرطبة الحارة الخانقة وأشاد بالتضحيات العظمى التى قام بها هؤلاء حيث سقط الكثير منهم فى ميدان هذا الكفاح

٩ — أما خاتمة الكتاب فمنتهى الدقة فى التفكير والإيجاز فى التعبير بحيث تعتبر قطعة أدبية رائعة . ويخلص منها القارئ إلى أن القارة السوداء قد دخلت اليوم فى زمرة البشرية المتيقظة وأنها فى دور تطور سريع بسبب ما دخل عليها من الأديان والآراء والأساليب الاقتصادية الحديثة وأنها مع ذلك لم تفقد شخصيتها فإنها لم تعتنق المدنية الغربية جمعاء ولم تتخل عن موروثاتها القديمة جمعاء بل اتخذت سبيلا وسطاً لم يتضح إلى اليوم ولكنه سيتضح إن عاجلا أو آجلا عند ما تكتمل روح القومية بين شعوبها . فإن صيحة (أفريقيا للإفريقيين) قد بدأت تفعل فعلها حتى أن كل انتصار يحرزه شعب من شعوبها يعده الأفريقيون جميعاً انتصاراً لهم ضد الرجل الأبيض الذى كان تعصبه العنصرى وسيطرته المتغطرسة هما السبب فى تكتل القوى الأفريقية فى جبهة واحدة لرفع نيره عن كواهلهم . وما ثورات ماو ماو والبانتو ومراكش والجزائر وما استقلال مصر والسودان إلا مظاهر لهذا النضال ضد الاستعمار والمستعمرين ؟

المراجع

القسم الاول

العقـــائد الموروثه

« ما من نظام يشاهد بين قبائل أفريقيا السوداء سواء أكان نظاما إجتماعياً أم سياسياً أم إقتصادياً إلا وهو يرتكز على فكرة دينية أو أن الدين هو حجر الزاوية فيه — تلك الشعوب التى ظن أحياناً أنها مجردة عن الفكرة الدينية هى فى الواقع من أشد شعوب الأرض تديناً » .

موريس دلافوس

من كتابه حضارات الزنوج فى أفريقيا

الفصل الأول

الشخص والأسلاف والطبيعة

(١) الشخص والقوى الحيويه

يرى الأب (تمبلز Temples) أن القوى الحيوية هى أسمى القيم عند قبائل (بانتو Bantous) وما العبادات والشعائر لديهم إلا وسائل تهدف كلها إلى غاية واحدة ، وهى تزويد الحياة البشرية بمدد من القوة ، وضمان بقائها وصلاحيتها لأبعد مدى ، وذلك باستخدام قوى الطبيعه . وما السعادة إلا الفوز بأعظم قسط من القوى الحيويه . وما التعاسة إلا نقص وخور يصيب تلك القوى . فالمرض والألم والأعياء والفشل فى العمل كل هذه أعراض تدل على نقص تلك القوة ، فترى الفرد فى قبائل (بانتو) يعترف بأنه « مات وانتهى » إن هو أحس بأى عرض من تلك الأعراض . وعندهم أن الكائن الحى هو القوة ؛ وأن القوة هى كنه الشىء وماهيته ، متميزة عن ظواهره وأعراضه .

وقد تتركز هذه القوة الحيوية فى أجزاء رئيسية من البدن ، كالعين والكبد والقلب والجمجمة . مع مشاركة أعضاء الجسم فيها بدرجة أقل

علي مولا

وتبقى تلك القوى فيها حتى لو فصلت عن الجسم ، مثل قلامة الظفر أو خصل الشعر . بل الأشياء التى يملكها الشخص ويعتاد استعمالها بالملامسة تقتبس جانباً من قوته ، كما تظهر تلك القوة فى منطقه وإشارته . حتى أن الإسم ليس مجرد لفظ يدل على مسمى ، وإنما هو ترجمة لحقيقة الشخص ، فاذا غير اسم الطفل وسمى باسم جديد ، (كما يجرى ذلك فى حفل الختان ، إيذاناً بدخول الطفل مرحلة المراهقة والإطلاع على الأسرار) فقد خلق الطفل حينئذ فى عرفهم خلقاً جديداً .

على أنه يلوح أن فكرة القوى الحيويه هذه لا تخص قبائل (البانتو) ، وإنما نجدها منتشرة بين كثير من القبائل الأفريقية الأخرى ، بل إنها عندهم لا يختص بها الإنسان الحى ، بل تعم الأموات ، وتدور فى الطبيعة بأجمعها ، فتسرى فيها كأنها سيال كهربائى يربط بينها . وقد تتركز تلك القوى فى شخص أو محراب أو مكان ما يكون بمثابة محطات تقوية لذلك التيار الكهربائى وقد تتنوع هذه القوى ويكون لكل منها طابع خاص .

فمثلا تعتقد قبائل (الفانج) فى منطقة (جابون) بوجود قوة تعرف باسم (ايفور) Evur يمكن أن تكون شريرة أو خيرة ، ولا يفوز بها كل إنسان . فإذا ولدت مع الطفل دل على حلولها فيه ثقل وزنه عند ولادته . وقد يحصل عليها المرء فى أثناء حياته إما اقتباساً من شخص معمر ، وإما فى أثناء القيام بشعائر دينية . وأعجب من هذا أن (الايفور) متحرك يستطيع أن ينفصم عن الجسم ، ويعيش بمفرده ، أو يجتمع باشباهه فى وئام أو خصام . ويزعم سحرة القبيلة أنهم يستطيعون إطالة آجالهم باستخدام (الأيفور) فى قتل أعدائهم . حتى ينتقل إليهم (ايفور)

القتيل ؛ ويزعمون أنه إذا فتح بطن القتيل وجد بداخله حيوان معين (أبو جملبو) .

ويوجد الاعتقاد بمثل هذه القوى فى شمال الكنغو ؛ وتعرف هناك باسم (اليما) Elima وينسبونها إلى الموتى من الأجداد . وتوجد (اليما) أيضاً فى بعض الأماكن ، وفى الحيوان الذى يحمل اسم القبيلة ، المسمى (طوطم) Totem وهى أشد ما تكون تركزاً بالجسم فى المرارة أو الكبد أو الطحال . والساحرات القديرات فى القبيلة يتميزن بضخم هذه الأعضاء .

وتعرف القوى الحيوية عند قبائل الأقزام باسم (مجبه) Megebe تربض فى دكنة الظلال ، أو تسير فى الدم . فإذا توفى الشخص انفصمت عنه ، وانتقل جزء منها إلى الطواطم ، ويتسرب الجزء الآخر مع أنفاس الأب المحتضر ، فيتلقاها ابنه البكر إذا حنا على أبيه عند وفاته وفتح فاه ، ليتلقى هذا السر من أبيه .

وتعرف القوة الحيوية بين قبائل (دوجون) باسم (نياما) Nyama وهى قوى مختزنة فى دم الشخص الحى . ومظاهرها الحياة والحركة والكلام . وقد وصفها العلامة (جريول) Griaule بأنها طاقة دائمة لاشعورية ، موزعة بين الحيوان والنبات والاشياء التى تعمر أرجاء الطبيعة والكائنات التى فوق الطبيعة ووظيفتها أن تصون كيان الجسم الذى يحملها . وهى إما موقوتة فيه فيعرض له الموت ، وإما دائمة فيكتسب له الخلود . وصفتها مدام (ديترلين) Mme Dieterlen بقولها : « إن القوى الحيوية (النياما) لها قدرة الانتقال من مكان إلى مكان ، وأنها قابلة للتجزئة وقابلة للتغيير كما وكيفاً ، وأنها سريعة التأثر بشوائب النقص فتنقل هذه الشوائب إلى

جسم صاحبها . فإذا انفصلت عن بدنها المعتاد أصبحت قوة خطيرة يخشى شرها . »

و(النياما) قوة تنتقل بالوراثة من الأب لولده ، وتتضاعف فى أثناء الحمل بالنياما الموروثة عن أحد الموتى من ذوى القربى . وقد تكتسب قسطاً من نياما (القناع الكبير)Grand Masque أثناء بعض الاحتفالات الدينية العظيمة لديهم ، والتى تسمى (سيجى) Sigui كما تتزايد أيضاً بالنياما الكامنة فى بعض الأطعمة الخاصة التى يتغذى بها الإنسان .

ولكل فرد محراب خاص فى بيته للمحافظة على ما يملكه من(النياما). والمحراب يتكون من كرتين أو كأسين من طين يابس ، يصنعهما الأب لطفله ، يوضعان فى واجهة المسكن أو فى أحد أركانه ، ويرمز أحدهما للرأس ، والآخر للجسم . وتوضع فى الأخير آثار الطفل ، مثل قلامة أظفاره وأهدابه وخصل من شعره وقطرات من دمه .

أما (النياما) عند قبائل (مندانج) ؛ وكذلك (الكيلة) Kélé عند قبائل (لوبى) فهى عبارة عن تيارات ضارة تصيب الإنسان وتلصق به إذا تجول بين بعض الأشجار ، أو اقترب من مجرى ماء أو من حيوان مقتول ، أو ارتكب معصية ما . ويتطلب التطهر والبرء منها أدعية طويلة معقدة .

وها هنا نلمس مدى إدراكهم لفكرة العدوى بالنجاسة . وفى عرفهم أن بعض الناس يولدون غير أطهار . فمثلا تعتقد قبائل (الدوجون) أن النساء وطوائف الصناع كالحدادين والحذائين والسحرة قوم أنجاس ،

وأن بعض الأشياء تسبب النجاسة أو تزيدها ، ومن ثم جاء تحريم بعض الأفعال ، وتحريم لمس بعض الأشياء . ومن هنا أيضاً فرضت بعض العبادات للتطهر ورفع الأحداث ، وتحرم قبائل (يوروبا) على المرأة فى أيام الطمث أن تعد الطعام لبعلها ، فإذا ذهب للصيد وجب عليها أن تبقى طاهرة محافظة على عفتها ، وأن تمتنع عن أكل اللحم ، كما أن الاتصال الجنسى محرم فى فترة الطمث وطوال أيام الرضاع (ومن هنا نشأت عادة تعدد الزوجات بينهم) . وفى عرفهم أن اليد اليسرى والجانب الأيسر من الجسم غير طاهرين . وإلى جانب هذا الحشد من المحرمات الاجتماعية قد توجد محرمات خاصة يفرضها رب الأسرة على أعضائها .

الشخص وعقيدة تعدد الأنفس

١ ــ عند السودانيين[1] تقول مدام (ديترلين) أن قبائل (بامبارا) تعتقد بوجود نسمة مزدوجة لكل إنسان : أولا النفس (نى) Ni وثانيا التوءم (ديا) Dya . وتعتقد أن الطماطم إذا امتصتها المرأة كونت فى جوفها جنيناً رخواً ، يحيله الاتصال الجنسى إلى كائن حى . وهذا الكائن الحى يرث كلتا النفسين (النسمتين) عن آخر من يموت من الجماعة . ونسمة (نى) تطلق على الزفير والشهيق وهى التى تنطلق عندما ينام الإنسان . وأما (ديا) فهى توءم الإنسان فإن كان ذكراً فتوءمه أنثى ، وبالعكس . وهى الظل الذى يمتد على الأرض ، والخيال الذى

(١) نريد بالسودان هنا معناه الجغرافى الواسع، الذى يشمل السودان الفرنسى والسنغال وغينيا الداخلية والنيجر الفرنسى ونيجيريا الشمالية . (المؤلف)

ينعكس على صفحة المـاء . وللإنسان وراء ذلك خليقتان ، هما (تيريه) Téré و (وانزو) Wanzo . أما (تيريه) فهى الطبع الذى يفسد عندما يرتكب محرماً ؛ ويمكن حينئذ أن تصبح قوة مستقلة خطيرة (نياما) . وأما (وانزو) فيعبر بها عن الشر الغريزى فيه (وهذه يمكن التطهر منها فى حفلات دينية خاصة ، تعرف باسم حفلات التلقين والاطلاع على الأسرار (عند الختان) .

والدم عندهم هو حامل الخصائص الروحية وناقلها . فالتضحيةبالقربان تخلص منه هذه الأسرار ، وتغذى بها المعابد والمحاريب . وللبصاق أيضاً عندهم قوة روحية ، والأذن عضو مزدوج الجنس ، يجمع بين الذكر والأنثى . والمفاصل هى مركز النطفة الحية ، والأقدام عرضة للتدنس بنجاسة الأرض فيجب تطهيرها فى أوقات متقاربة . وكل إنسان فى أصل تكوينه يجمع بين صفتى الذكر والأنثى . فالرجل فيه من خلقة الأنثى ما دام بغير ختان . والأنثى فيها من خلقة الذكر ، ما دامت بغير خفاض ومن هنا نشأت عادة الختان فى الجنسين ، فالختان هو الذى يميز كل جنس عن الآخر ويحدد طبيعته نهائيا .

وهم لا يطلقون اسماً على الرضيع إلا بعد فحص تركيبه الجسمى ، وتعرف فطرته (تيريه) . والإسم الأساسى للطفل هو اسم جده الذى حلت روحه فى الرضيع ؛ ويضاف إليه أسماء وألقاب أخرى . (مثل اسم الأسرة وشعارها وشجرة نسبها) والتوءمان عندهم نتاج مباشر لإله الماء ويعدون ولادتهما يمناً وبركة . وأما الوليد الأشقر اللون فيعدونه نجساً . وكانوا فى العصور الأولى يذبحونه قرباناً فى الأعياد الكبيرة .

وعندما يموت الشخص تنفصم عنه (نفوسه) ، فتذهب (ديا) إلى الماء ، وتنضم هناك إلى آلهة الماء . وأما (نى) فتحل فى محراب الأسرة فإذا ولد طفل فى الأسرة عادتا للحلول فى بدنه ، ومصير الجثة إلى الديدان والفناء .

وتعتقد قبائل (دوجون) أن العنصر غير المتجسد فى الإنسان مركب من « خيال عاقل » يسكن الجسم وهو الذى ينفصم عنه فى سباته ثم من « خيال غير عاقل » وهو الظل المادى ثم من القوة الحيوية وهى (النياما) . فالموت يطلق الظل الأول ،فيتجه للاتصال بالإله بعد رحلات طويلة . وأما (النياما) فتفارق الجسم عن طريق الشعر .

وتعتقد قبائل(ماندانج) أن كل إنسان له صورة أو ظل(دا) Da . وله نسمة بها حياته (نى) Ni فبعد الموت تصعد (نى) إلى السماء وأما (دا) فانها تظل فى بيت الميت ، إلى أن تتم مراسم الجنازة ، ثم تغادره وتظل هائمة على وجهها زهاء خمسين عاما ، تزور فيها مواطنها الأولى ، ثم تعود للحاق بالنسمة (نى) .

وقبائل (لوبى) تعتقد أيضاً فى وجود عنصرين : أحدهما الظل أو الصورة أو التوءم . والثانى النسمة التى بها الحياة . وموضعها الكبد . وعندما يموت الشخص يظل توءمه مع جسده مع تغير قليل . فاذا تمت مراسم الجنازة الثانية انطلق إلى العالم الآخر ، حيث يتناسى شيئاً فشيئاً عالم الأحياء .

وأرواح الموتى مرهوبة الجانب كثيرا . تعتقد بعض القبائل (مثل

قبائل الجرزى) أن السحرة يتصلون بها ويخاطبونها . وتزعم قبائل (الجورمانتشى) أن من هذه الأرواح مايصبح مفترساً يأكل الآدميين . و (البامبارا) يقدمون القرابين لجثة الميت عندما تحمل إلى مقرها الأخير ، ويتقدم (شيخ العارفين) فيقول مناشداً الجثة : « أتضرع إليك أن تتركنا وشأننا فى سلام . إننا نعدك بتقديم كل ما يرضيك من قرابين » .

٢ — بين قبائل غينيا : تعتقد قبائل (الفون) فى داهومى كما يروى (موبوال) Maupoil أن لكل كائن حى (إنساناً كان أو حيواناً أو نباتاً) أربع أنفس : النفس الشفافة ، والنفس الكثيفة ، والنفس غير المرئيه ، وهى التى إذا انقطعت عن البدن ، وصعدت إلى خالقها حدثت الوفاة ، والنفس الكافله ، وهى التى تحل فى جسد آخر عندما يفارق الميت الدنيا . كما توجد أيضاً روح الشبه وهى التى تحل فى ذرية الراحل . والنفس الشفافة لا تستيقظ فى المرأة إلا بعد زواجها . ويدعى السحرة قدرتهم على تصيد تلك النفس والقضاء على صاحبها .

وتعتقد قبائل (اشانتى) فى ساحل الذهب أيضاً بأربعة عناصر روحيه :

١ — الدم الذى ينتقل من الأم (يلاحظ أن النظام الاجتماعى عند هذه القبائل تسيطر فيه الأمومة) وهذه النسمة تحل فى إحدى نساء الأسرة من جانب الأم .

٢ — ونسمة تنحدر من الأب ، وتنضم بعد موته إلى أهل أبيه .

٣ — والنسمة الإلهيه وهى التى تجىء من عند الله وإليه تعود .

ويزعمون أن هنالك سبعة انواع مختلفة من هذه الروح ، على حسب أيام الاسبوع . ومن هنا نشأت عادة تسمية المولود باسم اليوم الذى يتفق مع روحه .

٤ — والأخيرة نسمة الطباع أو الشخصية الخلقية . ويزعمون أن شخصية الغلام لا تتحقق إلا بعد بلوغه سن المراهقة . وأما قبل تلك المرحلة فالأطفال لا ينتسبون إلى هذا العالم ، ولا يمكن أن ينسب إليهم خير أو شر .

وتميز قبائل (يوروبا) ثلاث أنفس من بينها نفس تسمى نفس الطير وتفارق البدن وقت السبات ، ويمكن اقتناصها عن طريق السحر ، وتعتقد (الايبو) أن للرجل توءما يحمل طباعه وطالعه ، ويقيم كل أمرىء محراباً لتوءمه .

وأما قبائل (إيفا) فتعتقد فى نفسين اثنتين : هما روح الحياة ، وروح الموت ، فالأولى تصعد إلى السماء ، والأخرى تنزل تحت الأرض وراء نهر عريض ، حيث منازل الموتى والزمهرير والكآبة ، وقد تحل نفس الميت فى أحد ذريته . وقد يحدث أن تتنافس روحان فى الحلول بجسم واحد ، فيحدث بينهما شجار يؤدى إلى إضطرابات عقلية عند الشخص المتنازع عليه .

٣ — بين القبائل الأفريقية الأخرى : تزعم قبائل (سارا) ، قرب بحيرة تشاد ، أن الروح تنطلق ناحية الغرب بعد الموت ، ولكنها فى الوقت نفسه تبقى إلى جانب قبر صاحبها ، وتسكن الأوانى الجنازيه التى

ترسم عليها وجوه الرجال والنساء . وتؤمن قبائل (أوبانجى) بأن النفس الآدمية تتركب من قوتين : الاولى متحركة طاغية شهوانية ، والأخرى ساكنة راسخة ، تحد من طغيان الأولى ، وتحدث التوازن فى مزاج الإنسان ، وأن النفوس قد تنطلق أثناء النوم إلى شبيهاتها من الأنفس ، فترقص وتعبث وتتزاوج معها ، إلا أنها قدتقع حينئذ فريسة لأرواح الموتى التى فارقت أبدانها ، فتحاول الهرب منها ، فاذا استطاعت الهرب والعودة إلى جسمها استيقظ صاحبها من نومه فى كرب وضيق . أما إذا وقعت أسيرة فى قبضة الأرواح الأخرى ، فان صاحبها يقضى نحبه ، فان أصابها جرح فى نضالها للتخلص من تلك الأرواح أصيب صاحبها بالمرض .

وتجد أمثال هذه المعتقدات بين قبائل كثيرة فى الكنغو البلجيكية . فالنفس الساكنة تشبه بالظل ؛ والنفس المحركة تشبه بنور العين . وبعضهم يميز نفساً ثالثة مقرها الأذن .

وتعتقد قبائل (الكيكويو) فى كينيا أن لكل شخص نفسين إحداهما تنفصل عن الجسد عند الموت لتنضم إلى أنفس أسلافها ؛ والأخرى نفس جماعيه ، وهى جزء من روح الأسرة التى تحل فى جسد أحد أعضائها بصفة موقوته ، إلى أن تحل فيما بعد فى جسم أحدث مولود فى الجماعة .

وأشد ما يخشاه سكان أعالى نهر الزمبيزى ثلاثة أنواع من الأرواح المعتدية : (أولا) روح ميت ناله أذى من شخص آخر . (ثانياً) روح

ميت من السلف إذا أهملت الشعائر الدينيه الواجبة له أو إذا أهدرت محرماته . (ثالثاً) روح ميت امتصه الساحر من ثقب فى قبره ؛ إذ يقلب الساحر أوضاع معدته وأعضائه . ومنذئذ يستخدم الساحر روح هذا الميت فى أغراضه .

أما عند قبائل (السوازى) فى جنوب أفريقيا فالإنسان يتركب من جسد ونَفَس متردد . ولا بد من تكريم كليهما بعد الموت ، ولا سيما إذا كان صاحبهما من الرؤساء ، ولذلك تحنط أجسامهم وتوضع جثة الملكة الأم فى كفن من جلد ثور أسود . والموت عرض من أعراض الضعف فى أسرة الميت ، يضطرهم إلى مراعاة حداد طويل الأجل ، ويفرض على الأرملة عزلة مدتها ثلاث سنوات . وأما الأرمل فيفرض عليه الحداد عاماً واحداً عند وفاة زوجته الرئيسية ، وشهراً عند وفاة الأخريات .

(ب) الجماعة ومكانة السلف منها

الأسلاف أموات إلا أنهم أحياء

من بين العناصر المختلفة التى تتحلل عند الموت يوجد عنصر واحد على الأقل (ولنسمه الروح أو التوءم) يحتفظ بكيانه وشخصيته ليحيا حياة جديدة .

تزعم قبائل (الدوجون) أن الروح تقيم بمسكن المتوفى حتى حفلة الذكرى الثانية للوفاة . فإذا تمت مراسمها تنتقل خارج القرية حيث تسرح

وتمرح وتزور مرابع آبائها وأمهاتها ، ثم تعود إلى حظيرة الأسرة فتمنح قواها الحيوية (النياما) إلى مولود جديد فيها . فتضمن للقبيلة بذلك الاستمرار والبقاء . وأخيراً تتجه صوب الشمال إلى الجنة (مانجا) Manga حيث تتمتع بالخلود تحت أفياء الأشجار فى النسيم العليل .

وعند (البامبارا) تتقمص الروح أيضاً طفلا يسمى باسم سلفه ، ويحمل كنيته وشعاره . ويعتقد (السارا) ، كذلك أن روح جد الأسرة تحل فى أحد أحفاده . ولكن ذلك ينشىء موقفاً معقداً إذ لا يليق حينئذ أن يعيش الطفل مع أبيه تحت سقف واحد ؛ فان سلطانه يتعارض مع سلطة والده ، وهو رب الأسره . لذلك يجب أن يربى الطفل بعيداً عن بيت الأسره . ونستطيع أن نقول بوجه عام أن أرواح الموتى تتمتع فى نظرهم بموهبة الحلول فى كل مكان : فهى توجد فى العالم غير المنظور ، وفى الوقت نفسه توجد عند القبور ، وحول المحاريب ، وتتقمص الأحياء ، وتراقب سلوك الناس ، ويمكنها أن تدعو إليها الأحياء ، فإذا فعلت كان ذلك سبباً فى موتهم .

وعند قبائل (الأشانتى) تذهب روح الميت إلى مستقر الأرواح وهو يشبه إلى حد ما عالم الأرض ، وعند قبائل (مندى) فى سيراليون لابد لروح الميت قبل الوصول إلى مستقرها أن تعبر بحراً أو تتسلق جبلا . وعالم الموتى منظم على غرار عالم الأحياء : فالذكورة ، والأنوثة ، وعلاقات المودة ، وأماكن الإقامة ، كلها عوامل تحدد نوع الفريق الذى سيلحق به الميت بعد وفاته .

وأما قبائل (ايفا) فتعتقد أن الموتى يعيشون فى باطن الأرض أو فى قرص الشمس . وقد تظهر أشباحهم للأحياء . والذى يموت منهم قبل أوانه (بفعل الساحر) يمكن أن يتقمص جسم إنسان أو حيوان .

وتعتقد قبائل (الأوبانجى) أن أرواح الموتى يمكن أن تظل فى المكان الذى توفى فيه الشخص . فإذا مات غرقاً ظلت روحه إلى جانب النهر ، إلا أن غالبية الأرواح تسبح تائهة فى أنحاء الأجمات والغابات ، حيث تسكن فى الأحجار أو فى أعالى الأشجار . ويعتقد (الباندا) أن جلود الموتى مبيضة اللون وهذا يفسر اعتقاد بعض القبائل أن الرجل الأبيض من أسلافهم .

وتتصور قبائل (المانجا) موتاهم فى هيئة مفزعة ، فيتخيلون أن لهم أجساداً مغطاه بشعر طويل ، أبيض اللون ، وأن لهم رؤساً لا تزيد على قبضة اليد ، وليس لهم أسنان ، وأن عيونهم تتوسط صدورهم أوجباههم ، وفى أصواتهم نخيف ، وللبعض منهم ساق واحدة ، والبعض الآخر يسير بغير رأس ويعرفهم الناس من سيماهم فى ظلام الليل . فإذا رآهم أحد رؤية العين حل به الموت .

وتعتقد قبائل (اوفمبوندو) فى انجولا البرتغالية ان أشباح الموتى قد تجتاح فى الليل أزقة القرى فى جلبة وصياح ، لتسرق الماشية والطيور — وعندئذ تختار لنفسها بيتاً ، فيكون ذلك نذيراً بالمرض لساكنيه . ولا تنصرف هذه الأشباح إلا بتقديم القرابين ترضية لها ومع ذلك فانها على طول الأمد تعود مسالمة . وعند قبائل (الدنكا) من قبائل أعالى النيل أن الموتى يفقدون قواهم كلما تقادم عليهم الزمن ، إلا أنهم

يعوضون عن ذلك برفع مراتبهم فى عالم الأموات بفضل أقدميتهم . وعند قبائل (النوير) أن من يموت فى الأدغال أو تقتله الصواعق لهم قدرة ممتازة ، إذ تصعد أرواحهم للسماء وقد تتسلط أرواحهم على الأحياء .

أما فى (روديسيا) فللأرواح الموتى حق الخيار فى أن تحل فى ذكر أو أنثى ، وبذلك يشبعون بعـــد الموت رغبتهم الجنسية المكبوتة أبان حياتهم ،

الجنائز والقرابين

يرتبط الأحياء بموتاهم فى الأسرة والقبيلة برباط وثيق من الالتزامات فواجب الأحياء قبل كل شيء أن يقيموا الجنائز ليبسروا أمام موتاهم رحلتهم الشاقة بين هذه الدنيا وبين الدار الآخرة . ثم يجب عليهم بعد ذلك أن يقدموا القرابين والضحايا حتى يفوز الأحياء بحماية أمواتهم ورضاهم ، وحتى يتحاشوا غضبهم ولعناتهم ، وأيضاً لكى يصونوا (القوى الحيوية) لأولئك الموتى أنفسهم .

والمراسم الجنازية عند قبائل (الدوجون) طويلة معقدة . تبدأ بأن يقوم (القناع الكبير) — وهو رئيس السحرة والكاهن الأكبر والطبيب الأكبر فى القبيلة — بزيارة المتوفى . ثم تتجمع نسوة القبيلة حول مسكن الفقيد يولولن ويندبن ، ويقوم عدد من الرجال المسلحين باحتلال سطح المنزل . وتلى ذلك تراتيل بلغة سرية ، ويشترك الجميع فى الرقص وفى حركات تشبه المبارزة أو مطاردة الصيد ، ثم يحمل جثمان الميت ويدور به المشيعون يمنة ويسرة وأخيراً ترفع الجثة لتوارى فى

مغارة منقورة فى الصخر . وبعد أيام تبدأ الجنازة الثانية التى تقام لكثير من الموتى ، تحقيقاً لرحيلهم الأبدى عن هذه الدنيا . وتستمر مراسم هذه الجنازة عدة أيام بعد الاستعداد لها بصنع أقنعة وثياب من ألياف النبات ، وتعقد حلقات الرقص المقدس والترتيلات الدينية ، ويتخلل هذا جلسات يحتسى الجميع فيها الخمور . وينصب عادة محراب لكل ميت فى مسكن الأسرة الأصلى . ويتركب المحراب من أوعية من الطين اليابس ، وأصداف مجوفة ، وعيدان يابسة ، وسلاليم صغيرة . ويتولى أكبر الأسرة سناً خدمة المحراب ، وتقديم القرابين ، وتعيين من يذبح الأضاحى ومن يحضر الحفلات . ثم يسمى المولود الجديد باسم الجد الذى حلت روحه فى ذلك الطفل . ويكون تقديم الأضاحى سنوياً من بشائر المحصول الجديد ، ومن ضحايا معينة فى بعض المناسبات : قبل الخروج للصيد ، وعند المرض ، أو عند حدوث شجار . فهذه كلها أسباب لانتقاص القوى الحيوية . فإذا كرم الأحياء موتاهم أسبغ هؤلاء عليهم قواهم مقابل التكريم .

وفى قبائل (البامبارا) توجد جمعية (كومو) Komo وهى جمعية دينية لها سلطات روحية واسعة . منها أنها هى التى تباشر المراسم الجنازية فيحرس الميت زملاؤه فى الرتبة والسن ، ويحملونه إلى مقره الأخير ، ثم يناشده رئيس الجمعية بقوله : « أتوســـل إليك ألا تؤذينا ، فدعنا نعيش فى سلام ووئام ، وليكن زرعنا نامياً ومحصولنا وفيراً . وامنحنا بركاتك ، فقد أدينا لك جميع حقوقك ونحرنا لك القرابين » ومن ثم تنحر الذبيحة ويلقى دمها داخل القبر ، ثم تحرق بعض ممتلكات الميت (السرير

والحصير والمشط والشعر) ويوضع رمادها داخل القبر لتلحق به فى الدار الآخـــرة . وبعد ذلك ينصب محراب الميت فى أسرته . ويدعم المسكن بعمود يمثل عميد الأسرة ومؤسسها . ومن عادتهم أنهم قبل بذر الحب لزراعة الأرض ينادون أسماء موتاهم ، وكل ميت يمثله وعاء كروى به شتى الحبوب التى تطبخ وتصب عند مدخل المسكن ، حيث تنحر الذبائح . ويقيمون كل عام حفلا حول قبور الأجداد يشترك فيه لابسو الأقنعة بالرقص حول القبور .

وفى (ساحل غينيا) يدفن مع الميت طعام وتبغ وافاويه وحلى من الفضة ، ويتقربون لالهة الأرض بصب الخمور على الأرض قبل شق القبر . وأما قبائل (اشانتى) فتدفن موتاها فى مكان يسمونه « غابة الأشباح » ثم ينحرون شاة ويقدمون خمراً من البلح قرباناً للميت . فإذا فرغوا من ذلك وضعوا نباتاً متسلقاً فى عرض الطريق حتى يحول دون لحاق الموتى بهم . وتقام الجنازة الثانية بعد عام ، فتنحر الذبائح ، وتقام الولائم الراقصة . وعلى الرغم من كل تلك الحواجز فإنها لا تحجز عنهم الموتى حجزاً تاماً . فالموتى قريبون منهم دائما ، حتى أنهم قبل كل طعام يضعون لموتاهم قليلا من الحبوب وقطرات من الشراب على ناحية ، نصيباً للموتى . ولا تنظف أطباق الطعام من فضلات الطعام بعد العشاء ، بل تترك لكى تستطيع أرواح الموتى أن تنتفع بما تبقى بها . هذا إلى أنهم يستخيرون موتاهم ويطلبون حمايتهم . فإذا أهمل الأحياء واجباتهم نحو موتاهم انتشر المرض بينهم ونزلت بهم الكوارث انتقاماً منهم وكل فرد من أفراد قبائل (الأشانتى) يملك كرسياً من الخشب أبيض اللون ،

يعتقد أن روحه مشدودة إليه . فإذا مات طلى هذا الكرسى بلون أسود مأخوذ من مح البيض معجوناً بسناج الدخان . ثم ينقل الكرسى إلى بيت تحفظ فيه كراسى الموتى من الأسرة وتؤدى له بعض الشعائر . ولقبائل (إيفا) كذلك مثل تلك الكراسى خاصة بآبائهم ، غير أن قربانهم من الطعام والشراب يوضع فوق القبور .

أما فى شمال ساحل الذهب فللرجال وحدهم حق الاتصال بأرواح الموتى . وأما النساء فلهن أن يشهدن حفلات التضحية ، وليس لهن أن يقدمن الأضاحى بأنفسهن . وإذا عقمت امرأة تمسحت بمحراب الأجداد كى تنجب . وأما قبائل (منده) فى سيراليون فإنها فى العادة تعيش فى وئام مع أرواح الموتى وتتخذ منهم حماتها وهداتها . ولكن بعض الموتى المعروفين بالشر فى حياتهم والذين لا تقبل أرواحهم فى مستقر الأموات تجىء أرواحهم إلى المساكن ، وتدأب على تهديد السكان وإشاعة الفزع فى نفوسهم . وكذلك تصنع أرواح الموتى الذين يهمل أهلوهم أن يدفنوا معهم فضة وثماراً تكرمة لهم عند قدومهم للآخرة ليستعينوا بها على إقامة بيت لهم فيها .

وفى غرب الكامرون يبقى الميت فى مسكنه . والغالب أن يدفن ، حتى إذا تحلل جسده نزعت منه الجمجمة التى يزعمون أنها مأوى الروح ، فتوضع هذه الجمجمة فى مسكن الأسرة ، أو تدفن على عمق يسير من سطح الأرض . وتحتفظ الأسرة بهذه الجماجم لاستخارتها فى أزمات المرض والمشاكل ، ويقدمون لها الشراب والطعام . وبعضهم يقيمون بيوتاً فى الغابات لتأوى إليها الأرواح التائهة الشهيدة . وقد تغالت بعض القبائل

فى عبادة الجماجم إلى درجة التنقيب عنها والحرص على اقتنائها ولو باصطياد الآدميين وأكلهم لأخذ جماجمهم .

وفى شمال الكامرون ومنطقة تشاد يطوى جسد الميت فى وعاءين أحدهما غطاء للآخر . ويحتفظ أهل الميت بوعاء ثالث فى بيت الأسرة يرمز للميت ، فيقول أحدهم مثلا مشيراً إليها « هذا أبى » . « أو هذا جدى » ويملأ الوعاء بخمر الذرة ، ويدار على أعضاء الأسرة ليشربوا نخب الميت . وتقام بين وقت وآخر ولائم دينية تشترك فيها الموتى مع الأحياء فى وحدة روحية . وقد تجعل هذه الولائم شعبية وتوزع فيها الأضاحى والصدقات .

وبين قبائل إفريقية عامة يظهر الموتى فى الحلم لذريتهم ناصحين أو مقرعين أو مطالبين بما أهمله أبناؤهم من القرابين الواجبة لهم ، هذا إلى أن بعض المتخصصين يستطيعون الاتصال بالموتى عن طريق الكهانة . وتعتقد قبائل منطقة البحيرات الاستوائية أن الصيادين فى طرادهم للصيد يمكنهم الاتصال بالموتى من خلال الفجوات التى يصادفونها فى الأحراش .

كل هذه الأمور تجعلنا ندرك مقدار حيرة الزنجى الوثنى ، ومبلغ توزّع نفسه بين عاملين شديدين : عامل الرغبة فى الفوز بالقوى الحيوية التى كانت لآبائه والحاجة لحمايتهم ، وعامل الفزع من سخطهم وخطر تأنيبهم له . إلا أن بعض قبائل (البانتو) اهتدت إلى حل حاسم لهذه المشكلة ، ووفروا على أنفسهم عناء تلك الحيرة ، فأجمع رأيهم على أن يأكلوا لحم الميت ليلة مأتمه ، ثم يثنوا بحرق عظامه . وبهذه الطريقة الفريدة أصابوا

عصفورين بحجر ، إذ انتفعوا بقواه الحيوية بادماج لحمه فى أبدانهم ، وفى الوقت نفسه محوه من الوجود بإحالته رمادا ، فضمنوا استحالة عودته إليهم لينغص عليهم حياتهم .

النظام الاجتماعى فى القبيلة

تتكون الهيئة الاجتماعية فى القبيلة من الموتى ومن الأحياء جميعا ، على أساس تبادل المنفعة والخدمات بينهما . فالموتى هم الرؤساء الفعليون فى الأسرة والقبيلة ، وهم القوامون على استمرار مراعاة التقاليد ، والمراقبون لسلوك ذرياتهم من الأحياء . ولهم عليهم حق الثواب والعقاب إن هم تمسكوا بالعادات المرعية أو حادوا عنها . فالمحافظة على العادات ، واحترام الموتى من الآباء والأجداد ، وإقامة المآتم والحفلات الدينية لتقديسهم ، كل هذا يجرى بإشرافهم وتحت رقابتهم . وبفضل هذه الرقابة يظل النظام الاجتماعى والأخلاق والآداب مكفولة . وتشمل قواعد التحريم بعض الأعمال ، والنظام العام ، والأوضاع المختلفة باختلاف الأشخاص والمناسبات ، وخاصة الأغذية . فمثلا فى غرب الكامرون يحرم على الرجال أكل لحم الخنزير والسلحفاة والفهد ؛ ويحرم على النساء أكل لحوم الخراف والتيس والقردة والسمك والأفاعى. وإذا انتهك فرد محرماً ما نزلت به الكوارث ، كالمرض ، أو سوء غلة الأرض ، أو عقم نسائه ، أو ماشيته ، غضباً وسخطاً عليه من أجداده ، الذين لا يستطاع استجلاب رضاهم إلا بتقديم القرابين ونحر الأضاحى ، أو بكفارات شخصية ، مثل الصوم عن الطعام والشراب ، أو الاستسلام

لعقوبة صارمة ينزلها بهم رب الأسرة . فإذا كان الذنب عظيما حكم على الفرد بالطرد والتشريد من القبيلة . وهذه هى أشد وأقسى العقوبات فى عرفهم .

وبتلك الوسيلة وأشباهها أصبح للأجداد النفوذ الكامل فى تنظيم العلاقات الاجتماعية بين أفراد القبيلة . ولكل ذنب عقوبة مقررة ، يعرفها الجميع ويخضعون لها ، فاتباع هذه النظم ضريبة عامة ، وهكذا يصبح التماسك الاجتماعى ، ومراعاة النظام ، والاشتراك فى الحياة العامة وحفلاتها الدينية ، والمساواة المادية إلى حد ما ، وتبادل الاحترام ، كلها فروضاً مكفولة وميسورة بسلطان القوى العليا ، التى تسهر دائماً على التمسك بالتقاليد ، والتى تعبر بتشريعها الحكيم عن اندماج الإنسان فى سنة النظام العالمى ، وأقسى مايصيب الفرد أن يطرد من الهيئة الإجتماعية للقبيلة ، لأن قوته الحيوية مرتبطة إرتباطاً وثيقا بالقوة الحيوية من ناحية وبقوة باقى الجماعة من ناحية أخرى ، ولا تتصور نكبة أشد من أن يعيش المرء بمفرده مقطوعا عن قبيلته دون حماية أو سند .

هذه الهيئة الاجتماعية القوية المتماسكة تقوم على أساس دقيق من النظام التدريجى ، الذى يشمل الموتى والأحياء ، فلكل مرتبته الخاصة وأعلى مراتب هذا النظام يختص به الأسلاف العظام الذين أسسوا تلك القبيلة ، ثم يليهم فى المرتبة من الموتى الجد الأعلى للأسرة ، ثم ذريته حسب أسبقيتهم فى الوفاه ، ويأتى بعد هؤلاء الموتى جماعة الأحياء على الترتيب التالى :

(١) أكبر الأسرة سنا وهو رب الأسرة ورئيسها ، وهو الواسطة

بين الأموات والأحياء، ويتمتع بالقوى الحيوية الإنسانية منهاوالطبيعية ويقوم بجميع الشعائر الواجبة نحو الآباء، ونحو ظواهر الطبيعة ، إذ فى قدرته أن يأمرالسماء فينهمر المطر، وأن يبعث الحياة فى الزرع فينمو ويمنح الخصب للمرأة العقيم . وهو المهيمن على الصحة والنظام .

(٢) ويليه فى المرتبة الشيوخ ، فمثلا إذا التقى شاب من قبائل (داهومى) بجده فى الطريق ركع على الأرض وسجد له . (٣) وبعد هؤلاء الشيوخ تجىء طبقة الكهول من الرجال . (٤) ثم يليهم الأطفال وحتى هؤلاء مقسمون إلى طبقات تبعاً لأسنانهم . وأما النساء فلهن مكانة اجتماعية على حدة . وفى الغالب هى ذات اعتبار ، وخاصة فى القبائل التى تنتسب لأمهاتها . ومن كل هذا نرى أن السن العالية ثم الجنس هما اللذان يحددان الأوضاع الإجتماعية . وقد تحددها أيضا الطبقة الاجتماعية وهذا الترتيب يتشدد الجميع فى مراعاته ، لدرجة أن مجرد حركة مخالفة له تبدو من أى شخص (كأن يجلس صغير مكان أخيـــه الكبير أو يغضب شاب شيخا أو يعارض غلام والده) يعتبر فى عرفهم إخلالا بحرمة الآباء والأسلاف ، وانتهاكا لحرمة التقاليد القبلية . ويقتضى غفرانها تقديم قربان أو ذبح ضحية أو كفارة .

هكذا تعتبر كل أسرة نفسها فى كفالة أجدادها من الموتى ، ورئيسها من الأحياء . غير أن هناك نفراً أعلى مرتبة من جميع المراتب السابقة ، وهم الرؤساء الأعلون ، الذين يجمعون فى أيديهم السلطان الدنيوى والروحى على القبيلة كلها . فهم أكبر الوسطاء بين الموتى

والطبيعه ، ويعرف الرئيس الأعلى بإسم (هوجون Hogon) بين قبائل (الدوجون) . وهو كاهن الجد الأكبر المؤسس للقبيلة ويشترط فيه أن يكون ، إما رئيس أعرق أسرة فى القبيلة ، وإما أن يختاره أضرابه وقرناؤه ، وإما أن يتحدد بعلامة خاصة (كأن يستقر على رأسه طير أحمر) . هؤلاء الرؤساء الأعلون لا يتصلون بالناس ، لأنهم أنصاف آلهه ، فيتخذ الواحد منهم مسكنا نائيا عن القرية ، يدير منه الشئون الروحية والاجتماعية للقبيلة . وهو السيد المطاع دون منازع ، لأنهم يزعمون أن فى يديه التصرف فى نظام الكون نفسه .

وحيث يوجد الملوك فى القبائل الكبرى نجد أن الملك يتمتع بنفس تلك القوى الخارقة للعادة ، فهو الذى بيده خصوبة الأرض ، وهو حلقة الاتصال بالقوى الخفية . ولهذا كان من المهم جداً حسن إختيار الرئيس الحقيق الكفء . إذ لابد من توافر شروط دقيقة فيه ، كشرف الأصل وإجماع آراء الموتى من الأجداد . فاذا لم يراع ذلك فى انتخابه حلت الكوارث ، فينقطع المطر وتجدب الأرض فلا تؤتى غلتها ، ويؤول أمر الجماعة إلى الدمار والخراب .

وتتبع فى إنتخاب الملك طقوس خاصة ففى قبائل (أشانتى) يحمل الملك على الأعناق ويجلس على الكرسى الأسود لسلفه كى تحل روح السلف فيه ، ويعاد تقليد الجلوس هذا ثلاث مرات متواليات . وأن اسمه نفسه له أثر فعال . . وفى جنوب الكنغو لا يجوز لأحد أن يراه ساعة تناول الطعام ، فهو يعيش فى مسكن منعزل محوط بحرمات عديدة وفى عرفهم أن ملامسته أو التحديق فيه تلويث لقدسيته ، وإضعاف

لقواه الخارقة التى يملكها فى السيطرة على نظام الطبيعة ، فاذا توفى أخفى موته مدة طويلة وتهامس الناس به بالكناية والتلميح دون التصريح ، فيقال مثلا « قد انقضى الليل أو قد تهدم البيت » .

وكان المتبع قديماً بين قبائل (هوزا) عند موت الملك أن يحنط جثمانه . وبين قبائل (أشانتى) و (الفون) أن يذبح عدد من الناس ليقوموا بخدمته فى الدار الأخرى وكانت عبادة الملوك تأخذ أهمية عظيمة وتفرض تضحيات بشرية فالسلف من الملوك ومن مؤسسى الشعوب يأخذون فى أعين الناس صفة الآلهة العظام الحماة لشعوبهم .

وتعتقد قبائل (الزولو) أن الأب الأول هو الذى خلق الناس . وهكذا لا يبقى عندهم لإله السماء إلا رتبة ثانوية . وتدور حول هؤلاء الأبطال المؤسسين قصص وخرافات غاية فى سعة الخيال . فمن ذلك ماتعتقده قبائل (موكولهى) أن خالقهم (موكولهى) Mukuléhé يتمتع بقوى حيوية خارقة للعادة كما يتمتع بالجمال الفتان والرجولة القتية وهو الذى جلب حبة الذرة فى أرضهم ، ولذلك خصصوا كاهناً يتولى المحافظة على ما تركه من مخلفات .

ولقبائل (الدوجون) أساطير وأقاصيص نهاية فى سعة الخيال والتصور ، وتحل أعظم مكان فى ديانتهم ويمكن تقسيمها إل ثلاث طبقات (١) الجد الأول للقبيله ، وهو الذى مات فى هيئة أفعى ، ويرمزون له (بالقناع الكبير) وهذا القناع يبدل مرة كل ستين عاماً فى احتفال دينى حاشد ، ويعرف باسم (سيجى) Sigui تشترك فيه

وتتجاوب له عامة عشائر الدوجون . (٢) يلى ذلك طبقة (بينو) Binou وهم الأجداد الأقدمون الذين تحولوا جناً والذين يمكن معرفة اتصالهم بالناس بعلامة خاصة وهى نزول حجارة معينةمن السماء . فإذا سيطروا على بعض الأحياء كان هؤلاء هم كهان القبيلة (٣) ويلى ذلك أخيراً طبقة (ليبه) Lébé وهو أقدم جد مات على صورة إنسان ، ولكنه يحيا فىباطن الأرض علىصورة ثعبان ، فيمنحها الحياة والخصب ، ويزيد نبات الذرة قوة إلى قوته ، ولذلك تقدم القرابين إليه فى وقت بذر الأرض وعبادته تعد من جهة عبادة للأجداد ، ومن جهة أخرى عبادة للأرض التى أحيتهم . فالزنوج لا يفرقون بين الطبيعة وبين ما وراء الطبيعة ، إذ الكون عندهم وحدة لا تتجزأ .

(ح) عبادة الطبيعة

الحيوان — النبات والمعادن والأشياء

الحيوان :

يعتبرجزءاً غير منفصل عن حياة الناس ،وتختلط نشأته بالأقاصيص والخرافات التى تدور حول نشأة الإنسان. يقول (الدوجون) أن الحيوان توءم الآدمى ؛ويقابل كل جد من اجدادهم الثمانية حيوان سماوى يشترك مع هذا الجد فى الروح . وبذلك يستطيعأن يظهر فى شكل توءمه من الجيوان . وكلما ولد مولود ولد معه صنو له من الحيوان الذى كان يعيش معالأجداد وصنو آخرمنالحيوان المقابل له وقد رأينا فيما تقدم

عقيدتهم فى أن أجدادهم تحولوا إلى أفاعى . أما الكبش فهو فى نظرهم مسيخ تحولت إليه وتجسدت فيه جنية المـاء .

وهم يمثلونه حاملا بين قرنية يقطينة تمثل قرص الشمس .

وللحيوان فى عرف (البامبارا) نفسان : (نى) و (ديا) مثله فى ذلك مثل الإنسان العاقل . فإذا قتل صيداً ماتعقبته روح تلك الفريسة فى أنحاء الغـابة لتنتقم منه . ولذلك يجب على الصياد أن يؤدى مراسم خاصة ليقتنص فريسته . ولكل أسرة قريب أو نسب ما من الحيوان يحرم عليها أكل لحمه . والحدادون لهم قدرة على التحول إلى ما يشاؤون من أنواع الحيوان.

وتزعم قبائل (الماندانج) أنها تحت حماية بعض الحيوان ، كالأفعى العاصرة ، والتمساح ، والحرباء ، والسلحفاة ، والثعبان . والحيوان الخطر يحرم عليهم النطق باسمــه ، ولذلك يسمون التمساح ضباً وتتركز نياما الحيوان المقتول فى جزء من جثته (كالأذن أو الذنب أو الشارب أو المخالب) فإذا قتل الحيوان أصبح ذلك الجزء قوة تستغـل فى أغراض السحر .

ولدى القبائل الساكنة على ساحل غينيا (الأشانتى ـــ والفون ـــ الايفا ـــ اليوروبا) نجد الصلة بين الإنسان والحيوان وثيقة ؛ إذ يزعمون أن لكل إنسان شبيها وصنوا من الحيوان ، فاذا قتل حيوان قتل صنوه . ويعتقد قبائل (اشانتى) أن لبعض الحيوان كالفيل والوعل روحا شريرة ، فاذا قتلها الصياد وجب عليه أداء مراسم الجنازة تسكينا

لغضبها . . وفى مناطق معينة يحرم قتل نوع خاص من الحيوان ، كالأفعي العاصرة ، والتمساح . . وبعض أنواع الحيوان موضع تقديس ، فالحمل مقدس من أجل آلهة الصواعق . والأفعى لها جملة معابد فى جنوب داهومى ولذلك يتركونها آمنة بين المساكن دون أن يمسها أحد بسوء ، فاذا رآها إنسان منهم قبل الأرض بين يديها وناداها بكلمة (أبى) وكثير من العشائر تزعم أنها تمت بصلة القرابه إلى حيوان ما ، فاذا نفق وجب دفنه وأقيمت له الجنائز والمآتم وبكته الطائفة ، كما يفعلون لموتاهم من بنى الإنسان . هكذا تصنع قبائل (الأشانتى) و (الفون) فى الأفعى ، وكذلك تفعل قبائل (الأديوكرو) فى الضب وبعض قبائل (الفون) فى الفهد . وتسمى بعض العشائر نفسها باسم حيوان فبعض عشائر (يوروبا) تسمى نفسها بالكبش أو الفيل أو القرد الاحمر ، حيث تربط الأساطير بين أجداد العشيرة وبين الحيوان المعين . وهكذا تزعم الأسرة الملكية فى (داهومى) أنها تنحدر من أميرة ملكية واقعها فهد ، ولذلك نرى رسم الفهد على الدرع الملكية ويغطى أفراد القبيلة أجسامهم بوشم يمثل برائن الفهد الخمسة . .

ويزعم بعض الرجال فى غرب الكامرون أن لهم القدرة على أن يتشكلوا بأشكال بعض الحيوان وأن يتحالفوا معها : فمن الممكن أن أن يرسلوا فهداً من ذوى قرباهم ليفترس عدواً لهم . ومن الممكن أن يتحول الإنسان إلى فهد أو سلحفاة أو ثعبان ، وأن يكون الإنسان فى الوقت نفسه فى منزله وفى طى حيوان يقاتل أعداءه (فالإنسان الحدأه يفترس دجاج عدوه) . ويعتقدون أن بعض العناكب تنبيء بآثارها على

الأرض عن المستقبل ويعتبرون السلحفاة حيواناً عاقلا ، يحمى صاحبه ، ولذا يعنى به فى الحضر ، ويصطحب فى السفر أما الضب والحرباء فهن نذر الموت فيجب قتلهن .

وقد تركت الحضارة القديمة حول بحيرة تشاد أثاراً ، هى تماثيل لها جسد إنسان ورأس كبش تدل على أسلوب تصوراتها . وبالرغم من أن حلفاءهم قبائل (كوتوكو) قد اعتنقوا الإسلام فإنهم مازالوا يحتفظون بحيوان فى كل مدينة ، يعتبرونه حامياً لهـا . وهو فى الغالب على هيئة ثعبان يربض فى أسوار المدينة ، وتقام له بعض الشعائر ، ويستخيرونه فى مهام أمورهم كانتخاب رئيس للقبيلة مثلا .

وتصور (المانجا) صلتها بالحيوان فى تمـاثيل مختلفة ، فتارة نرى أن إحدى نساء العشيرة فى الماضى السحيق أنجبت حيوانا ، وتارة نرى أن صياديهم القدماء استطاعوا مؤاخاة أصل هذا الحيوان .

فاذا قتل الصياد حيوانا من ذوى القربى كان عليه أن يعترف بذلك لرب الاسرة ، فيقوم هذا بتقديم القرابين تسكينا لروحه وكان عليه أن يستسمح الحيوان المقتول وأن يبكيه . وأعجب من ذلك أنهم يزعمون أنه لو وقع أحدهم بين مخالب وحش من ذوى قرباه فمـا عليه إلا أن يذكره بصلة النسب بينهما ، فيخلى الوحش سبيله من فوره . ولا بد من تأدية مراسم خاصة (شعائر وقربانات من الشراب) للخلاص من انتقام الوحوش التى قتلت أو أكلت ، وخاصة الثيران ، لانها حيوان فيه غريزة الأخذ بالثأر .

وتزعم قبائل (الشلوك) أن بقرة كانت هى أصل سلالة الأنسان والحيوان جميعاً ، وأنها أول ما خرجت من النهر كانت تحمل على رأسها ثمرة اليقطين ، وكان فى داخلها نطفة الإنسان والحيوان معا . ولكل فرد منهم ثور مقدس يحمل اسمه . فإذا مات صاحبه ذبح الثور ووضع قرناه على قبر صاحبه ، بينما يمتنع بعض العشائر من أكل لحم الحيوان الذى يدعى القرابة له . وكذلك الحال عند قبائل (الدنكا) .

وأما قبائل الأقزام فى مستعمرة (جابون) فيدعون الانتساب إلى الفيل المسمى (جور) Gor والذى يعتبرونه ملكاً للحيوان ، ويزعمون ان الرعد يمثل صوته ، وأنه يعاونهم على معرفة مواضع الصيد فى الغابة ، بايحاء ذلك إليهم فى النوم . وفى روديسيا يزعمون أن رئيس القبيلة بعد وفاته يعود إليها فى صورة أسد .

ورغم أن معظم قبائل (باسوتو) فى جنوب أفريقيا أصبحت مسيحية فما زالوا يطلقون على أنفسهم أسماء الحيوان (تمساح ـ وعل ـ أسد ـ قرد) وهكذا يحتفظون بذكريات ديانتهم الوثنيــــة التى تربطهم بهذه الأنواع من الحيوان .

النبات والمعادن والأشياء :

تزعم البامبارا أن النبات يسرى به أحد جوهرى الروح (نى) فلا بد من إقامة شعائر دينية للاحتفاظ بهذا السر فيه ، وأن الطماطم وحدها هى التى يكمن فيها الجوهر الثانى (ديا) ويعتقدون أنها هبة الله لعباده ، وأنها

متناسلة من الدم ، وأنهـا سبب الحياة بحيث إذا طعمت منها امرأة اخصبت من نطفة الرجل وأنجبت . وبعض النبات كثمرة (بالانزا) Balanza وخاصة حبة (الفونيو) Fonio تلعب دوراً هاماً فى أساطير الخليقة لدى البامبارا والدوجون .

وعلى ساحل غينيا شجرة (الايروكو) Iroko هى رمز الخصب والتكاثر . ويعتقدون أن كل الأشجار لها أرواح . فاذا قطعت وجب تقديم القرابين لاسترضائها . ونجد نفس المعتقدات عند قبائل (أوبانجى) . وفى بعض القبائل (المانجا والباندا) ، أن لـكل نوع من الشجر جنية تختصها بمزيد حبها فاذا قطع غصن منها ووضع إلى جانب محراب جاءت الجنية للاقامة فيه . وأكثر مواد السحر مأخوذة من خشب الأشجار وإفرازها ومسحوق النبات ، لأن القوة الكامنة فيها عظيمة .

ومن عجيب عادات قبائل (كيكويو) فى كينيا أنهم إذا قطعوا الأشجار لتمهيد الأرض للزراعة تركوا شجرة سليمة بين مسافة وأخرى حتى تلجأ إليها الجان التى كانت ساكنة فى الشجر المقطوع بعد أن يقدموا لها الأضاحى وبعد أن يتضرعوا لها أن تترك مسكنها وتنتقل إلى الشجر الذى لم يقطع . فاذا اضطروا لقطع الأشجار الباقية جاؤا بفرع وركزوه إلى جزع الشجرة لتلجأ إليه جنياتها ، ثم يحملونه إلى شجرة أخرى لتنتقل من الفرع إلى الشجرة الجديدة حتى تستقر وتعيش فيها نهائياً .

ومن المؤكد أن بعض الجماعات تزعم أن لهـا صلة قربى أو صداقة بنوع من النبات . فعشائر النوير النيلية تقدس ثمرة اليقطين لزعمهم أن جدهم جاء إلى هذه الدنيا داخل هذه الثمرة .

ومن المعادن المقدسة عند قبائل (الدوجون) معدن النحاس والذهب إذ يعتبرونها ملكاً لله ، وفى عرفهم أن الذهب هو الأخ الأصغر للنحاس. وتعتقد بعض قبائل غينيا أن الذهب كائن حى تكمن فيه قوة رهيبة ، واستخراجه من باطن الأرض يوجب القيام بشعائر دينية . وفى بلاد (توجو) يسود الاعتقاد بأن الحياة تجرى فيه ويسمونه (الذهب الحى) ويزعمون أن هناك حيواناً وحشياً أشبه بالقط يعيش فى باطن الأرض يتغذى بالدماء ويفرز مادة الذهب .

وتقدس قبائل (كوتوكو) بعض أنواع الصخور التى لها أشكال خاصة كرية أو مستديرة ومن مراسم التتويج لديهم أن يجلس الملك على حجر منها إعلاناً باعتلائه على العرش . وتعتقد قبائل (كردى) أن فى بعض الصخور حياة لأنها حارة الملمس فى الليل ، وأن لها قوة الانتقال من مكان إلى آخر حين يجن الظلام . فاذا رآها أحد هكذا وحاول الهرب منها فانها تتبعه وتقتله أما إذا عرف عادتها فانه يحتل مكانها فى الفجوة التى تركتها . وحينئذ تصطلح معه وتمنحه دواء نافعاً للحياة .

وفى هذه المنطقة نفسها وفى غيرها تقدس النصب (الأحجار المنصوبة) ويوجه إليها الدعاء ، إما لما فيها من خاصية ذاتية أو إلى الجان أو الآلهة التى تسكنها . ومن الأشياء المصنوعة (مثل المحاريب من الحجارة أو الأوانى) ما يرمز للأسلاف أو الجان على أن لبعضها عندهم حياة مستقلة : فتعتقد (السارا) مثلا أن سندان الحداد له روح . وأنه ينتقم من كل إنسان يؤذى الحداد وكذلك القوارب لها روح .

عبادة الأرض والعناصر والنجوم :

الأرض فى الغالب موضع تقديس بين القبائل الزراعية . ومعلوم أن غالب قبائل الزنوج تعيش على الزراعة . وكل قبيلة تملك قطعة من الأرض لابد لها أن تتحالف معها وليس معنى الأرض هنا الكوكب الأرضى كله وإنما الوطن الصغير الذى تسكن فى أنحائه القبيلة . وليس التحالف مع الأرض نفسها ولكن مع الروح الذى يكمن فى ذلك الأقليم المعين . فاذا نزحت القبيلة عن أرضها واحتلتها قبيلة أخرى ، فعلى هذه أن تستأذن « شيخ الأرض » وهو رئيس القبيلة السابقة حتى يأذن لها فى سكناها وزرعها .

وفى شمال ساحل الذهب يعتبرون الأرض هى المعبود الرئيسى ، ويزعمون أن الأرض تشمئز من إراقة الدم عليها . فاذا قتل إنسان سارعوا إلى إقامة الشعائر الضرورية تحاشياً لغضبها ، واستجلاباً لرضائها ، وتجنباً للكوارث التى يستتبعها ذلك الغضب . ولذلك نرى أن من سلطة « شيخ الأرض » أن يفض النزاع بين الناس . وهم يقدمون القرابين والأضاحى تكريماً للأرض بانتظام ، فى عيدين : هما عيد بذر الحبوب ، وعيد الحصاد .

ونرى العادة نفسها متبعة بين جيرانهم وهم قبائل (لوبى) فهى تقدم القربان من الخمر والحلوى وحب الذرة أمام محراب « آلهة الأرض » وهو شكل مخروطى من الطين يقام إلى جانب شجرة عظيمة . وفضلا عن هذه المراسيم الشعبية عند المحراب ، فانه يجىء إليه كل مذنب خرج عن

شريعتها بارتكاب المحرمات ، كالسرقة أو القتل أو الزنا ، معلناً توبته والتكفير عن جريمتـه . وإلا عزفت الأرض عن ابتلاع ماء المطر فيبور الزرع .

وتعتقد قبائل (أيبو) فى نيجيريا أن الأرض هى ملـكة الكائنات الساكنة فى باطنها . وجميع الناس مملوكة لها سواء منهم الأحياء والأموات . وهى (بالاشتراك مع أرواح الموتى من الأجداد) مصدر التشريع والقضاء فى شأن الأخلاق ؛ فالقتل ، وسرقة المحصول ، والزنا ، وولادة توءمين ، أو ولادة مولود شاذ الخلقة ، تعد إهانة لهـا . باسم الأرض تشرع القوانين ؛ وباسم الأرض يقسم الناس . ولالهة الأرض توابع من الآلهة الصغرى ومنهم آلهة الماء .

وتعتقد قبائل (أوبانجى) أن الأرض هى الأب الأول للإنسان ، ويكاد اسمها يـكون عندهم مرادفاً لاسم (سيتو) Seto وهو بطل حضارتهم المعروف بأنه إنسانىّ النزعة ، ذو دعابة ، وأنه يملك كل نبات فى الأحراش والغابات .

وقد تختلط عبادة الأرض بعبادة الأشجار والأحجار والمياه . ولذلك تقدس قبائل (لوبى) بعض الأجمات والدوح العظيم والـكهوف والزواحف التى تأوى إليهـا ، كما يقدسون النهر وماءه ويزعمون أن الجنس الأبيض يسكن مياه الأنهار .

والقبائل التى تسكن المناطق الجافة (مثل الدوجون والبامبارا) تعطى أهمية خاصة لإله المـاء والأنهار ، فاذا فاض نهر سارعت قبيلة

(مندى) إلى تقديم القرابين له ، ضارعين إليه أن يروى أراضيهم حتى يزرعوها . وفى غرب الكامرون حيث تقيم قبائل (بامون) و (باميلكه) يزعمون أن الصخور العالية تمثل آلهة الأرض والماء وبلغ من تقديسهم لها أنهم إذا أرادوا إثبات صحة شهادة إنسان جعلوه يلعق هذا الحجر بعد طليه بالأفاويه والتوابل الحريفة . ونرى فى مناطق الجفاف هذه أشخاصاً ذوى مرتبة دينية فى القبيلة لابد من وساطتهم لاستدرار المطر . ويطلق على الواحد منهم اسم « شيخ المطر » ، والغالب أن رئيس القبيلة أو شيخ الأرض يتمتع إلى جانب سلطاته بتلك القوى الخارقة .

وتعتقد البامبارا فى عناصر أربعة هى الماء والهواء والتراب والنار كما تعتقد (الدوجون) أن المـاء مكمل لقوة النار ، وليس ضداً لها ، لأن النار تحدث بخار الماء الذى يرتفع للسماء ، ثم يعود إلى الأرض فى هيئة المطر . وتلك هى دورة الحيـاة . وأما قبائل (الدنكا) بأعالى النيل فيعتقد بعض عشائرهم أن النار من أجدادهم ، ولذلك من المحرم عليهم أن يطفئوها . وبعض عشائرهم يعتقد أن المـــاء هو جدهم . ولذلك لا يستعملونها إلا طبقاً لقواعد دقيقة .

وعلى ساحل غينيا يقدس الناس القمم العالية ، والرياح ؛ لأن لها آلهة ؛ كما أن قوس قزح والضباب إلهان عند قبائل (الأوبانجى) يرمز لهما بصورة كبش أو أفعى أو ضفدع . والريح إله لأن له صوتاً ناطقاً . كما يعتقد آخرون فى غرب الكمرون بأن قوس قزح حيوان خطر ؛ وأما الأقزام فتعتقد أنه قوس الصياد الذى فى السماء وقبيلة (السوازى) يسمونه « أميرة السماء » .

وتعتقد قبائل (كردى) أن الشمس والقمر افترقا من قديم الزمان على أثر شجار تماسكا فيه ، وجرح القمر فى وجهه فظهر فيه الكلف . ومنذ يومئذ لا يظهران مجتمعين . وتؤمن (السار) بأن الشمس والقمر والنجوم كائنات حية ، وأن القمر زوج الزهرة ، وأن النجوم من نسل الشمس والقمر ، وكلما صغر النجم دل ذلك على حداثة سنه . ويرى (البوشيمان) فى جنوب أفريقيا أن النجوم والقمر آلهة عظيمة ، تمدهم بالصيد والمطر . ويعتبر (السوازى) أن الشمس ذكر ويشبهونها بالملك وأن القمر أنثى ؛ وأن تغير أوجهه يسبب الأحداث المختلفة . ويعتقد (الدوجون) أن تابع الشعرى اليمانية هو الذى تولد منه الكون ، وأنه هو الذى ينظم فصول الزمن وأوقاته .

الفصل الثانى

مجمع الآلهة — العبادات — فكرة نشأة الكون

الإله الأعظم :

يبدو أن جميع شعوب أفريقيا تعتقد بوجود إله متعال خالق للكون ، إلا أنهم يختلفون اختلافا كبيراً فى تقدير سلطانه فى تصريف أمور الدنيا ، والفكرة السائدة بينهم هى أن هذا الإله يبعد بعداً شاسعا عن العالم ، بحيث يصعب على الناس الاتصال به ، وأن الأحرى أن توجه العبادة إلى من دونه من الآلهة ؛ إذ أنهم المكلفون من قبله بالسهر على أمور هذه الأرض وهم رسله ووكلاؤه .

وتطلق قبائل (دوجون) اسم (أمَّـا) Amma على الاله الخالق . وله عندهم المكانة العليا ، يتضرعون له فى كل مناسبة ، ويذكرون اسمه قبل اسم أجدادهم . وفى كل بيت عظيم من بيوت الأسرة يقام له محراب على شكل مخروطى من الطين اليابس ، كما ترى له على طرق السفر محاريب أخرى لحماية المسافرين . ويقدم رب الأسرة القرابين إليه . وله أيضاً كاهنات خاصات به ، يتعرضن لأزمات عصبية ، ويزعمن أن فى قدرتهن الكشف عن الغيب . غير أن العبادات التى توجه إلى هذا الاله العظيم أقل عدداً من العبادات التى توجه إلى الأجداد الاسطوريين .

وعند (البامبارا) يعرف الإله الأعظم باسم (فارو) Faro ولهم عنه فكرة عجيبة ، فهو نفسه مخلوق من السديم الأزلى ، وصار إله الماء ، ثم تغلب على إله الأرض (بمبا) Pemba ونظم شئون العالم . ويتصورونه فى صورة كائن مائى لونه بين الاشقر والنحاسى ، مزدوج الجنس ، يمثلونه فى صورة عروس البحر ، لها رأس بيضاء اللون ، وأذناها على هيئة زعانف تساعدها على الحركة فى الماء . وهذا الإله غذاؤه دم الأضاحى وحبات الطماطم وحساء الذرة . وهو الذى ينزل الغيث ، ويهب الحصاد ويمنح الخصب للانسان ، فيكثر نسله ؛ ويعلم البشر فنونهم وصناعاتهم ، وهو حافظ الأرواح ومصرف أمور الكون . والعواصف والمطر الجارف من فعله ؛ والجفاف والعقم من مظاهر غضبه ، والصاعقة سلاحه . ويستطيع هذا الإله أن يظهر فى أشكال عدة — : فى شكل غزال أو كبش أو امرأة حسناء ، أو ينحدر فى صورة سيل جارف ، أو يعلو فى صورة ضباب كثيف يرتفع من أرجاء المستنقعات . ومكانه المحبب إليه هو ماء نهر النيجر . وله من الملائكة والجن فى كل مكان عدد يستخدمهم . وكاتم سره الخاص حدّاد مقطوع اليد ، ولا يجوز أن يلوث محرابه طمث امرأة ، ولا يجيب دعوة الداعى إلا عن طريق كهنته .

ويتخذ هذا الإله الأعظم أسماء مختلفة لدى القبائل التى تعيش على امتداد ساحل غينيا . فهو يعرف فى (أشانتى) باسم (نانا) Nana وعند (ايفا) باسم (ماوو) Nawou ، و (أولورن) Oloroun عند (اليوروبا) و (شوكو) Choukou عند (الايبو) . ورغم أنهم

يقدسونه ويصفونه بأنه أزلى خالق للكون ، لانهائى ، يعتقدون ألا أهمية له كبيرة فى تصريف شئون الدنيا . وله معابد قليلة تتخذ على شكل اسطوانة من الطين ، ذات شعب ثلاث تسمى (شجرة الله) . ويعتقدون أنه يعيش فى سماء لا يدركها البصر ، وأنه وكل الآلهة الصغرى بشئون الأرض . ويفسر أهالى (توجو) تباعده عن الناس بأنهم كانوا لوثوا سماءه بأيديهم القذرة .

وفى غرب الكاميرون يسمون الآله الأعظم باسم (نيامى Nyambe) وهو الذى خلق الأرض ، ولهذا يظن بعضهم أنه يعيش فى باطنها إلى جوار الموتى . وتلقبه بعض القبائل باسم (الموت) فهو إله مؤذ يعذب الناس ويقول آخرون أنه يعيش فى أعلى عليين وراء القمر أو وراء أطباق السماء وأنه نزل إلى الأرض على نسيج أحد العناكب يحمل الرجل والمرأة ليسكنهما الأرض، وهو بصير بكل شيء ، إلا أن أحداً لايستطيع أن يصل إلى مكانه . فاذا ظهر الهلال فى السماء رفع الداعى أكفه بالضراعة إلى الله قائلا : « إنى لست من عبادك الجشعين » وبعضهم يتخذ من إزدواج مكانه إزدواجا فى ذاته ، فيكون هناك آلهان إثنان : إله تحت الأرض وإله فوق السماء ، ويعللون عزلة إله السماء وبعده عن الخلق بأنهم عصوه بقتل الحيوان وسرقة النيران . ولما كان قادراً على كل شيء فهو مكتف بذاته لا يحتاج لأحد ، ولذلك لا يذكره الناس إلا قليلا ..

وتؤمن قبائل (أوبانجى) بأن الله كما أنه لاتتناهى قدرته ، لاتتناهى رحمته . ولهذا لا يخشونه ، ولكن يتقربون إليه بأقوال وأشارات أصبحت آلية . وقربانه لديهم بعض فتات الطعـــام يلقى به فى الغاب .

والقسم العظيم باسمه : « السماء ناظرة إلىّ » . وأما الأقزام فيعترفون فيما يظهر بإله عظيم بعيد كل البعد عنهم لايعنيه شيء . ويتقربون إليه ببواكير الصيد وبشائر الفاكهة الجديدة . .

وفى كينيا ومناطق البحيرات الكبرى ، الإله الأعظم (مولونجو) Mouloungou قادر على كل شيء . حاضر فى كل مكان ، وله أربعة عروش يقع أحدها على قمة جبل كينيا . ولا يعبدونه إلا لماما ، ولكنهم يذكرونه كثيراً ، قائلين مثلا « حمانى الله فى ليلتى » وبيده إنزال الغيث وقد يمثل بالشمس ، فى عبارات غامضة .

وأما قبائل أعالى النيل فتعتقد باله سماوى عظيم خلاق ، ينزل الغيث لا يعرفون له صورة مادية ، لأنه لا شكل له ولا تدركه الأبصار، وإنما يدركونه بالعقل ، فهو روح عالمى هو مصدر الخير والشر على السواء ، فاذا التبس عليهم معرفة شيء فذلك الشيء إله فى نظرهم . ودعواتهم موجهة فى غالب الأمر إلى وسطائه من الآلهة الصغرى ، فاذا عجز هؤلاء عن إجابة دعواتهم انصرفوا عنهم ولجـــأوا إلى الاله العظيم آخر الأمر . .

وفى جنوب أفريقيا يعتقد قبائل (دامارا) فى إله خالق ، ويمثلونه بأمهر الصيادين يسكن وراء النجوم حيث يأوى الموتى فى ظلال الشجر . أما (البوشيمان) فليس لديهم فكرة واضحة عن إله خلاق ، وإنما يزعمون أنه قذف بحذائه إلى السماء فخلق القمر بهذه الحركة ، ثم اعتزل منصبه — وعند (الهونتوت) إله يسكن السماء ، وهو أحد قدامى أبطالهم جرح فى ركبته فى إحـــدى المواقع . ويلقبه (السوازى)

بالرئيس الأكبر وله رسول بينهم يعرف باسم (الساق) ولا تؤدى لهما عبادات .

الآلهة الصغرى أو آلهة المرتبة الثانية :

والآلهة الصغرى جماعة موكلة من قبل الإله الأعظم بتصريف شئون البسيطة : ويختلف عددهم تبعاً للبلاد والأقاليم . وعامة السودانيين يتخذون أجدادهم الأسطوريين أو أبطالهم المؤسسين لمدنياتهم ، بدلا من هؤلاء الآلهة الصغار . ولدى قبائل (لوبى) ما لا يقل عن عشرين إلها صغيراً . ويختص كل واحد منهم بمهمة ما : فأحدهم يحمى الناس من المرض ، وآخر يحميهم من اللصوص ، وثالث يهب نعمة العقل والذكاء ، ورابع يمنح الآدمى الخصب والنسل ، وآخر يختص بوفرة الحصاد ، أو يحفظ الناس من أذى السحرة الخبثاء ، وآخر يراقب النساء ليمنعهن من خيانة أزواجهن . وهكذا ، حتى أن أحدهم يصيب الإنسان بداء المفاصل (روماتزم) . .

فاذا اتجهنا إلى ساحل غينيا نجد أنه هو العش الذى يسود فيه الاعتقاد بهؤلاء الآلهة الثانويين . ولهم بها أسماء تختلف باختلاف القبائل ويبلغ عدد هؤلاء الآلهة بين قبائل (يوروبا) قرابة أربعمائة ينشرون حمايتهم على القرى والعشائر . والآلهة عند قبائل « اشانتى » مائيون ، يرمز لهم بأحواض من نحاس . وعند قبائل « ايفة » زراعيون ، يسكنون الأحراج منهم الذكر ومنهم الأنثى ؛ فاذا اشتركت عشيرتان فى تقديس إله بعينه حرم عليهما القتال والنزاع .

وفوق هذا الحشد من الآلهة الصغرى يوجد فى تلك المناطق نفسها إلهة الأرض أو الإلهة الأم ، يتصورونها زوجا لاله السماء . ويحتفل لعباداتها احتفالات سنوية فيها شذوذ أحياناً ، ومنها إله للجدرى ، ومنها إله الماء والبحر . ومنها إله شرير يدعى « لجبة Legba » وهو فى الوقت نفسه مصدر الحياة ومصدر الكوارث ، يتجمعون لاستعطافه واسترضائه وله معبد فى كل قرية فى أفسح ميادينها ، وليس له كهنوت خاص به . وأما اله الجدرى فكهنته يقومون بواجب صحى ، إذ عليهم عزل المرضى ودفن الموتى . .

وفى تلك الأرجاء يطلق اسم « فودون Voudon » على كل شىء مقدس . ومنها نشأت العبادة الدينية « فودو Voudou » المعروفة فى جزر الأنتيل ، ويقل عدد الآلهة الوسطى فى « أوبانجى » ، إذ لا يعرف هناك إلا ثلاثة آلهة : للسماء والعواصف وللأنفس .

وتتوجه قبائل أعالى النيل إلى رسول الاله الاعظم . وليس هذا الرسول سوى البطل المؤسس للقبيلة ، والذى جلب اليهم الحضارة . ويزعمون إنه اختفى أثناء عاصفة هوجاء . وتجل قدرته فى المحاريب وفى شخص رئيس القبيلة حين يجلس على عرشه . .

وأكثر آلهة قبائل (البانتو) وقبائل جنوب أفريقيا الهة صيد . ويقدمون إليها جزءاً من حيوان الصيد ، كالجمجمة مثلا ، قربانا لها . ولآلهة الصيد معابد وكهنوت عند قبائل (أفيمبوندو) .

الجن :

يوجد فى كل مكان بتلك الأرجاء ما يسمى (جن الغاب). وبعضهم يصعب تمييزه عن الآلهة الصغرى . وبعضهم الآخر يشبه الإنسان والحيوان .

فمثلا يوجد عند قبائل (الدوجون) فريق من الجن يدعى (ييبان Yéban) وهم مخلوقات صغيرة الجسم نحيفة ، لهم رؤوس ضخمة ، وهم سلالة الإنسان الخالد ، ويسكنون الكهوف والاجمات الملتفة ، وقدتحمل منهم النساء . وهم الملاك القدماء للأرض . ومنهم فريق يدعى (ادمبولو) Adoumboulou وهؤلاء هم الذين خلقوا الموت . لهم لحى طويلة ، وأجسام ضئيلة . وفريق آخر (جينان Gyinan)وهؤلاء يتميزون بأن لهم ذراعاً واحداً ، وساقا واحدة ، وشعراً أخضر اللون ، ويسكنون الأشجار وهم يسببون المرض .

وأما عند (الماندانج) فيعرفون باسم (وكلوو Woklo-ou) وهؤلاء يتجولون حول البيوت ليسرقوا الطعام . ولذلك ترى النسوة يحرصن على تغطية الأوانى ويمنعن أطفالهن من الخروج ليلا خوفاً عليهم من أذاهم . وتعرف الجان عند (البامبارا) باسم (دازيرى Dasiri) وهى تحرس الدور وأخرى تسمى « سوبا » تحرس الطرق . وتقدم لهذه القرابين من ثمر الكولا أو من خيوط القطن حتى يتخلص النـــاس من أذاها . .

وتزعم قبائل (مندى) أن لها جانا تكشف المستقبل للشخص فى

أحلامه . إذا قدم لها قربانا ولتلك الجان أشكال مختلفة بعضها على شكل سلسلة من الذهب ، والآخر على شكل صفارة ، وثالث على هيئة رجل أشيب ذى لحية بيضاء يستدرج المسافرين إلى الأدغال .

وفى ساحل الذهب تكثر الجنيات وعفاريت الغاب وهؤلاء بالمثل صغار الأجسام ، لهم رؤس كبيرة ، ويغطى أبدانهم شعر كثيف . فاذا آذاهم إنسان أصابوه بالجنون . والجنيات عند (الأشانتى) لها قدم فى أعلى الرأس ، ولها ساق معكوسة الوضع ، وهى تصفر بدلا من التكلم ومع هذا فهى عون للمتطببين فى أبرائهم للمرضى . .

ولدى (السارا) مردة تسمى (سو Su) ويزعمون أنهم عاصروا الاله الأعظم قبل نشأة الخليقة وهم الذين يضعون قوة النمو فى البذور ويخرجون الأجنة من ظلمات الأرحام إلى نور الوجود ، وينزلون المطر . ويعيشون فى باطن الأرض أو فى جوف بعض الطبول وعندهم جان يدعى (كوئى Koï) وتخشاه المرأة خوفا من اعتدائه على عفافها ، لأنه يستطيع أن ينفذ إلى رحمها ، ولذلك ترى النسوة يلبسن منطقة يتدلى منها بين الفخذين قطعة مستطيلة من الخشب ليضللن بها هـــذا الجنى الفاسق . .

وعند (الأوبانجى) حشد من الجنيات ، وهى أرواح مؤذية تجتمع ليلا لتغتال نفوس الناس ، لها أصوات كمواء القطط ، تسمع حول البيوت. وهى تستطيع أن تحل فى الأبدان ، ولا تطردها منها إلا حفلات (الزار) . . ويتصورون جن الماء جناً أبيض اللون ولهذا يقدمون إليه قرباناً أبيض اللون كذلك ، كالدجاج الأبيض والبيض والذرة .

وعند (المانجا) نجد الجن على هيئة ثعبان ضخم ، وقرينته حيوان بحرى . وأما جن الغاب فهو مخلوق قزم ، مشوه الخلق ، له شعر طويل وجسم قوى ، وهو يجوب الغاب حاملا رمحه تتبعه كلاب الصيد ، فاذا التقى برجل طلب إليه النزال . ومع هذا فهو جنى طيب القلب ؛ وقد علم الإنسان الصيد واستعمال النار :

العبادات :

تتخذ معابد قبيلة (دوجون) أشكالا متباينة ، فبعضها دور مربعة الشكل ، مزينة بنقوش وصور رمزية ؛ وبعضها ذات أبراج اسطوانية عالية ؛ وبعضها تطل واجهته على حافة صخرة منقورة . ونجد فى داخلها المحاريب والمذابح ، وهى حجارة مقعرة أو مخروطية ، وبها كل ماتتطلبه العبادة من أدوات .

والحقيقة أن بيت رب الأسرة (جنا) Ginna هو نفسه يعد معبداً ؛ إذ أن بواجهته تجاويف ذات عدد رمزى تحوى أدوات مقدسة لأفراد الأسرة . فرب كل أسرة هو كاهنها . وأما الكاهن الأكبر للجماعة كلها فيعرف باسم (هوجون) Hogon مقدس لديهم . ويزعمون أن ثعباناً معروفاً باسم (ليبه) Lébé يمثل الجد الأول ، يسعى إليه كل ليلة ، فيلعق جسمه ويمنحه القوة كى تطول حياته حتى غده . ويجب ألا يتصبب عرق من جسده ، وإلا ذهبت قواه . ولذلك يفرض على الناس أن يحملوه على ظهورهم . وإذا لمست قدمه حقلا مزروعاً أصابه الشلل والجفاف ؛ لأن أثره كأثر الشمس المحرقة . أما لعابه فهو الذى يسبب رطوبة الجو .

وفى عرفهم أن الموت يطلق ويشتت القوى الحيوية للميت ، ويحدث اختلالا شاملا فى توازن القوى ويظهر هذا الاختلال بوجه خاص فى خمير الذرة وهو القربان الذى يصب على محاريب الأسلاف . وإذا سكر قوم وعربدوا من الشراب احتفظوا بالقوى الحيوية لموتاهم الذين يرضيهم ذلك لأنه يعين على توزيع قواهم الحيوية بين محاريبهم . فيحدث التعادل . وقد صرح (أوجوتملى Augotemmeli) للعلامة (جريول) بقوله : « إن شرب الخمر إلى حد السكر يكاد يكون فرضاً دينياً على الطاعنين فى السن : لأن عربدتهم تبدو اختلالا فى الظاهر ولكن الحقيقة أنها وسيلة من وسائل الاحتفاظ بالنظام الطبيعى لتوزيع القوى » . والأنجاس : وهم طبقة معفاة من مراعاة المحرمات (مثل الحداد أو بعض أفراد الأسرة الذين اختيروا بوسائل غيبية) يستطيعون وحدهم التصرف فى القوى الحيوية المندفعة من الموتى دون أن يصيبهم منها أذى لما يتمتعون به من مناعة .

والغرض من نحر الذبائح للقربان هو استعادة القوى الحيوية . وكلمة (قربان) فى لغة (الدوجون) مشتقة من كلمة معناها (إعادة الحياة) . فالمرض وارتكاب المحرمات تسبب فقدان بعض تلك القوى ، ولا يمكن استعادتها إلا إذا سال دم الضحية وصبغ به المحراب ، أو سكب عليه خبيصة مطبوخة من الذرة . وبهذه الوسيلة يستعيد المتعبد تلك القوى التى ضاعت منه ، كما تستعيد أسلافه قواهم ؛ لأن القرابين والضحايا تحدث شركة روحية بين الأحياء والأموات . والمثل السائر بينهم هو (إن كل فرد يمنح الجميع ويأخذ من الجميع) . .

وأعظم الأعياد الدينية عند (الدوجون)هو عيد (سيجى Sigui) وهو يتكرر فى نهاية كل ستين عاماً ، احتفالا بتبديل القناع الأكبر القديم بالقناع الأكبر الجديد . والقناع الأكبر عندهم هو حامل روح الجد الأول للقبيلة . وفى هذا الاحتفال يخصصون جماعة من المراهقين حملة الأسرار الدينية ، لخدمة هذا القناع وصيانته . والقناع عبارة عن تمثال من الخشب يمثل أفعى هائلة تنتهى برأس دقيقة . ويضحى عندئذ بحيوان وطير ، لتنتقل روح تلك الضحايا وتحل فى تلك الأفعى الخشبية ، فتدب فيها حيـــاة رمزية . وكل قرية لها قناعها الخاص بها . ويلبس المراهقون الذين يشتركون فى هذا الاحتفال لباساً مركباً من لباس الأنثى والذكر . وتستمر هـذه الأعياد اثنين وعشرين يوماً ، يقضيها القوم فى التنقل والرقص واحتساء الخمر . .

والغرض من هذه الاحتفالات أن تغفر خطايا الشباب الذين كانوا سبباً فى موت جدهم ؛ ويهدف بها فى الوقت نفسه إلى تجديد الهيئة الاجتماعية بإمدادها بقوى مجددة لحيويتها ، وإلى توثيق عرى الأخوة والاتحاد الروحى بين أبناء القبيلة ، باشتراكهم فى هذا الشراب ، وأما القناعات العادية ، وهى من خشب لين ، فتتخذ أشكالا رمزية معروفة ، تمثل الحيوان (كالوعل أو الأرنب أو القرد أو الفهد) أو الطير ، أو شخصيات ، أو أشكال بيوت . وهذه الأقنعة هى أدوات الرقص فى الاحتفالات . ويحتفظ بها فى مأوى خاص بها . والنقوش الرمزية ذات الطابع الخاص تتباين ألوانها ويستعمل فيها التربة ، والرماد ، ودقيق الأرز ، وصدأ الحديد ، ودم ذبائح الضحية . وهذه الصور يقصد

بها إلى الاحتفاظ فيها بالقوى الحيوية للموتى . ويصحب هذه الاحتفالات رقص فى الميدان الكبير أو فوق سطح المنازل . ويسير موكب الأقنعة حسب نظام مقرر . لكلٍّ نوع خاص من الرقص يؤديه فى الحلبة . ولهذه الأقنعة محاريب خاصة بها ، وتتصل اتصالا وثيقاً بالشعائر التى تقام طلباً للخصب أو استسقاءاً للمطر .

البــــامبارا :

تصف مدام (ديترلين) العبادة عند قبائل البامبارا بقولها : « إنهم يعبدون السماء ، وأركان الأرض الأربعة ، والجن ، ويتخذون من الحجر أو الشجر أو أماكن الماء محراباً لذبح الضحية ، كما يذبحون الضحايا عند المحاريب المحفوظة فى المعابد الخاصة أو العامة . وكل بالغ إذا كان رب أسرة مالكا لمسكن وأجريت له عملية الختان فهو أهل لأن يقوم بالتضحية » .

وفى اعتقادهم أن القوى الحيوية للذبيح تنتقل إلى المعبود الذى تقدم إليه الضحية الآباء ، أو الجن ، أو (فارو) فى الشعائر الزراعيـة . ويضحى فى العادة بحيوان أليف (طير ، أو كبش ، أو ثور) إلا إذا كان المتقرب صياداً فلا بد أن يقدم حيواناً برياً . ويلزم أن تطول مدة احتضار الذبيحة لأن شكل حركاتها يتخذه العرافون للتكهن بالغيب . ويوزع لحم الضحية على الحاضرين ، وفيه رمز الوحدة الروحية بين الجميع وفى الماضى كانت العادة أن تقدم ضحيـة بشرية ، فى الأحوال الخطيرة التى تهم المملكة .

وكانت الضحية فى الغالب شخصاً أشقر اللون (عـدو الشمس) وهو اللون الذى يفضله الإله (فارو) وتتغير مراسيم التضحية حسب الظروف فهى :

١ ــ فى المشاكل الخاصة بالحكم كان الشخص يشطر عرضاً إلى شطرين بحبل يشد حول بطنه وذلك فى حضور الملك الذى يفرض عليه أن يحتفظ بسكونه دون أن يبدى حراكا ثم يحمل الشطر الأسفل فيلق فى النهر قرباناً للإله (فارو) وأما الرأس فتدفن تحت عرش الملك .

٢ ــ وفى الأزمات المالية يغرز فى حلق الشخص عصا من الغاب الهندى فتنفذ إلى بطنه

٣ ــ وفى حالة وفاة عدد كبير من أسرة واحدة ، يتقدم رب الأسرة إلى الملك ليحصل منه على إذن بتضحية شخص أشقر . فإذا ذبح هذا أخذ لسانه وأنفه وعيناه لتأكلها الأسرة . وأما الجمجمة فتدفن فى فناء المسكن . وكانت العادة عند قبائل الدوجون قديماً أن يضحوا بشخص أشقر اللون فى احتفالهم الدينى بتجديد الكون .

والعبادات المنزلية تستهدف الاحتفاظ بالقوى الحيوية للأسرة ، ودفع كل خطر قد يصيب الجماعة ، واستقبال أرواح الموتى ريثما تحل فى أجسادها . وتفرد فى البيت حجرة تضم المحاريب الخاصة بكل فرد منها ، والمحاريب العامة للجماعة ، وتصور جدرانها بصور ترمز للأموات والأحياء وأجزاء الكون . وفى فناء البيت يوضع الكرسى الخاص برب الأسرة مرتكزاً على جثة شخص أشقر . وعلى بضعة أشياء رمزية .

ويحي هذا الكرسى أفراد الأسرة كل يوم ويقدمون له القرابين من شراب أو تمر أو ضحايا . والغرض من ذلك أن يزيدوا قوى رئيسهم .

وفضلا عن هذه الشعائر المنزلية توجد شعائر جماعية للقرية توجه للآله (فارو) أو للأسلاف ، تقدم فيها ضحايا من الضأن أو الطير ، أو قرابين من القطن وثمر الكولا ، على أن تكون كلها ذات لون أبيض .

وتدفن فى أسفل المحاريب الخاصة بالأسلاف ، جمجمة وأدوات زراعيـــة .

وإلى جانب هــــذه العبادات اليومية العادية ، تقام عبادات موسمية . فمثلا فى نهاية كل شهرين تجمع قمامة القرية التى يزعمون أن بها قوى حيوية كثيرة — ثم تحرق بعد ذبح الضحية ، ويقدم جزء من رمادها إلى إلههم (فارو) . والبقية إلى أعضاء مجلس (الكومو) الدينى ليخلطوه بطعامهم . وكذلك تنحر الضحايا قبيل موسم الأمطار وبعده حول شجرة مقدسة أو على شاطىء نهر . ويقترن هـــذا العيد باحتفالات للغناء والرقص واللهو ، وكذلك تقام شعائر لاستقبال العام الجديد وتوديع العام القديم . والطقوس الزراعية لاحصر لها فى هذه الجماعة التى للزراعة عندها المقام الأول .

الشعوب السودانية الأخرى :

العبادة عند السودانيين تقوم على أساس محلى ، هو الأسرة والقرية دون ما واسطة من كهنوت .

فقبائل (مندى) تقدم القرابين فى أوقات الحرث وبذر الحب والحصاد، أو إذا انتشر بينهم مرض. وتقام حفلات التعبد حول قبر أو فى مكان مقدس. ثم ينادون أسماء موتاهم بترتيب الأقدمية، ويدعونهم، ويقدمون لهم قرابين من الأرز والدجاج، ثم تقام ولائم يقدم فيها الأطفال على الكبار، ثم يترك شىء من الطعام بعد الحفل لتلتقطه الطيور، أو يأكل منه عابر السبيل، فاذا وجد كما هو فى اليوم التالى دل ذلك على غضب الأجداد، ولابد من إعادة الحفل حتى يرضوا عن ذريتهم.

ولقبائل (لوبى) محراب أمام كل بيت، وقد يكون على سطح البيت وقرباتهم فى محاريبهم خمر، أو حساء ذرة مطبوخة، أو ذبح دجاجة. وكل ذلك مقرون بالدعوات. وأما فى داخل البيت فتوضع أصنام من الطين اليابس تمثل الهة الأسرة أو الهة الأسر الحليفة، لحراسة الدار ويتولى رب الأسرة إقامة الشعائر الدينية بالنيابة عن أهل بيته. غير أن كل فرد له حق القيام بشعائره الخاصة. فاذا حدث أن انتقلت الأسرة إلى مسكن آخر، حملت معها أصنامها. فاذا تعذر نقلها لضخامتها قطعوا رؤوسها حتى يسهل نقلها.

على ساحل غينيا:

تتميز العبادات فى تلك الأرجاء بوجود الكهنوت والجمعيات الدينية للآلهة الصغرى. ولكل إله لديهم كهنوت خاص به، كما أن لكل اله معبداً، وهناك معابد كبيرة من الطين الصقيل المزين بنقوش مختلفة

الألوان . وليس من الحتم أن تقام الشعائر الدينية فى داخل تلك المعابد الكبيرة ، فقد تقام فى محاريب صغيرة فى الحقول أو الغابات المقدسة ؛ أو فى كوخ متواضع . وفوق ذلك فلكل بيت فيه محاريبه ، ويحتوى كل معبد على أدوات متنوعة . فنى معبد اله الجدرى نجد أنواعا من الجلود والعظام ، مع ورق من شجر معين ، وتراب من مكان معين ؛ تخلط بعضها ببعض . ويقدم المتدينون للكاهن الهدايا المتنوعة : كالماعز والدجاج والزيت وخمر الذرة أو غيرها من الخمور ، والقماش . ويقوم المتعبدون من الكاهن . فاذا نحرت الضحية وزع شيء من لحمها على الحاضرين

وفى داخل أديرة (اشانتى) نجد أوعية من نحاس أو سلالا تحتوى قطعاً من حجر الصواعق ، والسن ؛ والقرن . وفى داخل أديرة (داهومى) توجد صور منحوتة لوجوه لا يرفع عنها الستار .

ولكل إله يوم خاص يعبد فيه . ولا يجيب الإله على سؤال سائل إلا بلسان كاهنة إذا كان فى حال انجذاب وغيبوبة حين تتقمصه الأرواح كما يقولون ، مؤتزراً مسوحة الكهنوتية . وغالباً ما تكون القرابين من زيت النخيل أو ثمار الكولا أو القواقع . ويضحى بالطير والكلاب والخنازير والغنم والثيران ، حسب الملابسات ، طبقاً لما يطلبه إليهم الإله . فالدم من نصيب الآله ، أما اللحم فيوزع على الحضور لادماجهم فى الوحدة الروحية . وغرضهم من نحر الضحية نقل قوة الحياة وقوة الأخصاب منها إلى المتعبد . وفى الوقت نفسه قد تكون كفارة عنه ؛ وفى الزمن الغابر كانوا يتقربون للآلهة بالضحايا البشرية ؛ وهذه إنما تكون

فى المناسبات الخطيرة ؛ كالكوارث أو عند موت الملك أو فى الأعياد السنوية .

والعجيب أن الضحية من البشر كان يتقبل ذلك عن طيب خاطر ، اعتقاداً منه أن روحه ستحل بعد قتله فى جسم شخص خطير المكانة .

وفى المعابد المنزلية يقيم الصلاة أكبر الأعضاء سناً ، وهو عارى الكتفين ، رمزاً للتوقير والتعظيم . أما الحاضرون من غير رجال الدين فيبقون بعيداً جاثمين على الركب . وفى العبادات التى يؤمها رجال الكهنوت ، تكون مهمة الآخرين القيام بالغناء والترتيلات أوالتصفيق .

وتتبين موهبة رجل الدين وهو فى سن مبكرة . ويستمر فى مهمته مدى حياته . وغالباً ما يكون للكاهن صناعة أخرى ، كالصيد ، أوالحدادة ، أو العرافة ، أو بيع التمائم المقدسة . ولكل إله تمائمه ومخلفاته الخاصة . وفى (داهومى) يلقبون الكاهن باسم « حارس المقدسات » . ومنصب الكهنوت أما وراثى ، وإما أن تدل عليه عوارض مس الجن . والكاهن هو أمين الصدقات والنذور ، ومع ذلك يقولون « أن الله هو الذى يعطيه القوت ! » .

وقد تستغرق مدة التدريب على الكهانة من سنتين إلى ثلاثة ، يفرض فيها على المتدرب مراعاة العفة التامة والامتناع عن شرب الخمر ، والشره فى الطعام ، أو الاشتباك فى شجار . ويعيش الذين تحت التدريب فى رعاية كاهن وتحت إشرافه فى السنة الأولى يلقنون شعائر التطهر وينامون فى الأخراج المعموره بالاشباح والأطياف . وفى السنة الثانية يتعلمون

الطلاسم والتمائم والمحرمات الدينيـة ، وفى الثالثة العرافة والـكهانة .
ويعتبر الكاهن فى مرتبة (زوج الإله) وهو مكلف بخدمة بيته (صيانة معبده) وتقديم طعامه (أخذ النذور والقرابين والضحايا) . كما أنه يعتبر (لسان الاله) وهو وحده الذى يعبر عن إرادته بصوت خاص . ويجوز أن يكون للإله كاهنات من النساء . ويخضع المتدينون أيضاً لتدريب جماعى فى الأديرة . وقد وصف (بارندر) Parrinder أحد هذه الأديرة فى داهومى بقوله : « دير إله السماء عبارة عن مكان مكشوف فى الهواء الطلق ، يحيط به سور ، وحوله أكواخ يعيش فيها المبتدئون . وفى وسط المكان شجرة ضخمة عظيمة الفروع وارفة الظلال ، يصبغ الدم جزعها ، وحولها صف من محاريب وأشياء مقدسة ، من عصى وأعلام وآنية مقلوبة تحت أغطية من القش . وتجثو الكاهنة على ركبتيها عند إقامة الصلاة ، بينما تدق الطبول وتصدح الأغانى فى سكون الليل » .

ومدة الترهب فى الدير للبنات أطول منها للصبيان . فقد تستمر ثلاث سنوات . ولا بد للمبتدىء أن يغير من شخصيته ، وأن يتنكر لأهله وأصدقائه ، ويقطع الصلة بهم ، وأن يتعلم لغته على وضع جديد . وغالباً ما يطلب الـكاهن إلى أسرة ما أن تخصص أحد أطفالها للخدمة الدينية . ومحرم على كل إنسان من غير رجال الدين أن يدخل الدير أو يتصل بساكنيه ، حتى أن الأسرة حين تقدم الطعام لأبنائها تضعه لهم خارج أسوار الدير . وعندما يلتحق المبتدىء بالدير يجز شعره ، ويعرى صدره إلى وسطه ، ولا يعطى إلا قعباً وطبقا . ولكل من البنات والصبيان مكان خاص به . فالعفة واجب مقدس ، وكانت عقوبة من ينتهكها

الإعدام . وتدور الحياة فى الدير حول أداء التراتيل والصلوات ، وحركات الرقص ، والتثقيف الدينى ، والتدريب على الورع ، كما يتعلم المبتدىء صناعة أدوات من نسيج الألياف النباتية لاستعمالها فى الأعياد وتوشم وجوههم ورقابهم وصدورهم وظهورهم وأفخاذهم ، وهى المواضع التى تقع عليها عقوبة الضرب من الإله إذا هم باحوا بالأسرار المقدسة التى لقنوها . وقد يسمح للمبتدئين بالخروج من الدير بعد تسعة أشهر ، بشرط أن يختفوا ويتنكروا فيظنهم من يراهم أشباحاً أو أرواحاً . وعند انتهاء مدة التدريب يحتفل بالخريجين احتفالا عظيماً ، تحضره جميع الأسر ، حيث يقطعون الوقت بالرقص وصب الخمر قرباناً للآلهة ويدفع أهل الخريج منهم فدية ، لأن هؤلاء الخريجين يعتبرون كأنهم أسرى قد جاءوهم من بعيد . وكثيراً ما يعود بعضهم إلى الدير ليقضوا به فترات للخلوة وللتعبد .

وفى البلاد التى يسود فيها نظام الملكية ، ولا سيما فى (الاشانتى) و (داهومى) تحتل عبادة الملوك القدماء مكاناً بليغاً من الأهمية ؛ لأنهم يزعمون أنه يتوقف على رضاء هؤلاء الموتى العظام نعمة خصب الأرض وتكاثر النسل .

وفى قبائل (ايبو) تعد عبادة الأرض هى العبادة الرئيسية ، وكاهن الأرض هو صاحب السلطان فى تنفيذ الشرائع المدنية والأخلاقية . والصناعات الخزفيـة متقدمة تقدماً ملحوظاً فى تلك البلاد ، وفى كل أفريقيا السوداء . ولها أغراض دينية ورمزية .

أفريقيا الاستوائية وأعالى النيل :

تقام العبادات فى غرب الكاميرون داخل مكان عار عن الشجر والنبات ، على شكل دائرة ، يحيط به سور من الشوك قريب من القرية ، وللنساء دور هام فى الأعياد الدينية الزراعية التى تقام هناك . وعبادة الاجداد لدى قبائل (أوبانجى) تقام حول فرع ذى شعب من فروع شجرة مقدسة مغروسة بالقرب من بيت الأسرة ، تعلق به جماجم الصيد وآلاته . وتوضع فيه القرابين ، ويتجمع حوله أفراد الأسرة للولائم الدينية . وحول مسكن رئيس العشيرة ، يقام محراب الأجداد ، وهو عبارة عن مذربين من خشب مقدس ، توضع عليهما ثلاثة جذوع غليظة . كما توجد بيوت للموتى وهى وتد صغير يحيط بها سور من القش . وهناك شعائر خاصة منها ما هو للعاصفة ، ومنها ما هو لإله النفوس .

وعند قبائل (سارا) تقام أعياد دينية زراعية لإله الذرة . وهم يزعمون أن الذرة خرج من يقطنية . يدعى هذا الإله فى وقت بذر الحبوب ، وتقدم بشائر المحصول قربانا له ولهم آلة موسيقية يستعملونها فى الرقص الدينى يزعمون أن روح صاحبها السابق تحل فيها زمناً بعد وفاته وإنما أودعها ملكته الموسيقية . ولهم أقنعة يلبسونها فى الاحتفال الزراعى الدينى . ولها أهمية عظيمة كما هو الحال فى (الكامرون) . ولكل أسرة قناعها الخاص بها وأما قبائل الأقزام فليس لديهم فيما يظهر شعائر دينية كثيرة ، بل أن وجود فكرة السحر عندهم محل جدل بين العلماء . ولقبائل أعالى النيل معابد لآلهتهم الوسطى . والمعبد عندهم عبارة عن كوخ يوضع

فوقه بيضة نعام . ولهم فى كل عام عيدان كبيران : عيد وقت نزول المطر ، وعيد وقت ظهور الثمار . ورؤساء القبائل هم الذين يقدمون القرابين والذبائح فى الاحتفال بعيد المطر . وبعضهم مكلف برعاية سلامة الماشية وإنتاجها . ومما يلفت النظر فى هذه المناطق كثرة ظهور المتنبئين الموحى إليهم ولقد لعب هؤلاء دوراً خطـــيراً فى مقاومة انتشار المؤسسات الإسلامية والأوربية فى بلادهم .

وفى أفريقيا الشرقية والجنوبية :

تنحر قبائل (كيكويو) الاضاحى لله ، ويتوجهون إليه بالدعاء فى حالتى الوباء والجفاف ، كما يقيمون صلاة شكر له عند جنى المحصول الجيد . وعند تناول الطعام يلقى شىء من فتات المائدة على محراب الأسرة ، ويتلى شىء يسير من الأدعية . فإذا نحرت ماشية أهدوا جزءاً منها إلى روح الأجداد . وإذا أقيم عرس دعيت أرواح الآباء والأجداد من الأسرتين لحضور حفل الزواج ، تبركا بهم . وارتكاب المحرمات جرم عظيم لديهم يستلزم التطهير منه ، التضحية بشاة ذكر أو أنثى ، والحنث فى القسم جريمة مشئومة ، تجر الكوارث . وهى فى الغالب قاتلة لمن يتحلل من قسمه ، وهو قسم جماعى . وفى قبائل أوفيمبوندو يخصص كاهن للموتى من جهة الآباء — وهذا الكاهن هو رئيس القرية . كما يخصص كاهن للموتى من جهة الأمهات . وأما (الدامارا) فيستلهمون قبل خروجهم للصيد والقنص ناراً مقدسة تمثل عندهم الشمس الطالعة . وفى زعمهم أن الموت قوة تحمل أسباب العدوى ، ولذلك يحترسون من

وضع أقدامهم على القبور ؛ إذ يجوز أن تنتقل إليهم منها عدوى المرض القاتل . وهم يتقربون للموتى من آبائهم بهدايا من التبغ . وتخصص قبائل (سوازى) كوخاً لعبادة الآباء والأجداد ، ويقدمون إليهم النذور من اللحم والخمر يضعونها ليلا على قبورهم . والحفـــل الرئيسى عندهم (انكوالا Incwala) يحييه الملك والملكة الأم ، ويستمر الاحتفال ستة أيام . ويزعمون أن الملك إذا مات بعث حياً ليزود شعبه بقوى حيوية جديدة . ويحتجب الملك عن الناس طيلة أيام الاحتفال ، بينما تشترك القبيلة فى الرقص بزى خاص ، ومعهم نباتات طازجة ، وحبوب مستنبتة ، سريعة الإنبات . ويحرم أثناء هذه الاحتفالات حمل السلاح وإراقة الدماء .

* * *

(ح) « فكرة الكون وأساطير نشأة الخليقة

شغلت مظاهر الكون والخليقة بال الزنوج البدائيين ، كما شغلت لب بنى الإنسان من قديم ، وحاولوا أن يعللوا وجود الجنس البشرى على البسيطة ، ويحددوا مدى صلته بالكون ، فأسعفهم خيالهم بضروب شتى من التفاسير والأساطير ، تختلف اختلافاً عظيماً بين بيئة وأخرى ، بل قد يحدث اختلاف فى التعليل والتفسير بين أبناء القبيلة الواحدة ، فتقنع العامة بالتافه من الأقاصيص ، بينا تعتقد خاصتهم من عارفى

الأسرار بتفسيرات مغايرة ، يحرصون على كتمانها . على أن هذه العقائد المتعددة المعقدة عن الكون لم يكتشف منها حتى الآن إلا جانب ضئيل . فى مناطق محدودة ، ولا سيما بين قبائل (الدوجون) و (البامبارا) بفضل العلامة (جريول Griaule) وتلاميذه . ويكفى أن نقول أنه أمضى عشرين عاماً فى دراسة وتمحيص فكرة الكون عند الزنوج ، وتشعب خيالاتها واستجلاء غامضها ، وحل عقدها ؛ ثم انتهى إلى القول بأنه لا يزال بعيداً جد البعد عن استيعاب موضوعها . ولذلك فسنقتصر منها على صور متفرقة موجزة الفكرة عند قبائل (الدوجون) و (البامبارا) ، ثم نعرض بعد ذلك عرضاً سريعاً بعض التفسيرات والفلسفات عند القبائل الأخرى .

الدوجون :

يزعم هؤلاء أن الإله (أما Amma) خلق النجوم بأن قذف فى الفضاء كرات من الطين ، وخلق الشمس والقمر بأن سوى كرتين بيضاوين أحاط إحداهما بدائرة من النحاس الأصفر ، والأخرى بدائرة من النحاس الأبيض ، وأن الجنس الأسود ولد فى الشمس ، والجنس الأبيض ولد تحت القمر ، ثم ألقى كرة أخرى من الطين دحا منها الأرض وبسطها من الشمال للجنوب فى صورة أنثى ، ثم اقترن بها فولدت ابن آوى ،ثم ولدت له عدداً من الجن (نومو Nommo) فرأى أحدهم أمه عارية فكساها كساء من لحاء الشجر ، غير أن ابن آوى لما رآها عارية اغتصبها فسال منها دم الطمث . وهكذا ارتكبت الخطيئة

الأولى ، وهى معصية الاقتران بالمحارم ، فتدنست الأرض ، ثم خلق الإنسان من الطين مباشرة جنساً واحداً ، كل واحد منهم يجمع بين طبيعتى الذكر والأنثى ، حتى إذا أجريت عملية الختان تميزت الأنثى من الذكر ، ووضح الفرق بينهما .

ويزعم الدوجون أن نشأة قبيلتهم ترجع إلى ثمانيـة أجداد أسسوها منـذ نشأة الخليقة . ولهذا فهى تنقسم إلى ثمان عشائر . وكان هؤلاء الأجداد يسكنون السماء ويأكلون من أصناف الحبوب الثمانية المباحة لهم . فلما نفدت تلك الحبوب اجـترأ اثنان منهم على أكل حبوب (الفونيو) المحرمة ، ثم هربا من السماء وكانت هذه فرصة أتيحت للأب الأول لينظم الكون . وهم يتصورون الكون على هيئة سلة من الطين مقلوبة ، قعرها يمثل السقف ، فالسقف هو السماء ، والقاع هو الشمس ، وللسماء جهات أربع لكل منهما سلم له عشر درجات — فالشمالى يحمل الإنسان والأسماك ، والجنوبى يحمل الحيوان المستأنس ، والشرقى أنواع الطيور ، والغربى الوحوش والنبات والهوام ، ثم استولى هذا المؤسس الأول على النار ، وخلق منها كور الحداد ، فرماه الجن وهشموا أعضاءه ، فأصبحت ذات مفاصل ، فهبط من السقف وابتكر أول حقل ، فنشأت الزراعة . ثم تبعه بقية الأجداد . غير أن الجد الثامن وصل إلى الأرض قبل السابع ، فغضب السابع وتحول ثعباناً ، فقتله الناس وأكلوه ، واستسلم هو لهم ، وتحمل خطاياهم ، وضحى بنفسه لخلاص البشر . وكان الثعبان قد ابتلع الثامن ، ثم لفظه من فيه فى صورة حجر ، فرجع الثامن هكذا إلى الوجود . ويسمى هذا الجد

(ليبيه Lébé) وهو سيد الكلام وترتيبه فى الوجود التاسع لأنه تجسد مرة أخرى وفى هذا بعث جديد ..

والغريب أن كل شيء يستخدمه (الدوجون) من أدوات ونظام فى حياتهم اليومية يرتبط إرتباطاً وثيقاً بتلك الأساطير الخرافية ويرمز لشيء منها فى دقة متناهية . فصوت آلات الحياكة ونحوها يمثل الكلام والكلام يمثل خيط النساجة ، والقعب المستدير يمثل فى آن واحد الشمس والرحم . وكذلك نجد واجهة بيت الأسرة مقسمة إلى ثمانية صفوف فيها عشر فجوات . فالصفوف تذكرنا بالأجداد الثمانية ، والفجوات ترمز إلى الأصابع العشرة حتى أن تخطيط القرية مصمم على نمط يرمز لانسان مستلق على الأرض رأسه إلى الشمال ، وجسمه إلى الجنوب . فنجد بيت الحداد ومكان اجتماع مجلس القرية ، دلالة على الرأس المفكر فى الانسان . وحجر المسن والمحراب يمثلان الجنين الذكر والأنثى . والنقوش والرسوم فى المعابد تعين على نمو النبات . والعلامات والإشارات لها دلالات دينية أو ترمز لتقاليد خاصة أو تصور أبراج السماء فى صورة تدل على نشأة الكائنات من الماء ، وعلى تكاثرها بعد ذلك ؛ كما تصور نجم الشعرى كأنه هو الذرة الأولى ، أو البيضة الى أفرخت العالم ، بدورتها دورة حلزونية .

البامبارا :

درست مدام (ديترلين) فكرة نشأة الوجود والأقاصيص التى تدور حولها بين تلك القبائل ، واهتدت إلى أن عندهم صورة متحركة

(ديناميكية) لهذه النشأة ، فهم يزعمون أن الكون كان في البداية فراغا هائلا ، يتحرك بحركة ذاتية حول محورين حلزونيين، يدوران فى اتجاهين عكسيين فانطلقت من بينهما قوة هائلة (زو Zo) نشأ منها العقـــل (يو Yo) فلما دار الجهاز فى الجهات الأربع الأصلية تكونت عنه عوالم أربعة فالعالم الحاضر هو الثالث ، والرابع هو عالم المستقبل . وعلى ذلك تكون قوة الذبذبة هي السبب فى تكوين العالم . ثم تبع ذلك نشأة المخلوقات . وأولهـــا ثنتان وعشرون عنصراً هى الخصائص العامة للكائنات ، وهى عناصر التفكير . ثم تلا ذلك سقوط مادة ثقيلة (بمبا) Pemba فى ذلك الفراغ ، فتولدت عنها الأرض . وفى الوقت نفسه يقوم جانب من العقل (فارو) Faro يعلو فيخلق السماء ، ثم تهبط هذه القوة من جديد على الأرض فى هيئة مطر ، فتمدها بالحياة ، فيظهر بالتوالى : العشب ، ثم العقرب ، ثم السمك والتمساح ، وحيوانات أخرى مائية . وكان الإنسان نفسه فى بدء خلقه حيواناً مائياً خرج من الماء . ولذلك يزعم البامبارا أن الصيادين (بوزو) هم أول المخلوقات . ثم يتحول الإله (بمبا) وهو رمز الأرض وتربتها إلى بذور (البالانزا) أو الأكاسيا . ثم يجرد (بمبا) هذا من شخصه شخص زوجه (موسو كورونى) Mausso Koroni ثم يتولد الرجال من (فارو) ، ويوجهون دعاءهم إلى (بالانزا) . وكان الرجال فى بدء خلقهم مخلدين : كلما بلغوا التاسعة والخمسين عادوا أطفالا فى سن السابعة . وكانوا يعيشون عراة الأجسام كسالى لا يؤدون عملا ما ، ولا ينطقون إلا همهمة . ولما طلب (بمبا) أن تقترن النساء كلهن به ثارت امرأته

(موسو كورونى) وأعمتها الغيرة فجابت العالم صارخة منتقمة من الرجال والنساء ببتر أعضائهن التناسلية (أصل فكرة الختان والخفاض) وهكذا بذرت بذور الاضطراب فى الخليقة ، ونشرت التعاسة والموت بينهم ، ولوثت الأرض الطاهرة . وأخيراً ماتت (موسو) هذه واكتشف (بمبا) ما للدم من قيمة حيوية . وهنالك طلب من الرجال أن يقدموا ضريبة من دمائهم . فلما استنفد دماءهم أوكاد لجأوا إلى (فارو) فهداهم إلى ثمرة الطماطم التى تتحول فى أجسامهم إلى دم وإلى جنين . ثم حمل حملة شعواء على (بمبا) حتى هزمه وأبطل عبادة (بالانزا) ولكن الشجرة أنذرت الناس بأنهم منذ اليوم لن يكونوا خالدين .

ثم انفرد (فارو) بتنظيم الكون بعد أن هزم سلطان المادة ، فخلق الليل والنهار والفصول والسماوات السبع وأجزاء الأرض السبعة ، وجعل الناس شعوباً وقبائل ، وبين لهم المحرمات ، ومنحهم الأقوات من البذور الثمانية . وهو إله الماء ، وهو الذى يمسك فى قبضته الينابيع الإثنى عشر التى سيطلقها يوماً لتغرق الأرض تمهيداً للإتيان بخلق جديد هو عالم المستقبل . و (فارو) هذا ينتقل فى هيئة زوبعة هائلة حلزونية الشكل كل أربعمائة عام ليرقب نظام العالم ، ويرمز (لفارو) هذا بقبعة مضفورة من ثمانى دوائر ، كانت فى القديم لباساً للملوك والاعتقاد فى قوة الأعداد مشترك بين البامبارا والدوجون . وكلاهما يعتقد فى رقم (٨) ويعتقد البامبارا أيضاً فى رقم (٧) ويزعمون أن به قوة سحرية رمزية ، لأنه مجموع أعضاء التذكير الثلاثة وأعضاء التأنيث الاربعة .

ويجاور البامارا قبائل (البوزو) وهى تعيش من صيد البحر .

وقد اعتنقت الإسلام سطحياً ، وما تزال تعتقد (بفارو) إلهاً خالقاً ، وتعتقد بأن حبة (الفونيو) وهي أصغر شيء في الوجود هي أصل الخليقة .

القبائل الأخرى :

إذا جاوزنا قبائل (دوجون) و (بامبارا) نجد تصورات أخرى لدى بقية القبائل السود . فعند (اللوبي) نجد الاعتقاد بأن السماء عبارة عن قبة معتمدة على الأرض ، وأن السماء يسكنها الإنسان الأحمر ، وتحت الأرض الإنسان الأسود .

وعند (الكردى) أن النار كانت أول بدء الخليقة ، ثم أرسل الله الطوفان ، وكانت الجبال من رواسبه .

وأهل (داهومى) يشبهون العالم أرضه وسماءه بوعاء وغطائه . فالقسم الأعلى هو الجو وخط الاستواء هو الأرض المسكونة . وما تحت الأرض هو عالم الغيب . .

وعند (المانجا) إن الإله خلق الذكر والأنثى من الطين ، ثم حلت بذريتهم كارثة أبادتهم ، فلم يبق منهم غير (سيتو) Seto شيث وأخته . فارتكب معها خطيئة الاقتران بالمحارم ، وأعدم الموت الذى كان حيواناً مفترساً ، فأصبح شيئاً لا يرى . ورزق الله (سيتو) البذور وقوة استئناس الحيوان ، ثم خرق (سيتو) الوعاء الذى كان يختزن الماء

فانبجست منه الأنهار ، ثم اكتشف النار وعرف حيل الصيد ، ثم صعد إلى السماء وصار نجماً (أوريون) Orion .

وعند (النوير) على أعالى النيل عقيدة أن الإنسان — قد خلق فى جنوب بحيرة (نو) ويشيرون إلى تلك الجهة على وجه التحديد .

وبين قبائل (بانتو) نجد تفسيرات مختلفة لبدء الخليقة . منها أن العالم أنشأه الأب الأول الذى يشبه أن يكون إله السماء . ومنها أنه أنشأته الأم الأولى (إذا كانت القبيلة تنتسب إلى الأم) ومنها أن العالم أنشأه الزوجان الأولان من الناس ، أو زوجان من الكائنات : سماء وأرض ، شمس وقمر ، قمر ونجوم . ومنها أن العالم أنشأه إله خالق . ويندر الاعتقاد بأن الناس ظهروا هكذا مصادفة من كهف فى الأرض أو من بين أدغال الأحراج والغابات الكثيفة . بل يظهر أن بعضهم (كالبا سوتو) يظن أن العالم أزلى ، ما عدا الإنسان والحيوان .

تلك هى العقائد والتصورات الشائعة ولكنه توجد فى مناطق عدة نظريات سرية . فمثلا نجد فى جنوب (جابون) أن الخالق نفخ فى الظلام فخلقت من زفرته امرأة بيضاء (دنتسونا) Dintsouna تحمل الشمس فى يمينها والقمر فى يسارها . وينطلق من ثديها الأيمن سيل من الدم ، ومن ثديها الأيسر سيل من اللبن ، وأن الكواكب تستمد نورها من سناء هذه المخلوقة ، وأن رواسب زفرة الخالق وهى أشبه بالنطفة الحية هى التى لقحت الليل فتكونت من ذلك النجوم . واتخذ الكون شكل زهرة ، تسكن على أوراقها أجزاء العالم ، ثم اقترنت الشمس بالقمر ، فأنجبا إلهاً قسم الكون إلى أبعاده الثلاثه : الطول والعرض والعمق ، التى يسكنها

ثلاثة أفواج من الآلهة . ثم خلق الإنسان الذكر والأنثى من مزاج دم المرأة الأولى بلبنها ، ثم طرد الزوجان من سرة الأرض حيث شجره الحياة ، وأصبحوا غير خالدين ، ثم تكاثر النسل من التزاوج بين الآدميين ، أو بينهم وبين الآلهة .

الفصل الثالث

(ا) تلقين الأسرار وعلم السحر

أسرار التلقين الأول — الغرض من هذا التلقين هو تهيئة الغلمان والفتيات ، وأعدادهم للانتقال من مرحلة الطفولة إلى مرحلة المراهقة . ويقوم هذا التلقين على تثقيف ديني وخلقي في خلوة وعزلة . ويتلقى الجنسان ذلك التلقين كل على حدة . وتجرى على الجنسين فى أثناء ذلك عملية الختان .

ويضم هذا الاحتفال التلقيني كل الأطفال من الخامسة إلى الخامس عشرة . ويعتبر جميع الأطفال الذين يجرى تلقينهم معاً طبقة واحدة فى السن ، يقوم بينهم نوع من التضامن يحافظون عليه . وعند بعض العشائر فى قبيلة (يوروبا) تتأخر عملية الختان حتى سن الخامسة والعشرين، لضمان النسل فى حالة موت الشخص ، ولكن هذه حالة استثنائية .

وهذه الشعائر الأولى حد فاصل بين حياة الطفولة وبين حياة المراهقة والمغزى الدينى منها أنه نشور أو نشء جديد ، إذ يعتقدون أن الطفل بعد اجتيازه هذه المرحلة قد مات ماضيه ، وأنه خلق خلقاً جديداً . وقد تختلف مراسم حفلة التلقين هذه بين قبيلة وأخرى، غير أن مرماها

ومعناها واحد لا يتغير . وقد وصف (فيرجيا Vergiat) إحدى هذه الاحتفالات وأخذ لها صوراً شمسية كثيرة ، فى قبيلة (المانجا) فقال :

إنه عند بدء فصل الجفاف يقام لهذا الغرض معسكر بظاهر القرية فى غابة صغيرة على مقربة من نهر ، حيث يحشد الأطفال الذين ستجرى لهم عملية الختان . وهناك ينامون على أسرة من جريد ، وحشيات من ورق الشجر ، يشدون إليها كل ليلة ، ليظلوا راقدين على ظهورهم . ويقام فى وسط المعسكر محراب مقدس ، هو عبارة عن فرع شجرة مطوق بطوق من نحاس . وأول ما يدخل الأطفال المعسكر يفرض عليهم الصوم ثلاثة أيام، يتدربون فيها فى الوقت نفسه على الرقص . ثم يغتسلون فى النهر ، ثم يقومون بعرض رياضى ، مارين بين صفين من المراهقين الذين اجتازوا محنة التلقين فيما قبل ، فيتعرضون منهم للضرب بالسياط . ثم تبدأ عملية الختان وهم وقوف على شاطىء النهر ، وترمى غرلتهم فى مياه النهر، وتعصب جروحهم . وفى مساء اليوم نفسه يرغمون على الرقص دون أى اهتمام بما ينزف من دمهم . وبعد انقضاء اثنى عشر يوما داخل المعسكر فى مران وتدريب ، يسمح لهم بالخروج للصيد . ومن تقاليد هذا الحفل طلاء الرأس والجسد بغرين أبيض اللون ، على صورة وشم متنوع الأشكال . ويلبس كل طفل أزارا من ليف الشجر ، ويعلق على رأسه وبدنه أوشحة وزينات تقليدية مختلفة . ويتناول منهج التعليم تدريباً على الرقص الدينى ، وإرشاداً إلى التعاليم الأخلاقية والعادات القبلية ، ووصايا عملية فى الحياة ، وتنبيهاً إلى المحرمات ، وتربية جنسية . ويعاقب كل من يرتكب عملا شائناً فى تلك الفترة أو كان ارتكب قبلها ، ومن

بين العقوبات القيام بجمع عسل النحل البرى ، والتعرض للدغ النمل ، والتسخير فى أعمال الحقل تحت ضربات السياط .

وقبل أن يخرجوا من المعسكر تصبغ أجسادهم العارية بطلاء أبيض ثم تمحى أسماؤهم القديمة ، ويتسمون بأسماء جديدة . ويحرم عليهم مخاطبة الناس إلا بعد ثلاثة أيام ، رمزاً إلى أنهم قد ماتوا ثم بعثوا من جديد . وبعدها يحرق المعسكر بكل ما فيه من ملابس قديمة ، ثم يفرج عنهم بعد هذا الامتحان العسير ، ويسمح لهم بالعوده إلى أهلهم فى القرية .

وأما حفل تلقين البنات فيستمر شهراً قمرياً كاملا فى مكان منعزل ، ويفرض عليهن قضاء ليلة فى الغناء والرقص ، ثم الاغتسال فى النهر . وتجرى لهن عملية الختان بواسطة إحدى عجائز الحى ، ويلقى ما اقتطع منهن فى النهر ، كما صنع للغلمان . وبعد تطبيب جراحهن يرقصن فى الليلة نفسها ، وتطلى أجسادهن بالزيت ، وتصبغ باللون الأحمر . ويتلقين كذلك تثقيفاً وتدريباً خاصاً بهن .

ورغم أن عادة الختان للجنسين منتشرة انتشاراً واسعاً بين القبائل السودانية ، وخاصة سكان الغابات ، فإن كثيراً من القبائل على ساحل غينيا تستنكر هذه العادة وتستهجنها ، حتى أن بعضها يشترط ألا يتولى زعامتها أمير مختون ؛ لأنهم يزعمون أنه يفقد قواه بهذه العملية .

بل أن بعض المناطق السودانية القديمة الواقعة بين المنطقتين السابقتين لا تعرف عادة الختان قط ، وتحل محل تلك العادة فى حفلة

التلقين عادات أخرى عندهم . فعند (النوير) توسم الجبهة بآلة حادة . وعند قبائل (سارا) توسم الخدود وتقتلع بعض الثنايا السفلى ، وتجعل بعض الثنايا العليا مدببة الأطراف . كما تمارس بينهم عادة ختان البنات ، ويفرض على الأطفال فى أثناء التدريب أن يشربوا حساء تسبح فيه مواد غريبة ، ويزعمون أنه حساء يحول قلوبهم إلى قلوب رجال ، ثم يسمونهم بالاسم الجديد . وحفلات التلقين تقام عندهم كل ثلاث سنوات وقد تستمر شهرين .

وفى جنوب الكنغو تبدأ حفلة تثقيف البنت عند ظهور أول طمث . أما قبائل الهوتنتوت فإنها تحور عملية الختان بمط أشفار عضو التأنيث حتى يوارى .

ويحظر على النساء وفى كل الأحوال ، حضور احتفالات تلقين الذكور ، كما يحظر على الرجال حضور احتفالات تثقيف البنات ؛ لأنها احتفالات خاصة بتحديد الجنس . ويزعمون أن المرأة تصاب بالعقم إذا أصابها رشاش من دم مختون .

وأما قبائل (باسوتو) فما زالوا برغم اعتناقهم المسيحية يحتفظون بتقاليدهم الوثنية فى إقامة حفلات التلقين . غير أنهم جردوها من مغزاها الدينى ، وسموها باسم (مدرسة المراهقة) التى يتلقى فيها الأطفال التربية الاجتماعية والجنسية ، ويتلقنون السنن المتوارثة عند القبيلة .

الجمعيات الدينية :

(أولا) فى السودان الغربى — تنتشر هذه الجمعيات ، التى تلعب

دوراً هاماً فى الحياة السياسية والاقتصادية التقليدية للقبائل ، وكلها ذات أساس دينى . وكثير منها مهمتها الأولى هى الاحتفال بعبادة معبود . ويحتفل عند الانتساب إليها احتفالا يذكر باحتفال التلقين . ويختص الأعضاء ذوو المراتب الدينية الرفيعة فيها بمعرفة سر نظام الكون والرموز المقدسة معرفة تامة .

وتتكون جمعية (كومو Komo) فى قبائل البامبارا من جميع المراهقين المختونين فى القرية . ورئيس هذه الجماعة حداد يتولى حراسة المعبد وإدارة شئون التراث القبلى ومعبدها الكبير ، فى كوخ يضم محاريب كثيرة فواحد للأنفس ، وآخر للنياما ، وثالث لإله الذرة . وشعار الجماعة (قناع كومو) وهو فظيع المنظر يدخل الرعب فى القلوب . عبارة عن رداء أسود اللون ، له ذراعان ينتهيان بمخالب مسمومة ؛ ويقبل فى عضويتها فى وقت واحد كل من ختنوا فى دفعة واحدة . ويقام لذلك احتفال دينى فى الليل . وفى أثنائه تشرح لهم الأدوات والآثار التى خلفها السلف ، ثم يلقنون مغزى القناع ونظام التشكيلات القبلية ، وتؤخذ عليهم الإيمان والمواثيق بألا يبوحوا بشىء من الأسرار التى لقنوها . وينتهى الحفل بالتآخى فتذبح عنز يشرب الجميع دمها رمزاً للوحدة الروحية التى انتظمتهم . وكلما تقدمت بهؤلاء السن ازدادوا تعمقاً فى الأسرار الخفية العليا . ويجلس الأعضاء فى هذا الاحتفال حول الرئيس ، كل طبقة حسب درجتها قرباً أو بعداً منه . وتدور فى هذه الجلسات مناقشات ومساجلات حول مشاكل القرية والجماعة ؛ ثم تتلوها حلبة الرقص بالقناع فى جلبة وضجيج . فإذا حدث

أحدهم بيمينه وباح بأسرار الجمعية جرح بمخلب القناع وقضى نحبه . وأهم أعمال هذه الجمعية (كومو) هو تنظيم الحياة فى القرية ، ولاسيما المراسم الزراعية المقدسة ، واتخاذ القرارات السياسية ، وتنظيم العمل ، وإقامة العدل . ومجلس الكومو هو حارس التقاليد الاجتماعية ، والأساطير القبلية . ويعتبر هو العمود الفقرى فى مجتمع البامبارا . ولا تقبل النساء فى عضوية هذه الجمعية .

وفى قبائل (مندى Mendè) توجد جمعية (بورو Poro)تشبه جمعية (كومو) فى البامبارا . ويشترك فيها الذكور فقط .ولا يلتحق بها عضو إلا بعد دفع اشتراك للعضوية . وتفرض على طالب العضوية الإقامة منفرداً فى الغاب بضعة أسابيع ، وتحمل وخزات ووسمات فى الصدر والظهر والعنق . ويزعمون أن هذه من آثار عض الجن وفى تلك العزلة يلقن المبتدئ تقاليد القبيلة والأناشيد ، وأساليب الرقص الدينى وقواعد عملية خاصة ، وآداب السلوك والأخلاق (كضبط النفس ، والتعاون ، والخضوع للآباء) . كما يلقن كيفية الاتصال بعالم الجن والعوالم الخفية . وتلعب هذه الجمعية دوراً هاماً فى الحياة الاقتصادية والسياسية القبلية . وأما النسوة فلهن جمعية منفصلة قائمة بذاتها على نظام البورو .

ونجد جمعية (ديورو Dyoro) عند قبائل (لوبى) . وللجمعية كاهنها الكبير ، ودونه كهنة آخرون . وهذه الجمعية هى المنظمة الوحيدة التى تجمع شتات هذا الشعب الفوضوى . وهى تنظم احتفالا دينياً كل سبعة أعوام لتجديد المواثيق بينهم وبين الأرض . فتختار من بين الأبكار عروساً تزف إلى أحد أبناء الأسر العريقة المؤسسة

للقبيلة . فإذا أنجبت طفلا أشاروا لذلك بقولهم : « لقد أنجب النهر » .
ثم تلى ذلك فترة الإباحية والفوضى ، تبدأ بقيام بعض الكبار بقتل شيء من الدجاج والماعز ضرباً بالعصيّ . وتدق الطبول حينئذ إيذاناً ببدء حفلات العيد . وعندها يتحدد أشخاص الفتيان والفتيات الذين يقع عليهم الاختيار لتلقى الأسرار . ثم يتجه الجميع إلى مكان معين ، حيث يفترشون الأرض ويشربون الماء المخلوط بالطين ، ثم يغسلون ويطهرون بماء النهر المقدس ، ثم تطلى أجسامهم بغرين من قاع النهر ، ويخيفونهم بما يسمى (الغول) إذ يقال لهم أنه سيهاجمهم فيمزق أجسادهم فى الظلام . ولذلك يطلقون فى الليل أصواتاً منكرة مفزعة ، يقال لهم إنها صوت الغول . ثم تحلق رءوسهم وتبدل أسماؤهم بأخرى ، ويلقنون الرقص واللغة السرية ، ثم تنشأ علاقات بين الفتيان والفتيات ، فاذا عادوا إلى القرية تجاهلوا الحياة الواقعية ، وأتوا بحركات وأعمال مصطنعة تدل على البله . فمثلا يضعون الطعام فى آذانهم لا فى أفواههم ويوقدون النار على التراب فى القدور بدلا من الطعام ، ولا يلقون إلا بألفاظ ساذجة . وهكذا يصبح تعليمهم الحياة من جديد ضرورة لامفر منها فيبصرون بالمراد من قصة الغول ، ويطلبون إليهم كتمان هذا السر ، وتكون هذه المراسم نهاية مرحلة الطفولة ، وبدء مرحلة المراهقة .

وأما على ساحل غينيا فان هذه الجمعيات لا تقبل فى صفوفها جميع أفراد القبيلة ، وإنما هى عبارة عن أندية خاصة ، لا يلتحق بها إلا من يصلح من أفرادها . ونفوذ هذه الأندية السياسى والاجتماعى على جانب عظيم من الخطورة . وهى أشبه بجمعيات سرية فمنها جمعية (أورو Oro) بين قبائل يوروبا . وهى تمثل أرواح الآباء والأجداد ، وتعبر عن إرادتهم

فيحكم أعضاؤها بالإعدام على كل من انتهك عادات القبيلة. ومقدساتها، ويخرجون فى الليل لينفذوا هذه الأحكام سراً . وعلى النساء أن يبقين فى بيوتهن إذ ذاك، حتى لا يرين هذه المشاهد. وكذلك عند (الايبو) جمعية (أمو Mmo) السرية، تزعم أنها هى لسان الأرض ووكيلة الآباء والأجداد فى العمل على صيانة العرف الموروث، وضمانة احترام العادات المقدسة . ومن سلطة أعضاء هذه الجمعيـة أن يطردوا المرأة الزانية من بيت الزوجية، وأن يعذبوا المتهمين بالسحر — وهم يقومون بهذه الأعمال وهم محجبون بالقناع . ويدخل فى سلطانهم كذلك مراعاة القيام بمراسم الجنائز . وفى (يوروتوفو) نجد عصابة سرية تعرف باسم (قناصة الليل) ويخرجون فى هيئة أشباح مقنعين أو واضعين على نواصيهم قروناً، ويرتدون ثياباً كاسية فضفاضة من الحشائش، ويطلقون من أنوفهم أصواتاً مزعجة فى الظلام ، وتجتمع هذه العصابة فى إحدى الغابات المقدسة. والذين يريدون الانتساب إلى الجمعية يختبرون بألوان التعذيب والضرب بالسياط ، دلالة على صلاحيتهم ويدفع العضو منهم اشتراكا عن عضويته.

وفى (داهومى) و (توجو) توجد جمعية (ميثاق الدم) أسسها المدعو (هازوما Hazoumé) . ومن نظام الاحتفال فيها تكديس بعض الأدوات والمخاليط، وتخطيط مجموعة معقدة من النقوش الرمزية المختلفة على الأرض، ويجلس الأعضاء الجدد حولها، حيث يحضر شراب يوضع فى جمجمة بشرية ، به خليط عجيب من تراب ورماد وحجر

الصواعق وحديد البنادق . ثم يؤخذ دم فصادة من كل أحد من مقدم ساعده ، يلتقط هذا الدم السائل على قشرة ليمون ، ويصب فى الجمجمة التى تدار عليهم ليشربوا منها . فإذا تم ذلك أصبح كل الحضور أخوة فى الدم ، ووجب عليهم أن يتآخوا ويتعاونوا فى السراء والضراء ، ويحمى بعضهم بعضاً . ويعتقدون أن كل من يخالف هذا الميثاق يصاب بالجنون المطبق ، أو تنزل به أشنع الكوارث ، أو تولد له ذرية شاذة الخلقة ، وأنه عرضة للدغة حية سامة يموت منها وهو يعوى من شدة الألم .

وكانت تنتشر فى الماضى بتلك الأرجاء عصابة سرية ، عرفت باسم «عصابة الفهود الكاسرة» نشرت الذعر والإرهاب بين السكان، بل أنه توجد حتى اليوم فى شرق ليبريا وغرب ساحل العاج جمعيات من أكلة لحوم البشر ؛ ولكن أعضاءها يتستـرون تستراً تاماً حتى لا يكشف أمرهم ، وأدى هـذا التستر الشديد إلى خفاء أمرهم على علماء الأجناس البشرية . وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل تعداه إلى وجود عصابة رهيبة لأكل لحوم الموتى . ولا تزال هذه العادة الوحشية تمارس فى مناطق المستنقعات لنهر كازامانس وغينيا البرتغالية .

(ثانياً) الجمعيات الدينية فى أفريقيا الاستوائية : تعتبر الكامرون ، وخاصة الجزء الغربى منها ، عشاً للجمعيات السرية . وبلغ من رهبتها أن أحداً لايجرؤ على التحدث عنها أو حضور جلساتها دون إذن خاص . ومن يخالف ذلك فجزاؤه الموت المحقق . وتملك كل جمعية منها قطعة أرض خاصة ، فى وسطها دار لاجتماعاتها . ولكل منها أقنعتها الخاصة بها ولباسها ورقصاتها ولغتها السرية الاصطلاحية . وأكثر هذه الجمعيات

يتقاضى أجوراً عينية عالية من الشخص الذى يرغب فى الالتحاق بعضويتها . ويفرض بعضها ضريبة على بقية السكان . وكل من يتقدم بطلب عضويتها يتحتم عليه اعتبار قناع الجمعية روحاً مقدساً . فإذا قبل فى صفوفها فعليه أن يتآخى مع بقيـة الأعضاء ويشرب معهم ما يسمى (شراب العهد) . ويصبح بذلك مقيداً بمواثيق الجمعية ، ولا يستطيع منها خلاصاً . وتزعم كل جمعية سرية أنها تعلم ما ظهر وما بطن ، ولها الحق أن تعقد جلساتها فى هيئة محكمة ، فترغم المدين على دفع دينه وتعاقب السارق والزانى والسحرة المشعوذين ، وتحمى الممتلكات . ولا يقبل فى هذه الجمعيات نساء ولا أطفال .

وفى مناطق أخرى جمعيات مشابهة للجمعية السرية فى الكامرون ، ونذكر من بينها جمعية (انجوا Ngoua) السرية عند قبائل (مانجوبا) ويستلزم الدخول فى أسرارها ثلاث درجات من التلقين ، ومن شأن هذه الجمعية أنه إذا وضع أعضاؤها تمثالا صغيراً أمام بيت أحد من الناس كان علامة على أن صاحبه ارتكب ذنباً . ويفرضون عليه أن يقدم إليهم فدية من المواد الغذائية ونبيذ النخل . وقبائل (باندجون) تزعم أن أعضاء جمعية الأفعى يستطيعون التحول إلى أفعى تلدغ الناس . وجمعيات (الرجل الفهد) فى قبائل (باكوكو) و (البولو) جمعيات خطرة للغاية ؛ إذ يخرج الأعضاء تحت جنح الظلام فى لباس من جلد الحيوان ويسيرون على أربع وفى أيديهم خطافات من الحديد يمزقون بها أجساد فرائسهم وينتزعون منها القلب ليتزودوا بقوة إلى قوتهم . ولكن هذه الفظائع قد امتنعت اليوم أو كادت . ورغم أن هذه

الجمعيات ما تزال باقية محتفظة بطابعها الدينى واجتماعاتها السرية ومواكبها المقنعة ، قد اقتصر دورها اليوم على المسائل السياسية والاقتصادية والنقابية (وهو ما يشاهد عند قبائل باميليكه على كثرة الجمعيات عندهم) .

وعند قبائل (سارا) نجد جمعية هيوندو Hyondo تضم جميع رجال القبيلة وتلقنهم معارف السحر (وخاصة السموم) . وهى أساليب يخضعون بواسطتها الأطفال والنساء لارادتهم . وتستغرق مراسم التلقين فى مدارس الأدغال عندهم عدة سنوات . وتشمل تعليم الرقص محاكاة للحيوان ، وتلقين لغة سرية والضرب بالسياط وأحداث خدوش وجروح فى جسم الطالب .

وعند (المانجا) و (الباندا) فى منطقة أوبانجى تشتهر جمعية (أنجاكولا) Ngakola ومؤسسها شخص يسمى (أنجاكولا) اشتهر بأنه طاغية عظيم القوة ذو بشرة شديدة السواد ، مغطاة بشعر كثيف ، وكان يقيم فى وسط الأحراش كما عرف عنه أنه يأكل الناس وقد يلفظهم أحياء . وقد تخلصوا منه بالسم ، إلا أنهم يقدسون قوته . وكان من شأنه أن يعاقب كل من يخونه بالموت . وإذا غضب على الناس رماهم بالمرض إنتقاماً منهم . فاذا حدث ذلك كان من الضرورى أن تعاد مراسم التلقين فى مكان منعزل بجانب نهر وهناك يسمع صوت (أنجاكولا) . يحدثونه بنقر طبل (tam-tam) بقضيب من الخيزران . حيث يقوم معلم التلقين بدور (أنجاكولا) . ويفرض عليه طول مدة التلقين التى قد تستمر سنتين التمسك بالطهر والعفة وألا يغتسل أبداً . وأما المتلقنون فيلبسون تاجاً من ريش طائر على رؤوسهم ، ويربطون أجراساً صغيرة حول

ركبهم . ويفرض عليهم أن يعترفوا بذنوبهم . ومن ثم يبدأ بشعائر توهم بأنهم فارقوا الحياة فيلقى على أجسادهم الرماد ، كما تستخدم أجسادهم مقاعد للجلوس ، ويضربون بعصى من خشب مقدس ، وتدلك عيونهم بزيت نباتى ، ثم تنتهى تلك المراسيم بالقائهم فى ماء النهر . ومغزى كل ذلك ان (أنجا كولا) Ngakola قد اتهمهم ثم لفظهم وأعادهم إلى الحياة من جديد . ثم تلى ذلك تدريبات واختبارات تنتهى بعودتهم إلى قراهم ، فيدخلونها فى هيئة راقصة وقد جعدت وجوههم بتجاعيد صناعية . والتلقين عندهم على عدة درجات .

ويقرر (بيرندا Birinda) أن جمعية Bouity (بويتى) فى جنوب جابون تمارس شعائر التلقين على أربعة مراحل . وتشمل حفلاتها الرقص والأناشيد ، وتناول نوع خاص من النبات يحدث غيبوبة لمن يتناوله . وله تأثير خاص أنه يطلق العناصر التسعة المكونة لكل شخص والتى تقابل عدد الطبقات المؤلفة للكون فى علمهم . ولا يستطيع الشخص إطلاق العناصر العليا إلا أن يكون من كبار المطلعين على الأسرار ، إذ بانطلاق العنصر السابع تظهر له الآلهة الخالقة (دنستونا) وهذه الرؤية موصوفة وصفا دقيقا فى لغة سرية خاصة . ومراتب معرفة الأسرار مدرجة عددياً حسب العناصر التى تظهر له .

وبعد انتهاء الحفل تبدأ مرحلة التلقين ، التى تستغرق عاماً كاملا . فاذا عاد المتلقن إلى الحياة العادية ، ظل تحت وصاية معلمه فترة ما إلى أن يصبح هو نفسه معلما . وعندهم أن كل كائن حى مركب على غرار تركيب الكون . ولذلك ينبغى أن يعرف كل إنسان نفسه ويسهر

على العناية بزياده قواه الحيوية . وعندما يقضى المتلقن نحبة تنطلق من جسده عناصره التسع ، فينضم كل عنصر منها إلى مكانه فى الأجزاء التسعه التى يتركب منها الكون . وأما الذين لم يتلقوا أسرار التلقين فتظل أجسادهم فى الثرى غير متميزة العناصر . وجمعية (البويتى) قاصرة على الرجال فقط . وللنساء جمعية مشابهة لها خاصة بهن . وإلى جانب هذه المدارس السرية الدينية نجد فى تلك المنطقة جمعية سياسية تضم طبقة الحكام ، ويقوم سلطانها على العلم بالسحر وأساليبه .

(ب) الكهانة والسحر

من الطبيعى ، فى بيئة تتحكم فيها وتحركها (قوى حيوية) ظاهرة وخافية ، أن يكون غاية ما يتمناه الانسان فيها أن يضمن لنفسه ولعشيرته الاحتفاظ بهذه القوى والاستزادة منها . وقد كفل الدين كل ذلك للجماعة . وإلى جانب الدين نشأ السحر ، ليستعين به الأفراد على اكتساب تلك القوى ، أو على صد قوى شريرة غير قدسية تهددهم فى أمنهم . وقد ميزوا بين نوعين من السحر : السحر الأبيض أو الحلال والسحر الأسود أو الخبيث . واختص بالأول جماعة معترف بها ، احترفوا تلك الصناعة ، ويلقب الواحد منهم (الكاهن الطبيب) ومهمته الاتصال بالقوى الخفية لاستنباط الجواب منها عن سؤال معين كالسؤال عن نوع مرض أصيب به شخص ، أو عن مدى نجاح السائل إذا أقدم على الاشتغال بعمل ما . فيشتغل الساحر بأساليبه الخاصة لمعرفة الجواب ، ثم يجيب السائل على سؤاله حسب ما هداه اليه سحره . وقد

يضيف إلى ذلك وصف دواء ما وطريقة استعماله . ونرى أن هـذا الـكاهن الطبيب يلعب فى القبيلة الدور الذى يقوم به فى عالمنا المتحضر العرافون والأطبـاء والصيادلة . وهو لا يقتصر على وصف الداء والدواء ، بل يتعدى ذلك إلى ما يشغل بال الإنسان فى حياته . وهو يبيع الناس التعاويذ والتمائم لمختلف الأغراض للشفاء من المرض ، ولاستنزال المطر ، ولاجتلاب الحب ، ولا استعادة القوة ، وكذلك للنجاح فى الامتحانات والانتخابات ..

وقد تـكون صنعة العرافة متوارثة من الوالد إلى الولد . وقد تظهر على شخص ما أعراض من الصرع مثلا ، تدل على أن الاله قد اختاره ليعبر عن إرادته . والعرافون أو الـكهان عند (الماندانج) يحملون خرجاً من جلد الماعز ، يحتوى خليطاً من أدوات العرافة : جذور نبات، وخيوط ، ووعاء من طين يابس به ماء ، وتمثالان لرجل وامرأة ، ونصلان مقوسان ، وأربعة أجراس اسطوانية ، وصرة من الودع ، وقرنان مزركشان . فإذا فرغ الساحر من همهمته وتلاوة العزائم أفرغ خرجه على الأرض ، ثم نثر الودع على الجلد ، وأخذ يستنبط الجواب من الشكل الذى اتخذته هذه الخرزات على سطح الجلد . وبعض السودانيين يستعملون أدوات أخرى ، مثل العصى والحصى وقطعا من الحديد . وفى جنوب منطقة الفلتا العليا وأعالى ساحل العاج يستعملون شرائط من الجلد ، أو سناطاً صغيرة ، أو ماء فى يقطينة يضيفون إليه بعض الاصباغ . ويستشفون الجواب من الشكل الذى تتخذه الرواسب فى المـاء من انعكاس ألوانها فيه . وقد جلب المسلمون معهم نوعاً جديداً

من التنبؤ الحسابى ، يعرف بحساب الجمل الكبير ، وحساب الجمل الصغير ، وضرب الرمل .

وفى موطن قبائل (لوبى) . يعرف العراف المتطبب بين الناس بما يصيبه من صرع ، أو ما يأتيه من أعمال جنونية ، كالتهام القمامة أو التفوه بكلام غير مفهوم . والاستخارة عندهم بوساطة أوضاع الخرز ، أو اهتزازات حصير معلق ، أو بترقيص تماثيل صغيرة معلقة بخيوط ، أو بالاستماع إلى متكلم يتكلم من بطنه بفرض أن صوته يعبر عن كلام الإله . وتوجد جمعية لهؤلاء العرافين تلقن أعضاءها تعاليم خاصة ، وتعلمهم لغة سرية . وهؤلاء يبيعون للناس تعاويذ وتمائم من مواد منوعة ، كالخشب أو القرن ، أو أغصان الشجر ، أو عقود من الخرز ، أو قطعة من حديد .طروق أو نحاس ، أو فاكهة الخ . . وكل واحد من قبائل (لوبى) يحمل ما لا يقل عن ثلاث تعاويذ .

ولدى جيرانهم من القبائل القاطنة فى شمال ساحل الذهب يقيم كل ساحر محراباً منزلياً يستكشف منه الغيب من حركة عصا سحرية مثبتة فى المحراب .

وعلى ساحل غينيا نجد الكهانة وبيع التمائم فاشية بين السكان . والعرافون بين قبائل (اشانتى) يستعملون وسائل أخرى فى الكشف عن الغيب ؛ كسوط ذى سبع شرائح ، وقدر وأمعاء دجاجة ، ومرآة سحرية وخرزات تطرق على أحد القبور . وقد يستعملون وسيطا للارواح يتهكن بالغيب أمام أحد القبور .

وأكثر التعاويذ انتشاراً بين سكان الساحل المكانس الصغيرة من ليف الشجرة ، والقرون ، والمساحيق المنوعة ، وأنياب الأسد ، وأنياب الأفعى ، للوقاية من سمها ، وقصبة بندقية للوقاية من الرصاص ، وصفارة للوقاية من مؤامرات الأعداء ؛ بينما نجد تعاويذ أخرى لحماية الجماعة باسرها ، كثمرة اليقطين وخيوط القطن ، وبعض التماثيل الصغيرة . وللزرع كذلك تعويذة لصيانته سدادات من القش محشوة عظاما . وهناك غير ذلك أكسير للحب ، وتمائم تجعل صاحبها يرى الناس ولا يرونه .

وبين قبائل (فون وايفه ويوروبا) ينتشر نوع من السحر يتكهن أصحابه بواسطة ضرب الرمل ، وهو من تعاليم إله المستقبل المسمى عندهم (فا) Fa وهو الكاشف عن أسرار الوجود والمعبر عن إرادة الإله الأعظم . ويعرف كهنة (فا) هذا باسم (بوكونون) Bokonon وهؤلاء يحيون حياة مثالية فاضلة ، لا اثم فيها ولا كذب . ولكل منهم رواده على قدر صيته وصدق تنبؤاته ، وإن كان يشاع عن بعضهم أنهم أمتهنوا السحر الخبيث إلى جانب مهنة العرافة وعلاج الأمراض . ومن فضلاء هؤلاء الكهنة المطببين الذين طارت شهرتهم فى تلك الآفاق ، الشيخ الوقور (جدجبه Gèdégbé) وكان رئيس الكهان فى بلاط الملك (بهانزان) فقد شهد (موبوال) Maupoil لذلك الشيخ برجاحة العقل والورع والتقى ، حيث استشاره الملك يوما عندما أراد إعلان الحرب على الفرنسيين ، فتنبأ له بالهزيمة والتشرد ، وصارحه بذلك . وأعجب من هذا أن تنبأ (جدجبه) هذا لنفسه باليوم والساعة التى توفى فيها .

و (موپوال) المذكور فرنسى درس أساليب السحر الأبيض والعرافة فى داهومى .

والعراف (البكونون) غيرمتجول، بل يشتغل بصناعته فى مسكنه حيث يقيم محرابا يتألف من جرة منكفئة على فمها ، تحيطها أجراس صغار . فإذا بدأ الاستخارة رمى بثمرة جوز أو ثمرة الكولا على لوح مبسوط فترتفع وترتد ، وله فى إرتفاعها ووقوعها حساب ورموز يستخلص من مجموعها الجواب الشافى . وهو حساب غاية فى التعقيد ففيه (١٦) علامة كبيرة و (٢٤٠) علامة صغيرة ويتقضى أن يمر (البوكونون) بثلاث مراحل تلقينية حتى يصير عرافا .

وفى غرب الكمرون تستعمل (السلة المسحورة) ،وتوضع فى قلبها اصداف من أنواع وأشكال مختلفة ، وقطع من صخر شفاف ولحاء شجر وقواقع ، وعظام ، وبراثن (أبو جلمبوا) ، ولآلىء ، وجلاجل الخ . . فيأخذ العراف السلة ويهزها حتى يختلط ما فيها ، ثم يطرح محتوياتها على الأرض . ومن ثم يتمعن فى أوضاعها . ومن أوضاعها ينطق بالجواب .

وفى بلاد (أوبانجى)يتجول هؤلاء المتطببون المتكهنون ويطوفون بالبلاد ، فى زى من جلد حيوان ، وحول رقابهم حبال بها عقد وتمائم ، يرقصون على أصوات اجراس وجلاجل مشدودة إلى أرجلهم. وكل من أراد أن يحترف التطبيب فى هذه المنطقة لابد له أن يجتاز امتحاناً عسيراً ، إذ يبطح أرضا فى حفرة ، وقد شد ذرعاه إلى أوتاد ، ثم يغطى جسمه بلحاء الشجر والحطب ، ثم تشعل النار فى هذا الهشيم ، ولايستنقذ

من هذا الأخدود الأبعد أن يصاب جسده بحروق جسيمة . ويزعم المتكهن منهم أنه يعرف الغيب بعلامات يستشفها من سبح أنابيب القصب على الماء ومن حركة اشتعال النار التي يرقصون حولها ويحصل الشفاء بأن يمتص الطبيب الداء من جسم المريض بفصد العضو المريض فاذا أمتص منه الدم أخذ يتفله في هيئة قطع من العظام ، علامة على تمام الشفاء . وهذه الطريقة منتشرة في أنحاء أفريقيا السوداء .

وتستعمل (اليقطينة المسحورة) في الاستخارة عند قبائل أعالي النيل وشرق أفريقية فيوضع فيها بذور ، ثم تهز بحركة شديدة ، ويعتبر الصوت الصادر عنها صوتاً صادرا من الآله .

ورسامة طالب الطب والكهانة عند قبائل الأقزام تكون بامتحان عسير رهيب ، إذ يربط الطالب إلى جثة ميت ، وجهاً لوجه ، ثم يدلى الإثنان في قبر ويتركان فيه ثلاثة أيام . فاذا لم يصب الطالب في نهايتها بالجنون دل هذا على قوة سلطانه على أعصابه وضبطه لنفسه ، وعلى أن الأرواح العليا قد حلت فيه .

وينفرد الساحر المتطبب عند قبائل (البوشيمان) بقدرة خفية هائلة ، إذ يزعم أنه يستطيع أن يستدرج الصيد من مكانه ، وأن يتحول إلى حيوان ، أو يصعد إلى السماء بتسلق حبل يقذف به إلى أعلى ليستنزل المطر وعند (الدامارا) سحرة وهبوا القدرة على استنزال المطر برقصات خاصة يرقصونها ويستطيع بعضهم أن يتنبأ بالغيب عندما ينصت إلى صفق نعليه .

والاستخارة بطرق فقرات من عظام معروفة فى الجنوب الشرقى لأفريقية . وتوجد بين قبائل (باسوتو) و (سوازى) طبقة من النساء متخصصات فى مداواة داء الصرع ، يداوين المصاب بارغامه على الرقص دون استراحة ، حتى تنتهك قواه ، ثم يلقى به فى النهر فتفر من جسده الأرواح الشريرة التى سببت المرض .

أنواع أخرى من الكهانة والسحر :

لا تقتصر صناعة السحر على الكهان المحترفين ، بل توجد أساليب أخرى من السحر والكهانة يزاولها الأفراد غير المحترفين ، إذا كانت تكمن فيهم قوى خفية تكشف لهم عن الغيب .

ومن ذلك ما يفشو لدى قبائل (بامبارا) من التكهن بالإعداد الاثنين والعشرين التى تقابل عدد العناصر المكونة للخليقة . فالعدد (١) يقابل الإله (فارو) وعدد (٢) للتوائم و (٣) للرجل و (٤) للمرأة و (٧) للكون بتمامه . . إلخ ، وكل أحد من قبائل (البامبارا) يستطيع أن يستخير الاعداد التى يصل إليها عن طرق متعددة ، كأن يقيس طول ظله وقت الزوال بخنصره ، أو باستعمال ثمرة الكولا أو بطرق الودع أو بضرب الرمل . .

وعلى العموم يوجد نوعان من الكهانة كما يقول (مونتى Monteil) كهانة إلهامية ، وهى تكهن المتصلين بالأرواح ، وكهانة حسابية وهى صناعة الكهان المحترفين .

وإلى النوع الأول تنتسب جمعيات فى قبائل (خاسوكة) Khassouké حيث يتقمص إله الماء جسم الكاهن ، فيتكلم هذا بلسانه . وقبائل (كونياجى) يسألون الميت عن سبب موته ؛ إذ يحمله شبان القبيلة على رؤوسهم فيصيبهم بالصرع والاضطراب بشكل يؤدى إلى اكتناه الجواب من حركاتهم .

والأحلام والرؤى فى قبيلة (الكردى) نوع من التكهن بالمستقبل . فاذا رأت امرأة فى حلمها ضفدعة طويلة الأرجل دل ذلك على أنها ستلد ذكراً ، فاذا رأت نوعاً آخر من الضفادع دل ذلك على أنها ستلد أنثى وتتطير هذه القبيلة من البومة ، فهى فأل شؤم ، بينا ترى فى الغزالة فألا حسنا . ومن رأى فى النوم ثعباناً (وهو يذكر بالحبل) تنبأ بأنه سوف يقتنص ويصير عبداً رقيقاً .

والتكهن فى السودان بالاستقراء (لحساب) والاستنتاج شائع مختلف الأشكال . ومن أكثرها انتشارا طريقة استقراء أمعاء الدجاج . وذلك بذبح الدجاجه على المحراب ، ثم تطرح على الأرض . فاذا نفقت وبطنها إلى أعلى كان الجواب خيرا . وأوضاع بقية الجسم تدل على تفاصيل إضافية .

كما يتكهنون فى تلك الجهات أيضاً باستقراء حركات الفأرة بوضعها فى قاع إناء إسطوانى الشكل، فى أعلاه سطح مثقوب توضع عليه حبوب مخلوطة بأشياء أخرى ، فاذا تحركت الفأرة من أسفل إلى أعلى لتأ كل الحب عبثت بالأشياء الأخرى وغيرت من مواضعها . وباستقراء هذه الأوضاع يستطاع التكهن بالجواب عن المسألة المطلوبة .

وفى الكامرون يستخيرون (العنكبوت المتنبىء) وهو نوع من العنكبوت ويزعمون أنه أول الخلائق الحية . فإذا عثر أحد الناس على جحر هذا العنكبوت نظف حول بابه ، ثم سوره بحجارة جافة ، ثم يهمس للعنكبوت بكل مشاكله وهمومه ، ويسأله الجواب عن سؤاله . ثم يضع حول الباب أوراقا من الشجر ، أو قطعاً من اليقطين ، ينظمها على رسم معين . فاذا انصرف الرجل خرج العنكبوت من جحره ، وأخذ يعبث فى سيره بتلك الاوراق والأشياء ، ثم يعود الرجل أدراجه ويستقرىء أوضاعها التى تدله على المستقبل . بل تزيد على ذلك فتدله على الطريق السوى الذى يجب عليه أن يسلكها فى حل مشاكله .

ويتصل بأعمال السحر طائفة من المعتقدات والمخاوف النفسية ، التى تعرف لدينا باسم الخرافات . فمثلا نجد قبائل (الباسا) تمتنع عن العمل فى فصل المطر ، ونجد لديهم أيام نعمى وأيام بؤس .فاذا رأوا فأر النخيل فى فناء الدار كان ذلك نذيرا بنزول الموت بأهلها وإذا آذى إنسان هرة أصيب بالحدب .

وقد تكمن فى الأشياء أو الأفعال قوة سحرية تفعل فعلها . فمثلا نجد فى إشانتى ما يسمى (سومان Souman) وهو شىء من النبات يزعمون أنه تسكنه روح ، يباع فى السوق ، وبعضه يتعوذ به من أخطار الحرب . بعض أنواعه له كهنوت وأتباع . وبذلك يستطيع الإنسان أن يحصل على مراده ببضعة قروش . وهذه العبادة النفعية ، عبادة (سومان) ، حلت محل عبادة بعض الآلهة الصغرى .

وتعتقد قبائل النيل الأعلى أن اللعنة إذا أصابت إنساناً قتلته ، وخاصة لعنة الوالدين . وبلغ من اعتقاد قبائل (كيكويو) فى قدسية القسم واليمين وقوته السحرية أن كل من يحنث فى يمينة يترقب أن يصيبه الموت المفاجىء — وقد استغل تلك القداسة جماعة (الماوماو) فى ثورتهم ضد المستعمرين فى تلك الأرجاء وتعتقد كثير من القبائل مثل (الأوبانجى) بهذه القوة السحرية الكامنة فى الدعوات والأقوال ، والتى تمسى أشد وقعاً وتأثيراً فى الليل أو فى السحر ، عندما يكون الناس رقوداً لا يستطيعون دفاعاً عن أنفسهم ولا مقاومة . كما يعتقدون ، بتأثير النفث فى العقد أو التفل على عضو من الجسم لإيصال الخير أو الشر للشفاء من المرض ، أو الابتلاء به ، أو لمنح قوة الأخصاب ،أو لحرمان الرجل من قوته الجنسية . ويستعمل البوشمان قوساً صغيرة وسهما مسمومة لوقاية أنفسهم من مكايد السحر التى يوجهها إليهم أعداؤهم .

والسحر الذى يستسق به المطر من أعظم ما تهتم له القبائل الزراعية . وغالباً ما يكون هذا السحر تضرعاً دينياً يتوجهون به إلى الأسلاف والآلهة غير أنه ، لكى ينصاع الآلهة فتستجيب الدعاء ، يلجئون إلى وسائل عدة : فعند (قبائل لوندا) مثلا يبللون الفؤوس قبل بدء العمل على الأرض ، أو يبللون التربة بطين رطب ذى لون أحمر وأبيض ، أو إقامة تمثال لرجل وامرأة معاً . وعند قبائل (سوازى) يختص الملك وحده بالقدرة على استنزال الغيث . ويزعمون أنه يملك حجراً خاصاً للنظر يحتفظ به ويستره عن الناس . وأنه يستعمل لذلك أيضا ماء استقته عذراوان طاهرتان ... وما يزال هذا الاعتقاد سائداً بين رؤساء بعض

القبائل حتى الذين اعتنقوا المسيحية . وهذه القدرة على إنزال المطر هى المبرر الوحيد لسلطان الملكية وتقديسها بين القبائل .

السحرة :

نطلق اسم السحرة هنا على أولئك الذين يعملون على إيذاء الناس بسحرهم ، وإن كان يطلق أحياناً على المتنبئين والكهان . والاعتقاد بقدرة السحرة على إيصال الأذى شائع فى كثير من البلاد . ويعتقد الناس أنهم السبب الرئيسى فى انتشار المرض والموت ، وأنهم أعداء الشعب الذين يجب الكشف عنهم وإنزال العقاب بهم إذا ثبت عليهم الاشتغال بهذا النوع من السحر الخبيث . ولا يثبت ذلك إلا بامتحانهم بألوان من التعذيب كما كان يفعل بهم فى القرون الوسطى بأوربا .

وليس من الضرورى أن يعرف الساحر عن نفسه أنه ساحر ؛ فقد يجوز أن طفلا دميم الخلقة أو مريضاً أو توأمين يرى فيهم الناس روحاً خبيثة يحل بسببها ذبحهم . ومن الغريب أن الأشخاص الذين يبين هذا الاختبار المزعوم أنهم سحرة يرضون بهذه الوصمة . فقوة السحر المؤذى قد تكون قوة لاشعورية ، تحل فى الشخص دون أن يكون له إرادة فى ذلك ؛ كحسد العين مثلا . ولكن الغالب فى هؤلاء السحرة الخبثاء أنهم يوصلون الأذى للناس عن عمد . ولهم فى ذلك وسائل تختلف باختلاف القبائل ومواطنها . فمثلا :

تعتقد قبائل (لوبى) أن الساحر يستطيع أن يرسل وهو فى سباته توءمه الروحى ليأ كل توءم شخص آخر . ويتجمع هؤلاء السحرة فى شبه

نقابات ليتصيدوا توائم أعدائهم وينزعوا منهم أكبادهم (معنوياً) ويأكلونها بعد شوائها ، فيبقى هؤلاء على قيد الحياة ، ولكن مرضى . كما يستطيع الساحر أن يطير فى السماء على أجنحة الخفافيش ، وأن يغوص فى باطن الأرض ، أو يتحول إلى حجر أو إلى حيوان متوحش كالضبع مثلا . كما يستطيع أن يوجه الحظوظ المنكودة إلى الناس ، وخاصة عند مرور جنازة ميت . ولا يمكن إبطال سحره إلا إذا امتص المتطبب عمل الساحر من جسم الشخص المسحور . وفى الغالب يخرج من الجسم على هيئة قطع من العظام أو رءوس سهام أو أشواك قنفذ .

وتعتقد قبائل اشانتى أن الساحرات الخبيثات لا يؤثر سحرهن إلا فى عشيرتهن ؛ وكثيراً ما توجه تهمة السحر الأسود إلى الخالة فى الأسرة . وتستطيع الساحرات امتصاص دم ضحاياهن بطريقة خفية ؛ ويستعن على إيذاء الشخص باستعمال جزء من جسمه أو ملابسه ، كخصلة من شعره أو أظافره ، أو خيط من ثوبه ، أو أثر قدمه فى التراب . وأن لهن القدرة على التشكل بشكل طير (حدأة أو غراب أو بومة أو ببغاء) أو التشكل بشكل حشرة (كالذباب أو القمل) ، أو بشكل حيوان (كالضبع أو الفيل أو الوعل أو الأفعى) . ويجتمع الساحرات فى أحلاف بعضهن مع بعض أو مع الجنيات ، ويرقص الجمع فى ظلام الليل رقصاً خليعاً . وامتحان الساحرة فى الماضى لإدانتها أو تبرئتها كان بتجريعها سماً ؛ فإذا لفظته اتضحت براءتها ، وإذا أصابها المرض ثبتت التهمة عليها . وأما فى الوقت الحاضر فتستطيع الساحرة أن تعترف

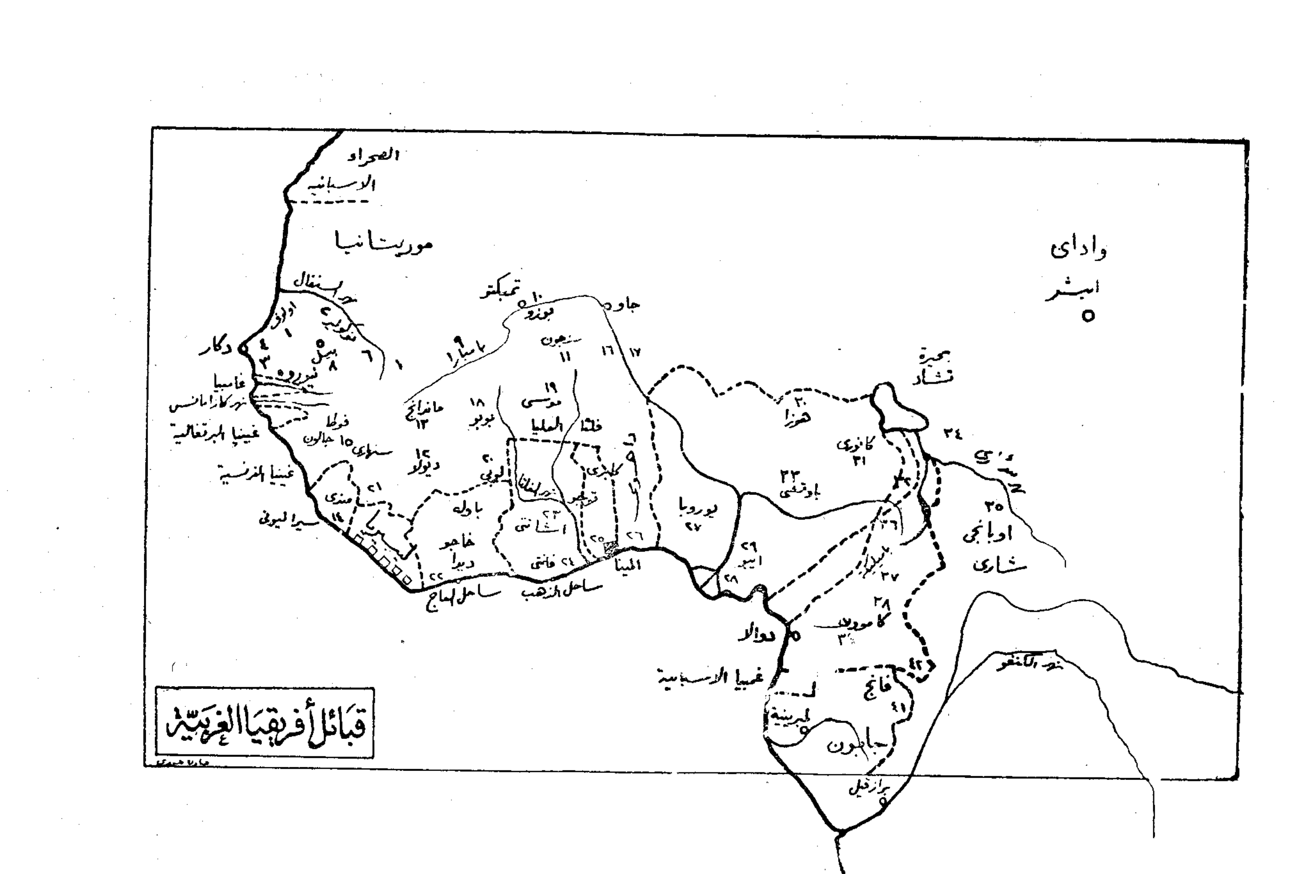
بجرمها أمام (السومان) وعندئذ يستطاع تطهيرها من الروح الشريرة ، فتعود إلى الحياة العادية بين أسرتها . ومثل هذه المعتقدات فاشية بين الناس فى خليج غينيا .

وفى جنوب كامرون وفى جابون يعتقد الناس فى (الإيفو Ewous) وهو (خادم) الساحر الخبيث ، يرسله فى هيئة حيوان صغير الجسم يخفى على العين ليلتهم قلب عدوه فيحل به الموت بعدها بقليل ؛ بل هو السبب الرئيسى فى أكثر حوادث الموت عند كثير من القبائل . والمثل السائر بينهم هو « أن الموت وليد الحقد » ويعرف هؤلاء السحرة باسم (أكلة لحوم الآدميين) وهم أنفسهم يعتقدون أنهم هم سبب القتل . وبعض الناس يعتقد أن للساحر أربع عيون ؛ ثنتان لليل ، وثنتان للنهار؛ وأن السحرة تتجمع بالليل لترقص ، وأنهم يزرعون شجرة موز تثمر فى الليلة نفسها ، فإذا سقطت أول ثمرة موز منها تفرقوا . ويعرف السحرة من عيونهم الحاسدة ، وسهام كلماتهم اللعينة ، التى توصل أذاهم للناس . غير أن الناس من جهتهم يستطيعون أن يتحاموا شرهم باستعمال مادة زيتية خاصة يدهنون بها أجسادهم ، أو بتعليق البصل فى فناء الدار ، أو وضع تعاويذ فى تجويف بوق . وتلجأ الجماعة إلى امتحان كل من يشك فى أمره بمختلف الوسائل ، ولا سيما محنة (شربة اللبن) وهى مادة نباتية صمغية إذا لفظها شاربها كان ذلك دليلا على براءته ، وإلا كان ساحراً وتعرض للتنكيل بالضرب وأنواع التعذيب ، كتسليط جماعات النمل البرى على جسمه ، ثم ينتهى أمره بالقتل .

وفى أوبانجى تتعرى الساحرة وتركب عصا مكنسة . والنوير يعتقدون

فى الغيلان التى تقتات بجثث الموتى عقب دفنهم . وعند (الباسا) فى كامرون يتخذ للميت قبران : أحدهما ظاهر والآخر مخبوء ، حتى لا يهتدى إليه السحرة من أكلة لحوم الموتى . وعند قبائل (لوندا) يعتقدون بوجود أرواح شريرة يستخدمها بعض الرجال ؛ ولكن السحر من خصائص النساء بطبيعتهن ؛ لأن الشر فى عرفهم كامن فى جنس الأنثى. وسحرة قبائل (افيموندو) يقتلون الأطفال ليجعلوا منهم خداماً لهم ، ثم يرقصون عراة أمام مسكن فريستهم . والشائع أن السحر وراثى فى السلسلة النسوية للأسرة ، غير أننا نجد فى هذا الوسط أن كل فرد ناجح فى حياته موفق فيها توفيقاً ممتازاً غير عادى ، يجر عليه نجاحه تهمة الاشتغال بالسحر الأسود .

وفى قبائل (السوازى) يكوّن السحرة فيما بينهم اتحاداً يتآخون فيه مقسماً إلى مراتب ودرجات . والتراشق بتهمة السحر كثير الوقوع بين أفراد الأسرة الواحدة . وأفظع التهم التى تستوجب القتل أن يتهم ساحر بأنه سبب بوإر الزرع . وعند قبائل (باسوتو) لا تقنع الساحرات بأكل لحوم الموتى ، ولكنهن يترصدن أرواحهم عند ما تذهب إلى عالم الأرواح لاقتناصها والتهامها . وكثيراً ما يحدث أنه إذا خرج إنسان على العادات والعرف المألوف أو تعدى آداب السلوك عرض نفسه لتهمة الاشتغال بالسحر الأسود . وهذا من أقوى الأسباب التى تحمل الناس على التزام الطريق السوى .


قبائل أفريقيا الغربية
الصحراء الاسبانية
موريتانيا
وادای
ابشر
بحيرة تشاد
تمبكتو
جاو
دكار
غامبيا
غينيا البرتغالية
غينيا الفرنسية
سيراليون
ساحل العاج
ساحل الذهب
المينا
يوروبا
هوزا
كانورى
باوتشى
دوالا
غينيا الاسبانية
ليبرفيل
جابون
برازفيل
نهر الكنغو
اوبانجى
شارى
موسى
فلتا العليا
بامبارا
سنغال
فانتى
اشانتى

أسماء القبائل وأرقامها

الرقم	الاسم	Nom
(١)	اولوف	Oulouf
(٢)	توكولير	Toucouleur
(٣)	سيريس	Sérés
(٤)	ليبو	Lébou
(٥)	بيل	Peul
(٦)	ساراكولا	Sarakolé
(٧)	خاسوكة	Khassouké
(٨)	كونياجى	Coniagui
(٩)	بامبارا	Bambara
(١٠)	بوزو	Bozo
(١١)	دوجون	Dogon
(١٢)	ديولا	Dioula
(١٣)	ماندانج	Mandingue
(١٤)	منده	Mendé
(١٥)	سونرهاى	Sonrhai
(١٦)	جرمانشى	Gourmanché
(١٧)	دجرما	Djerma
(١٨)	بوبو	Bobo
(١٩)	موسى	Mossi
(٢٠)	لوبى	Lobi
(٢١)	جرزة	Guerzé
(٢٢)	اديوكورو	Adiokourou
(٢٣)	اشانتى	Achanti
(٢٤)	فانتى	Fanti
(٢٥)	إيفه	Ewé
(٢٦)	فون	Fon
(٢٧)	يوروبا	Yourouba
(٢٨)	إيبيبيو	Ibibio
(٢٩)	إيبو	Ibo
(٣٠)	هاوزا	Haoussa
(٣١)	كانورى	Kanouri
(٣٢)	كردى	Kirdi
(٣٣)	باوتشى	Baoutchi
(٣٤)	كوتوكو	Kotoko
(٣٥)	سارا	Sara
(٣٦)	بامون	Bamoun
(٣٧)	باميليكه	Bamiliké
(٣٨)	بانن	Banen
(٣٩)	باسا	Bassa
(٤٠)	بولو	Boulou
(٤١)	فانج	Fang
(٤٢)	أقزام	Pygmée

الفصل الرابع

خصائص العقائد الوثنية وتطورها

كنا حتى الساعة بصدد عرض مجمل للحقائق التى استطعنا الوصول إليها عن الديانات الوثنية للزنوج فى أفريقيا. وفى هذا الفصل سنحاول أن نلقى عليه نظرة عامة، لنستخلص منها بعض خصائصها، ولنضعها فى مكانها بين الديانات البشرية، وأن نعقب على ذلك بتقدير مدى تطورها.

الصفات المشتركة :

تلتقى هذه الديانات كلها عند أساس واحد، هو عمق الإحساس بالروابط الوثيقة التى تربط المجتمع البدائى بالبيئة الطبيعية التى يعيش فيها. وسواء أكان مجتمع صيادين أو ملاك قطعان أو زراع، فهم يعيشون فى كنف العناصر الطبيعية وعلى نظامها، حيث لا يتميز الإنسان عن الأشياء ولا تتميز الأشياء عن الآدميين، وحيث يعتبر البشر أنفسهم صورة من صور الكون الكلى، ويشكلون حياتهم وفقا لما يتصورنه عن هذا الكون. ولا يرى المجتمع القبلى فى الحيوان والنبات. ولا فى الجماد، إلا مخلوقات لا يختلف هو عنها وليس له عليها سيطرة ما، فأضفى

عليها كل صفاته وأحاسيسه ورغائبه الإنسانية ؛ وصور له خياله بسبب ذلك الاحساس أن الانسان بالمثل ، حياً كان أو ميتاً ، له قوة يستطيع بها أن يتخذ شكل حيوان أو نبات . وأن الجماعة الانسانية ما هى إلاحليفة ونسيبة لجماعة الحيوان ، وأنها تستطيع استخدام قواه فى حمايتها وقد بلغ من شعورهم بهذه الصلة أن يستأذن الصياد فريسته كى يقتلها ، ثم يقدم لها القرابين ليسترضيها ويهدىء من سورة روحها ، أو أن ينحر ضحية ما تقربا لقوسه أو بندقيته حتى لا تخطىء أحداهما الهدف .

والإنسان فى هذه البيئة لايحاول معارضة الطبيعة ومقاومتها ، وذلك لإحساسه بأنه جزء لا يتجزأ منها ، وأنه يستمد وجوده ومقدرته من صميم قواها ، ظاهرة كانت أو خافية ، تلك القوى التى يدين لها بسلامته ويخشاها على نفسه ، والتى يرتبط بها ارتباطاً دائما وأبدياً . وقد يتبادر إلى الذهن أن تبعية الإنسان وخضوعه لعوامل الطبيعة هناك من أسباب ضعفه . إن الذى يزعم ذلك يفكر بعقليتنا الحديثة فى مجتمع حديث يجاهد الإنسان فيه لاستخدام قوى الطبيعة وإخضاعها لإرادته . ومع هذا فلن نستطيع أن نتناسى أن ذلك الإحساس الرقيق بالتعاطف بين الإنسان وبيئته الطبيعية إحساس يضفى على معتقدات الزنوج الوثنية سمات الجمال والشاعرية ، وأنه قد وسع أفق مشاعرهم حتى شمل أرجاء الكون ، بدلا من أن يحصروا كل همهم فى نفع الإنسانية وحدها ، تلك الانسانية التى أسرفت المدنية الحديثة فى جعل مصلحتها هدفها الأسمى ووضعت لذلك ما وضعت من فلسفات متباينة .

إن الديانات الوثنية أدركت الكون وفهمته على أنه وحدة لا تتجزأ أساسها الأخوة الشــاملة وهو إحساس قصرنا نحن المتمدينين عن إدراكه . فهم لا يميزون بين الطبيعة وما وراء الطبيعة ، ولا بين المـادة والروح ، لأنهم يؤمنون بأن القوى الحيوية الكونية تسرى فى الخليقة بأجمعها ، وتربطها بعضها ببعض . فالروح عندهم هى زفرة من نفس متردد ، أو شعلة خالدة يستطاع استردادها . وما المرض إلا قطعة عظم أو خشب إذا استخرجت من الجسم فارقه الداء وحــل به البرء . ولا يفرقون بين الحلم والحقيقة . وكل ما انفصل عن البدن ، ولو كان قلامة ظفر ، أو خصله من شعر ، أو أثر قدم على الأرض ، أجزاء تنبثق من الروح ، وتسرى فيها القوى الحيوية ، يمكن استخدامها بالسحر لالحاق الضرر بصاحبها . والطبيعة ليست مادة ، ولا روحاً ، وإنما هى قوى حيوية هائلة . والحياة هى جوهر الخير ، هى الحقيقة التى ليس وراءها حقيقة . .

إن كل من يصف الزنوج الوثنيين بأنهم خضعوا لقوى غيبية ، رهبة وفزعا ، لا يبعد عن الصورة الحقيقية لهم ، ولكنها صورة غير كاملة ، أن للزنجى عذراً لأنه يعيش فى كنف تلك القوى . إنها قد ترهبه وتؤلمه غير أنه رغم إساءتها له ، يستمد منها حياته وكيانه وقوته . وما شعوره بالاعتماد عليها وإحساسه بقدرتها على التصرف فيه إلا مزيج من الاستسلام والثقة فى بيئة مألوفة له ، عركها وعركته . وما الشعائر الدينية والمحرمات التى خظرها علية المجتمع إلا وسائل يتذرع بها طلباً للوقاية والسلامة والاستزاده من القوى الحيوية . وإذا كان الفرد منهم مرتبطاً إرتباطاً وثيقاً

بالطبيعة فهو أشد إرتباطاً بالمجتمع الذى ينتسب إليه ، إذ لاتقف صلته به عند حدىمولده ومماته، بل تظل هذه الصلة قائمة حتى بعد الموت ، إذ نجد أن الموتى من الآباء والأجداد يهيمنون على الأحياء من وراء أجداثهم ، إذ أنهم المؤسسون للأسره أو القبيله ، والقوامون على حفظ القانون والنظام والأخــــلاق والعادات ، كما أن لهم الحق فى عقاب المذنبين والخارجين ، ومكافأة المطيعين . وكما يرتبط الفرد بآبائه وأجداده فإنه يرتبط كذلك بآلهة الجماعة إرتباطاً تفسره الأساطير والأقاصيص التى توارثتها الأجيال عن تاريخ نشأة الكون . فالديانة لديهم هى حلقة الاتصال بين افراد المجتمع فيما بينهم ، وبين المجتمع والقوى العلوية الآلهية وكما أن كلمة (ديانة) مأخوذ أصلها من كلمة (صلة) فى اللاتينية فإن الكلمة نفسها فى لغة قبائل (بامبارا) تفيد كلا المعنيين (الصلة والدين) . .

ومن البدهى أن ديانة هذا شأنها (نبتت بين جماعة صغيرة ضيقة الحدود منطوية على نفسها) لابد لها من أن تفرض على أفرادها سلوكاً مثاليا ، وخضوعا مطلقا لعاداتها :

تعال معى نستمع إلى حديث المبشر الكاثوليكى(أوبياس) Aupiais وهو أحد أفذاذ المشتغلين بعلم الأجناس فقد أطرى آداب الزنوج وأخلاقهم ، بما لم يمتدحهم به أحد من قبل . قال « أن تمسك مجتمعهم بالأوضاع المتوارثة قد أورثهم استقراراً وثباتاً ، تمكنوا به من أن يشيدوا تراثاً هائلا من الأخلاق ، يشيد جيلا بعد جيل ، على مر الزمن السحيق ، ثم أشاد برجاحه عقولهم واتزانهم واحترامهم للقانون

وأولى الأمر منهم ؛ كما نوه بدقة نظامهم الاجتماعى وفضائلهم الفطرية فلهوهم وطربهم ماهو ألا تعبير عن عمق استمتاعهم بالحياة ، وتجاوبهم مع العالم الذى يعيشون فيه ؛ كما أمتدح ظرفهم ،وحسن سلوكهم ، وأدبهم الجم ، وصبرهم على المكارة ، ونكرانهم لذواتهم واستغراقهم فى الحياة الروحية . وهذه هى مقومات حضارتهم الفطرية الواقعية ، التى وصلت إليهم من خلال شعائر وتلقينات وعادات ومهارات وأساطير ومعارف عن نشأة الكون .

ويبدو أن الوثنية ديانة لها مراتب من العلم متفاوته بين الناس يقتصر علم العامة بها على بسائط المعتقدات التى يسميها (البامبارا) قشور العلم . وهى جزء طفيف من الرموز وأسرار الكون ، التى لايعلم حقيقتها الا خاصة من حملة الأسرار العلوية . وهذه الأسرار معقدة تعقيدا مقصودا حتى تعمى على الفهم ، وتستغلق على الأذهان . وكان تعقيدها سببا فى صعوبة الاهتداء إلى حقيقة الديانات الوثنية ، وفى تضليل الباحثين عنها . وفوق طبقة العامة توجد طبقات عديدة من حملة الأسرار ، يقل عددها كلما ارتفعت مرتبتها ، حتى نصل إلى درجة من الأسرار الدينية يصعب على الفهم ادراكها جملة وتفصيلا. وأمة الزنج مثلهم فى ذلك مثل بقية بنى الأنسان ، توجد بينهم قلة من الرجال الذين تأملوا فى أسباب الحياة وأسرار الطبيعة وصاغوا فلسفتها وأساطير الخليقة الأولى.وهؤلاء هم الصفوة الممتازة التى تعلم التفسير الكامل لأسرار الوجود وما الشعائر والرموز سوى ناحيتها الظاهرة لسواد الناس ، والتى تتحكم فى وجوه نشاطهم . فما من حركة دينية أو عادة اجتماعية ، أو أصول مرعية بين

لناس ، إلا ولها مغزى دينى . بل العالم المستتر الخفى حاضر فى اذهانهم وخلدهم ، لأنه ماثل فى رموزهم . ومن هنا ندرك أهمية الاحتفالات والأعياد الدينية ، فكل حركة يتحرك بها أنسان حتى أقل حركة من الحداد لها أصولها فى دينهم . والاحتفالات الجماعية هى أعظم الشعائر الدينية ، لأنها تعبر تعبيرا تاما عن الحياه الخلقية والاجتماعية والفكرية للمجتمع . مظهره ومصدر حيويته . هو ماسماه الآب (أوبياس) بالروح الاحتفالية المتأصلة فى الزنوج قال « أوبياس » . « يجب أن نعلم أن — الجماعة هى الروح المتأصلة فى طبيعة القبيلة الزنجية . وما الاجتماعات والاعياد ألا مظهر شغفهم بها . والزنوج يفكرون تفكيرا جماعيا : فاذا دعوا آلهتهم دعوها جمعا ، وإذا أبتهجوا كان ابتهاجهم وطربهم جماعياً فى وحدة عجيبة تربطهم بعضهم ببعض ، حاضرهم وغائبهم ، وحيهم وميتهم . وتلك الحيوية العارمة المتدفقة تبدو فى انفعالاتهم الصارخة وسط مظاهر عظيمة من الاحتفال والابتهاج الجماعى ، حول سماط واحد مزدحم بألوان الطعام يشترك فيه الجميع سواسية » .

ولهم فى جميع إبتهاجاتهم الروحية وشعائرهم الدينية أغراض نفعية . فهى فى زعمهم تجديد لعالمهم ، واستزادة من القوى الحيوية ، أو وسيلة لاستنزال الغيث أو تكثير النسل . وهم كذلك يسترضون بها أباءهم ، ويتوسلون بها إليهم ليستدروا عطفهم وحمايتهم ؛ كما يتوسلون بها إلى آلهتهم وإلى سائر القوى الخفية التى تسيطر على حياتهم . ولا يرون فى السحر تناقضاً مع دينهم ، وإنما يستعينون بقوته الخفية على إدراك مصلحة فردية . ولهذا يعتقدون أن الطلاسم مثلها مثل المحاريب فى البيت ، منهل

من مناهل القوى . فالسحر فى عرفهم ما هو إلا وسيلة لاستجلاب القوى الحيوية الكونية ، واستدزار تلك الطاقة العلوية التى تعتبر هى الجوهر الفرد فى جميع عقائد الزنوج الوثنيين ، حتى الهوا السحر فى قبائل غينيا الجديدة ..

تعدد الديانات :

أن كثيراً من عناصر تلك الديانات مشتركة فيما بينها . إلا أن الأوضاع الجغرافية ونوع الحياة والنظم الاجتماعية تجعل لبعض تلك العناصر الغلبة على غيرها فى بعض الأصقاع . ولذلك تعددت الديانات بشكل جعل من العسير حصرها وتبويبها .

فنى قبائل البوشمان ، وهى تتعيش من الصيد والقنص وتلمس الغذاء من الطبيعة ، نجد أن الجماعة تحيا حياة البدو ، لكثرة تنقلها . ولذلك تمتزج بالبيئة الطبيعية ، وهم لذلك يمجدون الحيوان بوصف أنه أخ للانسان أو توءمه ، وهو الحامى والراعى للقبيلة . كما يعتقدون فى جنيات الأحراش ، ويؤلهون الشمس والنجوم . ولهذا السبب نرى السحر الخاص بأغراض الصيد يحتل فى معتقداتهم مكانا بارزاً . وبين قبائل أفريقيا الجنوبية والشرقية ، وهى قبائل زراعية فى صميمها ، نجد أساطير عن الشمس والفصول والسماء والظواهر الجوية . ونجد القبيلة تلتف حول عبادة أبطالها القدماء وآلهة السماوات . وأما الموتى من الآباء والأجداد فهم أموات إلا أنهم أحياء ، يدخلون فى زمرة آلهة الأرض والعالم الذى يعيش فى باطنها . وقبائل النيل الأعلى يعبدون أيضا أبطالها وآلهة الظواهر الجوية .

أما فى الغابات الاستوائية الافريقية فيسود الاعتقاد بفعل السحر لاصطياد الحيوان وتراعى الشعائر الدينية الزراعية إلى جانب عبادة الآباء والأجداد وتقاليد الختان . والآلهة بينهم أما ذكور وأما أناث ، تبعا لتكوين المجتمع القبلى فاذا كانت السيادة فيه للرجل كان الاله ذكراً ، وإذا كانت السيادة فيه للمرأة كان الاله أنثى . والأساطير التى تدور حول الحيوان والنبات منتشرة بينهم . وهى تؤكد صلات القربى بين الانسان وبين الحيوان والنبات .

وأما الزنوج الأصليون المنتشرون من أعالى غينيا إلى أعالى النيل فصيادون . ولذلك يزعمون أن أصولهم تنحدر من بعض الحيوان ، شأنهم فى ذلك شأن بقية قبائل الصيادين . ولما كانوا أهل زرع أيضاً فيعبدون إلى جانب ذلك إلهة للطبيعة وإلهة للأرض ، كما يقدسون أسلافهم المؤسسين للقبيلة . ولما كان نظامهم السياسى لا يفرض عليهم الخضوع لرئيس ما فقد تبعت كل فئة منهم عقيدة خاصة . وبذلك انقسمت إلى فئات دينية متعددة .

ونجد بين القبائل الزراعية فى المناطق السودانية نفس العناصر الدينية وهى عباده الأرض ، وعبادة الأجداد والأبطال ، غير أن تلك القبائل أكثر عدداً وأشد تماسكا . وتضم الجمعيات الدينية هناك كل المراهقين المختونين الذين تلقوا مراسم الأسرار فى القبيلة . وتلعب هذه الجمعيات دوراً هاماً فى توثيق الروابط القبلية باقامة الحفلات الدينية العظيمة بين فترة وأخرى ، بمناسبة المواسم الزراعية . ونرى الأساطير عن خلق الكون وعن بدء الخليقة ، والذخيرة الجمة من الرموز منتشرة ومتشابهة

فى تلك المنطقة الفسيحة (من السودان الفرنسى حتى أعالى نهر فلتا) .

وأما فى المناطق الممتدة على ساحل غينيا (فى الجزء الشرقى من ساحل العاج ، والأراضى الواطئة من ساحل الذهب ، وتوجو ، وداهومى ، وجنوب غربى بلاد نيجيريا) فالحال تختلف عن بقية المناطق ، إذ تتميز تلك الأجزاء بقيام ممالك ذات حضارات راقية نسبياً ، بفضل إتصالها بالعالم الخارجى . ولذلك طرأت عليها تطورات خاصة فى عباداتها تفوقت على أنواع العبادات المعروفة ،وأصبح السائد فى تلك الأصقاع عبادة الملوك وآبائهم وأجدادهم . وعبادة أبطال الأساطير ، وعبادة الإلهة الصغرى لها كهنوتها واديرتها وأتباعها . كل هذا أضعف فى قبائلها عبادة الآباء وتقديس الأرض . ونلحظ إلى جانب ذلك أن انتشار العرافة والتنجيم والسحر والجمعيات الدينية أضعف من روح التماسك القبلى ، فتحرر الفرد من سيطرة المجتمع وتكونت له شخصية قائمة بذاتها وكيان مستقل لانرى نظيره فى القبائل الأخرى ، وأصبح للفرد فى تلك المناطق من الحرية ما يجعله يختار لنفسه معبوداته ونوع عبادته أو الجمعية التى ينتمى إليها ويتآخى مع أفرادها ،ولم يعد مجرد خلية من خلايا المجتمع . وهذه الحرية الفردية الدينية التى يتمتع بها هؤلاء جعلت للأديان الجديدة الطارئة عليهم من الخارج إغراء خاصاً حتى اعتنقها بعضهم .

كيف نسمى الديانات الافريقية ... ؟

لقد حاول الاوربيون أن يطلقوا اسماعاما يشمل ديانات الزنج ، قياسا على ماتعودوه وهم من ديانات ذات مبادىء محددة ثابته يدل عليها

إسم شامل هو المسيحية . وكان البرتغاليون ، وهم الرعيل الأول من المستعمرين على ساحل غينيا ، أول من حاول ذلك فأطلقوا على ديانة الزنوج إسم عبادة التماثيل (Fetichisme) لأنهم ظنوا أنهم يعبدون تلك الدمى الصغيرة وهي دمى على هيئة حيوان أو إنسان أو شيء ما . ولكن هذه الدمى لم تكن فى حقيقتها إلا رموزاً تمثل أباءهم أو آلهتهم فتسميتهم عباد تماثيل خطأ لا يقل عن خطأ من يسمى الكاثوليك عباد أصنام لأنهم يصلون أمام الصليب وتماثيل العذراء .

وجاء (تايلور Taylor) فنحت اصطلاحا جديداً كان له رواج واسع وقد استحسنه واستعمله (ديلافوس Delafosse) والاصطلاح هو (عبادة الحياة) Animisme وتقدم (ماكس موللر Muller) بكلمة (عبادة الطبيعة) Naturalisme و (بارندر Parrinder) بكلمة (تعـــدد الآلهة) Polythéisme وقامت بين الباحثين فى الديانات مساجلات لمعرفة هل توجد فى أفريقيا عبادة الأسلاف من غير البشر ، المسماه بالطوطمية Totémisme أو عبادة أرواح الموتى Manisme : ومنهم من اقترح كلمة تلقائية dynamisme أو حيوية Vitalisme :

ولـكل من هذه المصطلحات مدلول يتفق مع وجه واحد من أوجه العقائد الزنجية فكلمة animisme تدل على الاعتقاد بوجود نفوس أو بالأحرى أرواح خفية تسرى فى الطبيعة بجميع أجزائها . . و (تعدد الآلهة) يدل على الاعتقاد باكثر من إله واحد والطوطمية تدل على عبادة حيوان انحدر منه الاسلاف وتتجسد فيه وحدة القبيلة . و (المانزم) يدل على الاعتقاد ببقاء النفس بعد فناء الجسم . والحقيقة

التى لاشك فيها أنه توجد من جميع هذه العناصر فى ديانات الزنوج . ولكن ليس لأحدها الشمول والغلبة على غيرها بحيث يفرض نفسه على عامة معتقداتها . وأما التلقائية والحيوية فنظريات لها تطبيقاتها الفلسفية خارجا عن نطاق الديانة . وحيث أنه من غير المستطاع أن نرد تلك الديانات إلى أصل واحد يشملها ، فقد رأينا من الأنسب أن نطلق لفظه جاهلية Paganisme وهى كلمة أطلقت فى الماضى على الديانات القديمة المحلية فى أوروبا ، تمييزاً لها عن الدينين العالميين الجديدين ، وهما الاسلام والمسيحية . ونعتقد أن هذه الكلمة أصلح المصطلاحات وأدقها فانها فضلا عما توحى به من المشابهه للديانات الأوروبية القديمة تذكرنا فى الوقت نفسه بأنها ظهرت قبل كل شىء فى مجتمعات قروية غير متحضرة (Pegus = Pays. Païen = Paysans)

ولا ينبغى أن يتطرق إلى الذهن أن هذه التسمية فيها احتقار أو زراية ، بل على العكس إذ أن الديانات القديمة هى التى شيدت تلك المدنيات العظيمة ، كالمدنية المصرية والمدنية الرومانية والمدنية الأغريقية ، التى تولدت عنها إلى حد كبير ثقافتنا الغربية .

مقارنات :

أن ديانة الأغريق القدماء ، وخاصة فى العصر العتيق ، تشبه من وجوه كثيرة ديانة الزنوج ؟ إذ نجد عند سكان جزر بحر إيجيه هذه الرموز الدينية نفسها : الشجرة والعمود والقرون والأفعى والكائن الخرافى الذى هو نصف آدمى ونصف حيوان . ولهذا الأخير صور

ما تزال نقوشها ظاهرة على اللوحات الأثرية فى فرنسا واسبانيا (الأرجح أنها كانت أقنعة تشبه أقنعة الزنوج).

وكانت حضارة اليونان البدائية حضارة زراعية كذلك، تقدس الزراعة، وتقيم لها الأعياد الجماعية وحلبات الرقص وكانوا يقدسون الجبال والأشجار والأرض التى يخلعون عليها صفة الأمومة كما اعتقدوا بتجسد أرواح الموتى فى شخصية الجماعة، وبأن بعض الأشياء كاللبن والخبز والماء وهى قربانهم للآلهة ترتبط بها خصائص دينية. وكانت عندهم الضحايا من الحيوان وكذلك من البشر. كما نجد عندهم الصلة بين الأفعى وبين تقديس الموتى. وشمل اعتقادهم خرافات «الحيوان الآدمى» وقدسوا الحيوان الراقص (الدب فى أثينا، والكركى فى ديلوس) وكان من سنتهم طلاء أجسامهم باللون الأبيض وتثقيف الأطفال وتلقينهم أسرار المراهقة، واستعمال الأقنعة وانتشار الجمعيات السرية الدينية، وتقديس الحداد، والاهتمام بالتوائم، والاعتقاد بالأحلام وبالحظ، وإقامة الأعياد الجماعية الموسمية، والاعتقاد فى الالهة العليا البعيدة عن المخلوقات، والتى تكاد تنحصر مهمتها فى حماية الوجود، دون أن يكون لها دخل فى الحوادث. وهناك أيضاً طرأ تحول على عقائد اليونان باتساع أفقها السياسى. فبعد أن كانوا يعتقدون فى تلك القوى الخفية التى تحمى المجتمع المحدود، واتجهوا إلى تقديس العظماء فى شخص أبطالهم الذين أسسوا حضارة المجتمع الاغريقى. ومع هذا فقد بقى فى اليونان القديمة من تلك الديانات المحلية آثار تدل على تقديسهم لمواطن خاصة

ومحاريب معينة كانوا يزودون قواها بدماء الذبائح ، كما بقيت عندهم عادة الكفارات للآلهة الذين تحت الأرض ، والاهتمام بالعددين ٩،٧ وبالرموز والتماثيل ، وكذلك بقيت الالهة والجان التى تعمر أرجاء الطبيعة حولهم بلا حصر ولا عدد .

وأما الرومان (اللاتين) فكانت ديانتهم قريبة جد القرب من الديانة الأغريقية ، بحيث يصعب التفرقة بينهما . فالدور الذى لعبته فكرة الأسلاف ، وتقاليد المجتمع القديم ، ومحراب الأسرة ، واعتبار الأب كاهناً للأسرة ، والقاضى الكاهن ، كانت كلها مظاهر لديانة اجتماعية اشتراكية ، غير أن فتوحات روما وتوسعاتها حطمت ذلك التماسك الاجتماعى القديم ، فتحرر الأفراد واعتنقوا ديانات أجنبية ، وانتشر بينهم السحر والشعوذة ، وتأسست الفرق الدينية التى لا تربط أعضاءها روابط عنصرية . وهكذا بدأ السير نحو ديانة عالمية .

فاذا قارنا الديانات الزنجية بديانة قدماء المصريين وجدنا أوجه الشبه بينهما أوفى وأوفر . فتاج فرعون كان على شكل حلزونى تحيط به أفعى . وفرعون نفسه كان يعد مصدر الحياة والقوة والخصب للأجيال ، وخاصة فى النواحى الزراعية . ونجم الشعرى اليمانية قدسه المصريون ، وكان هو أساس التقويم المصرى القديم . وكان يرمز لفرعون بصورة صقر كما اتخذت بعض الجهات فى مصر الفيل والحدأة والشمس شعاراً لها . وأما (كا) Ka وهى الروح الشائعة التى يستمد منها كل كائن حياته وقوته فتبلغ أقصى اكتمالها وتمامها فى شخص فرعون نفسه . وكان (أوزيريس) إله الماء والنيل والزراعة . وشرع المصريون قوانين صارمة

لحماية المجتمع كانت المحظورات فيها لاتحصى ، وكانت مخالفتها تعتبر جرماً ضد نظام الكون ..

ونحن نستطيع هنا أن نستكثر من هذه المقارنات وأوجه الشبه بين ديانات الزنوج وبين الديانات القديمة فى القارات الأخرى ، وبينها وبين الخرافات السائدة إلى اليوم فى القارة الأوربية ، بل بينها وبين الأديان العالمية مثل المذهب الكاثوليكى ، إذ نجد فيه عقيدة الاله الخالق لكل شيء ، والايمان بالأرواح ، والخطيئة الأولى للانسان ، وقداس القرابين وشعائر (سر المناولة) وهذه أشبه ماتكون بشعائر التثقيف والختان عند قبائل الزنوج الوثنية .

وقد يخطر لسائل أن يسأل : إلا أن يكون أصل ذلك التشابه من جراء تفاعل وأثر متبادل من الجانبين ؟ .. والجواب أنه ما من شك فى ذلك ، إذ أن القارة الافريقية ليست من المنعة بحيث لا يمكن النفاذ إليها كما كان يعتقد البعض . فلا شك أن مصر كانت على اتصال دائم بسائر أجزاء القارة ، عن طريق مجرى نهر النيل وعن طريق الصحارى التى كانت أكثر رطوبة وأقل جفافا فى الماضى البعيد مما هى عليه الآن . وما من شك فى أن القوافل قد نقلت إلى بلاد الزنوج بعد ذلك إصداء من معتقدات الإغريق عن خلق الكون . ولم يكن تأثير الاسلام فى شمال القارة بأقل من تأثير المسيحية فيها من جنوب الساحل الغربى . وأغلب الظن أن ما نقله (بيرندا Birinda) عن الاعتقاد بالالهة البيضاء وشجرة الحياة فى الممالك الزنجية بالقسم الأدنى للكنغو لم يكن إلا أصداء وصلتها عن السيدة العذراء وسفر التكوين ، عن طريق المبشرين

البرتغاليين فى القرن السادس عشر . وأما عبادة الأفعى التى يزعمون فى الساحل الشرقى أن روح الجد الأعلى تقمصتها وأنها خرجت منه لما تحلل جسده فقد يجوز أنها من أصل فى الملايو أو مدغشقر .

ورغم كل ما قدمناه فلن نستطيع أن نجزم برأى قاطع فى تحديد تلك المؤثرات الخارجية ، ومدى اقتباس الديانات الزنجية منها ، ونستطيع أن نقول فى ضوء علومنا الحالية أنها اقتباسات جد سطحية ، وأنها لن تغير شيئاً من الحقيقة الواقعة ، وهى عمق الروح الدينية وتمكنها من النفس الزنجية ، ولن تجرد هذه الديانات من خصوبة خيالها وثروة أساطيرها الشيقة ...

وإنما كان همنا فى تلك المقارنات أن نثبت أننا نجد فى نواح أخرى غير أفريقيا أوضاعا دينية تشبه فى تكوينها الديانات الزنجية ، وأن الزنوج لم ينفردوا بعقائد تشذ عن عقائد الآخرين ، وليسوا استثناء من القاعدة العامة . وأن الانسانية فى مراحل تطورها الفكرى تؤلف وحدة متجانسة وأنها أشد وحدة وتجانساً مما كان يظن فيها .

تطور المعتقدات الزنجية فى الوقت الحاضر :

أن ديانات تتسم بهذا الطابع الجماعى وهذا السلطان المطلق فى بيئة جغرافيا ضيقة الحدود ما كان لها أن تنشأ إلا فى جماعة قليلة العدد شديدة

التماسك ، فى ظروف وأحوال سادتها الفوضى وانعدم فيها الأمن ، وشقت فيها حرية التنقل لوعورة المواصلات ومخاوف الطريق ، فانحصرت تلك الجماعة فى رقعتها المحدودة ، وخضعت لسلطات دينية أو سياسية قاسية . فمتى طرأت على حياة القبيلة ظروف جديدة ضعفت فيها هذه الروابط الاجتماعية ووهنت سيطرة الدين وتطورت مظاهرة . لقد تغيرت الظروف فعلا ، وحدث هذا التطور تحت وطأة الاستكشافات الحديثة فى القارة الأفريقية ، وتحت وطأة زحف المستعمرين إلى قلبها ، فأحدث بها الانقلاب السريع الذى نشهده اليوم . نعم أنه أسرع فى بعض الأصقاع منه فى البعض الآخر إلا أنه يجتاحها كلها اجتياح السيل الجارف . هكذا أدى استتباب الأمن نتيجة للاستعمار إلى شل سلطة زعماء القبائل ، ولم تعد هناك ضرورة للتماسك الاجتماعى فى الدفاع عن كيان القبيلة ، فتبع ذلك تضعضع السلطة الدينية وسلطة الرؤساء الروحانيين وقدسية الملوك وأصبحت الأوقات التى كانت مخصصة للاحتفالات الدينية تزاحمها وجوه أخرى من النشاط . فاليوم يقصد الأطفال مدارسهم ، ويشتغلون ليكسبوا رزقهم ويسددوا الضرائب المطلوبة منهم ويقتنوا حاجياتهم من السلع والمصنوعات ، فاختصرت الحفلات أو عطلت . وأصبح العلم بأسرار الرموز والأساطير فى المرتبة الأخيرة من مشاغلهم ، ولم يبق للاعياد الدينية ذلك الاغراء وتلك الجاذبية للشباب ، بل أصبحوا لا يجدون حرجاً فى أتيان المحرملت التى كانت محظورة عليهم .

وكان الفرد فى الماضى مرتبطاً بموطن القبيلة ارتباطاً تاما . أما اليوم فقد اضطرته الأحوال الاقتصادية الحديثة أن يفارق بيئته طلباً للعمل والتكسب بعيداً عنها ، فوهنت الصلة بينه وبينها وبينه وبين آلهتها وأسلافها . فإذا رجع إليها عاد وفى جعبته مال يفوق بشكل بارز للعيان كل ما كان يملكه أجداده . وبذلك استطاع الفرد أن يتحرر من ربقة الجماعة وتحكمها فى كيانه ، وهجر كثير منهم مواطن آبائه وأقام فى المدن تخلصاً من هيمنة المجتمع . وحتى أولئك الذين يعودون إلى حظيرة القبيلة فإنهم لا يشتركون فى أعيادها الدينية وعقائدها بكل قلوبهم ولا بكامل خضوعهم ؛ ذلك لأنهم عادوا يحملون عقلية جديدة وأسلوباً آخر للحياة . .

وثمة عامل آخر كان له أبلغ الأثر فى حياتهم الفكرية ذلك هو التعليم الحديث الذى أمدهم بمعارف وحقائق حديثة تناقض ما تلقنوه عن آبائهم وأجدادهم ، ووجدوا فى العلم الحديث طلبتهم فى الوقوف على سر الكون الذى لم يعرفوا له تفسيراً مادياً غير الأساطير والأقاصيص التى توارثوها عن أسلافهم . .

تحت تأثير تلك العوامل كلها تخلص الفرد من تحكم الأسرة والمجتمع فى كيانه غير أنه خسر من ناحية أخرى ؛ إذ باء بالحرمان من ذلك الأمن والاطمئنان الذى كانت تبعثه فى نفسه علاقته بالجماعة ونظرته إلى البيئة الطبيعية . ومن هنا نشأ الشعور بين الناس بالحاجة إلى إعادة بناء الهيئة الاجتماعية وبالحاجة إلى معتقدات جديدة تتمشى مع التطورات الحديثة ؛ فقد عجزت الديانات الموروثة أن تضطلع بعبء هذا التجديد وسد تلك

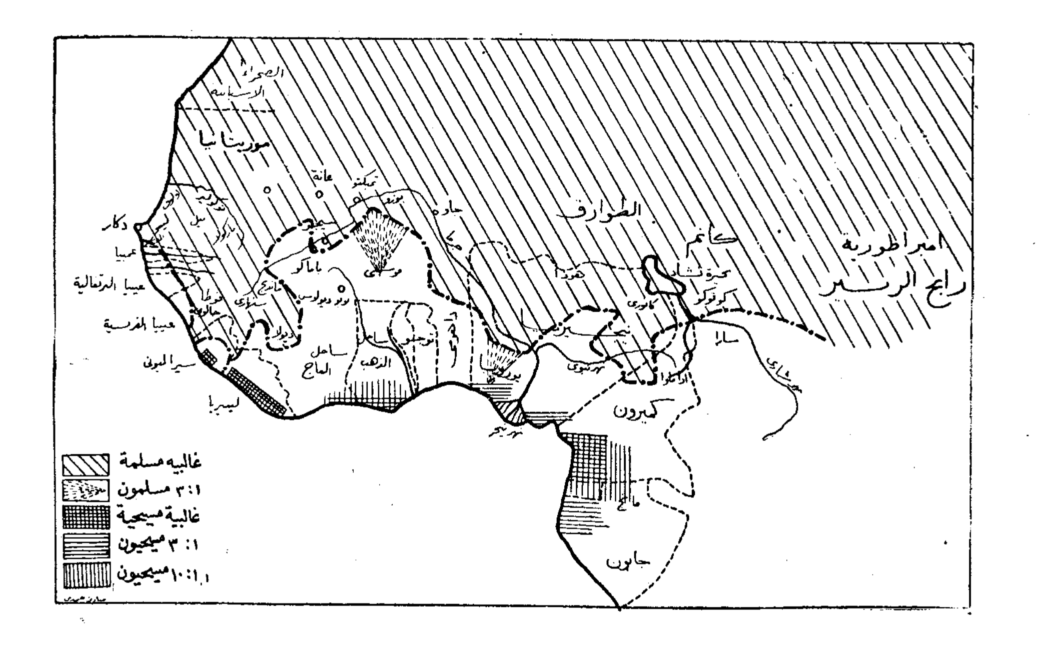
الحاجة ، لأنها لا تقوم على أسس ثابتة واضحة أو كهنوت منظم ، ولأن المراتب العليا من علومها ظلت أسراراً غريبة متقلبة ومعقدة تعقيداً شديداً . فلم تستطع البقاء على حالها ، إلا فى أكثر المناطق البعيدة عن العمران والتى يعيش أهلها منطوين على أنفسهم ، ولا سيما القبائل الأصيلة فى الزنجية .

وأما فى المناطق القريبة من المدن أو من المواصلات ، وحيث يوجد المنجم أو المزارع الشاسعة التى تصدر محاصيلها ، وفى المناطق المتفرقة السكان التى ينتزع سكانها من مواطنهم تلبية للحاجة إلى اليد العاملة ، فنى هذه الأرجاء يسير التفكك الاجتماعى والدينى سيراً حثيثاً . ومن هنا نبت الشعور بين هؤلاء الزوج المتحررين بالحاجة إلى أجوبة جديدة تهدئ اضطرابهم الروحى وتشبع فطرتهم الدينية .

ولقد استطاعت الديانات الموروثة فى بعض الأحيان أن تجد هذه الأجوبة بعد شىء من التعديل كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا . هكذا نجد فى ساحل غينيا مجتمعاً يؤمن بالآلهة الصغرى مكوناً من عناصر متباينة ، فيهم المختونون المتطوعون ، وفيهم الرهبان والكهنة ، وأعضاء الجمعيات الدينية . وهو مجتمع أقرب شبهاً بالجماعات الأوربية منه بالجماعات القديمة ذات العقائد المتحكمة والمؤسسة على مبدأ القرابة . وكان انتشار السحر وحلقات الزار وظهور آلهة جديدة وطوائف دينية مستحدثة (كما سنرى) مما أشبع هذه الرغبات الجديدة .

غير أن الذى استفاد استفادة حقيقية من هذا التفكك المستمر للديانات القديمة ، ومن هذا التحرر المفاجئ للأفراد الذين فقدوا إيمانهم

بدين آبائهم مع احتفاظهم بفطرتهم المتدينة ، هما الدينان العالميان الطارئان والقائمان على الوحى السماوى : أعنى الإسلام والمسيحية . هذه الحالة التى تمر بها زنوج أفريقيا اليوم شديدة الشبه بحالة الديانة الإغريقية الرومانية فى فترة اضمحلالها عند ما اجتاحتها الديانات الكبرى الشرقية . وأفريقيا اليوم تجتاز هذه الفترة العصيبة من الاضطراب الروحى التى تؤذن بانبثاق فجر جديد . .


الصحراء الإسبانية
موريتانيا
غانة
تمبكتو
الطوارق
كانم
امبراطورية
رابح الزبير
بحيرة تشاد
كوكو
دكار
غمبيا
غمبيا البرتغالية
غمبيا الفرنسية
سيراليون
ليبيريا
باماكو
بوبو ديولاسو
ساحل العاج
الذهب
توجو
داهومي
كميرون
جابون
غالبيه مسلمة
٣:١ مسلمون
غالبية مسيحية
٣:١ مسيحيون
١٠:١ مسيحيون

القسم الثانى
الدينان الجديدان

الفصل الاول
الإســـــلام

(ا) انتشار الدين الإسلامى :

الإسلام فى غرب إفريقية الفرنسى : عاشت الأديان الزنجية الوثنية بمنأى عن العالم الخارجى ، يحميها البحر والصحراء . ولكن الصحراء لم تكن من المنعة بحيث لا يمكن النفاذ إليها ، فطرق القوافل تخترق أرجاءها . وحدودها الغربية البحرية أشبه ما تكون بجسر يربط بين مراكش وبلاد السنغال ، تغطيه المراعى الصالحة لرعى الماشية وحياة البدو . .

وقد ارتاد تلك المراعى فى القرن الحادى عشر قبائل (لمتونة) من البربر . ومن المحتمل أن تكون قد فرت أمام غزو العرب[1] . ثم نزل

(١) وهم قبائل بنى هلال التى أرسلها الخليفة الفاطمى لإخضاع إفريقيا الثائرة عليه . .

بينهم شيخ صالح هو « ابن يس » وأقام فى جزيرة صغيرة قريبة من ساحل السنغال ، حيث أسس له رباطاً (زاوية) وعرف أتباعه باسم « المرابطين » وقد اعتنقت قبائل لمتونة الإسلام على يديه ، وعاهدوه على الجهاد فى سبيل الإسلام ، فاتجه بطن منها فغزا مراكش (وأسسوا بها دولة المرابطين) ، واتجه آخرون إلى غزو البلاد المجاورة وهى مملكة (غانة) الزنجية الوثنية (بين سنغال والنيجر) فاستولوا عليها فى ١٠٧٦ م واعتنق السكان وهم قبائل (سارا كولا) الدين الإسلامى . ولم تقف دعوة المرابطين عند هذا الحد ، بل تخطته إلى قبائل أخرى ، فقد حدث أن اعتنق أمير قبائل الماندانج الدين الإسلامى ، فراراً من ثورة شعبه عليه عندما فشل فى إنزال المطر بأرضه . وأسس أحد خلفائه (سونديا تا كيتا) Sondiata Keita فى القرن الثالث عشر إمبراطورية (مالى) Mali التى امتدت إلى أعالى النيجر ، فأصبحت مملكة غانة خاضعة له . وخلف سونديا تا هذا (مانسا وله) Mansa Oulé ويلقب بالملك الأحمر ، وقد أدى مناسك الحج فى مكة . والواقع أن بلاد السودان تمتد فى قلب أفريقيا ، دون أن تعترضها حواجز طبيعية . وبها من النبات والسكان ما يسهل للمسافر المزود بالمؤونة والهدايا والأعوان اجتيازها فى غير عناء . وقد كانت هذه الإمكانيات فى حوزة ملوك الماندانج ، إذ كانت عندهم مناجم التبر التى استغلوها فى بامبوك Bambok حتى أن أحدهم وهو (جونجوموسى Gongo Moussa) لما خرج ليؤدى فريضة الحج فى القرن الرابع عشر بطريق ساحل البحر الأبيض المتوسط ، أظهر من أبهة الملك والبذخ ما بهر أعين العرب فى تلك الأنحاء .

وكانت صلاته بمراكش ومصر وثيقة ، وقصد بلاطه جماعة من العلماء والأدباء . وفى هذا العهد خضعت مملكة (السونرهاى) التى أسسها زعماء قبائل (لمتونة) فى حوض نهر النيجر الأوسط (جاو وتمبكتو) لسلطة إمبراطورية (مالى) . ثم استرد ملوك السونرهاى استقلالهم فى القرن الرابع عشر . وفى أوائل القرن السادس عشر الميلادى أدى أحد ملوكهم (مامادو توريه) Mamadou Touré (أى محمد توريه) فريضة الحج فى موكب حافل ضخم ، وقابل وهو فى طريقه إلى مكة خليفة المسلمين إذ ذاك . ولما عاد من الحج أعاد تنظيم ملكه على أساس ما رآه من النظم الإسلامية فى الممالك الشرقية التى مر بها ، وضم إلى مجلسه العلماء والأدباء . ومنذ ذلك العهد بدأت تشتهر مدينة تمبكتو . ومد ملوك (السونرهاى) فتوحاتهم على طول نهر النيجر حتى (داهومى الشمالية) ولكنهم اصطدموا فى الجنوب بمقاومة قبائل (الموسى) ولم يفلحوا فى نشر الدعوة الإسلامية بينهم . ومن جهة أخرى استطاعت قبائل بامبارا الوثنية فى منطقة النيجر الوسطى أن تنتقص إمبراطورية (مالى) وتتخطف أطرافها . وفى عام ١٥٩١ أرسل سلطان مراكش فرقة من المرتزقة اخترقت الصحراء مزودة بالأسلحة النارية التى استعملت لأول مرة فى تلك الأرجاء ، فاستولت على مملكة (السونرهاى) وخربتها وقضت عليها ، وحكمت جاو وتمبكتو باسم السلطان ، وأشاعت فيها الفوضى ، وأرهقت أهلها بالضرائب وهكذا اضمحلت أعظم سلطة سياسية إسلامية فى تلك الأنحاء ، إذ استردت منها الوثنية بعض أراضيها ، فانحاز الإسلام بذلك إلى حدود الصحراء . ورغم ذلك فقد ظلت بعض القبائل على الإسلام ، مثل قبائل

(سارا كولا) و (السونرهاى) وبعض قبائل (الماندانج) كما ظلت قبائل (توكولير) فى حوض نهر السنغال على إسلامها منذ أن اعتنقته على يد المرابطين . وقد حدث أن خضعت قبائل توكولير هذه زمناً ما لسلطان قبائل (البيل) الوثنية ، إلا أنها تحررت منها فى القرن الثامن عشر الميلادى ، واتخذوا لمجتمعهم نظاماً إقطاعياً دينياً ونصبوا عليهم إماماً يخضعون له ، وأصبح موطن قبائل (التوكولير) وهو يعرف باسم (فوطاتورو Fouta toro) مركزاً من أكبر مراكز الدعوة الإسلامية والتحمس لها فى غرب إفريقيا ، بفضل اتصال تلك القبائل بطريقتى القادرية والتيجانية ، اللتين وصلتا إليهم من شمال إفريقيا . واستطاعت قبائل (النوكولير) هذه أن تجعل قبائل (الأولوف) القاطنة فى غربها على اعتناق الإسلام . كما اعتنق جيرانهم قبائل (البيل) الدين الإسلامى وأسسوا اتحاداً دينياً فى الهضبة المعروفة باسم (فوطا جالون) فى غينيا ، وجعلوه مركزاً لنشر الدعوة الإسلامية بين القبائل الوثنية المجاورة . وقبائل (البيل) من القبائل الرحل التى تعنى بتربية الماشية ، وقد اتخذت مدينة (ماسينا) على نهر النيجر الأوسط موطناً لها ، حتى أصبحت لها كثرة عددية فيها وفى نيجريا الشمالية . وكانوا خاضعين وقتاً ما لملوك القبائل الوثنية من « البامبارا » و « الهوزا » إلا أن دعاة المرابطين من أهالى « توكولير » حرضوهم على الثورة ضد هؤلاء فى القرن الثامن عشر ، وانتهت ثورة « البيل » إلى خلع سيادة « البامبارا » وإلى تأسيس ملك مستقل لهم بمدينة « ماسينا » وأما فى قبائل « الهوزا » فقدقام المرابط « عثمان دان فوديو Dan Fodio

بالدعوة بينهم ، فدخلوا فى الإسلام أفواجا ، فأثار ذلك ملوكهم الذين دأبوا على اضطهاد المسلمين . فما كان من عثمان الداعية إلا أن دعا إلى الجهاد فاجتمع له جيش كثيف من الفلاحين والرعاة من قبائل « هوزا » و « البيل » الهاربين من إرهاق الحكام الاقطاعيين وفى عام ١٨٠٤ أعلن الجهاد بالفعل ، وهزم جيوش الوثنين وأسس إمبراطورية عظيمة فى شمال نيجيريا، واتخذ له عاصمتين هما « سوكوتو » و « كانو » وأعلن نفسه أميراً للمؤمنين . وقد انقسمت امبراطوريته بعد وفاته . إلا أن قبائل « الهوسا » اعتنقت الإسلام وأصبحت حصناً من أقوى حصونه انتشرت منه الدعوة إلى أواسط نيجيريا وشمال بلاد كامرون :

وفى عام ١٨٦٠ قام الحاج (عمر تال Tal) وهو داعيـــة من المرابطين من قبيلة (توكولير) وموطنه السنغال الأدنى ، بعد أن قضى زماناً مجاوراً بمكة ، فأسس فى بلاد (فوطا جالون) شعبة قوية للطريقة التيجانية . ثم أعلن الجهاد على قبائل (البامبارا) الوثنية ، وهزمهم واحتل عاصمتهم (نيورو) ، ثم اتجه بعد ذلك لضم بلاد السـنغال ، إلا أنه اصطدم بجيوش المستعمرين الفرنسيين تحت قيادة الجنرال (فيدرب Faidherbe) فحول اتجاهه إلى مملـكة (البيل) المسلمة وأخضعها بعد أن قتل ملـكها . ومنذئذ نشب الشقاق والتناحر بين أتباع طريقتى القادرية (وهم البيل) والتيجانية (وهم أتباع الحاج عمر) ، ولـكن (البيل) لم يصبروا على تحـكم الحاج عمر فيهم ، فحاصروه وألجأوه إلى مغارة ، وأطلقوا عليها الدخان ، فمات فيها مختنقاً . ثم خلفه ابنه امادوا

(أحمد) وظل ملكا فى عاصمته (سجو) حتى قبضت عليه الجيوش الفرنسية المستعمرة . .

وظهر فى حوض نهر النيجر الأعلى داعيـــة آخر يسمى (ساموری طوره Samory Toré) من قبـائل (ساراكولا) أو (الماندانج) ، ولم يكن إلا زعيماً لعصابة قليلة ، وليس له حظ كبير من العلم بالدين الإسلامى ، إلا أنه وراء ستار الدين دأب على مهاجمة السكان الوثنيين ونهبهم وبيعهم بيع الرقيق . ولمـا شعر بقوة الجيوش الفرنسية نقل مركز قيادته من النيجر الأعلى إلى أعالى غينيا ، ثم إلى أعالى ساحل العاج حتى نهر فولتا ، وأخيراً أسره الفرنسيون فى إحدى المعارك فى عام ١٨٩٨ . وكان من أثر حروبه القضاء على كثير من السكان الوثنيين ، وتمهيد الطريق أمام انتشار الإسلام فى تلك الربوع .

وسائل انتشـار الدعوة : لم يكن انتشار الدعوة الإسلامية كما رأينا مستمراً ومتواصلا فى أفريقيا الغربية ، إذ أنه اصطدم بمقاومة عنيفة من بعض السـكان الوثنيين ، مثل (البامبارا) و (الموسى) وانحاز الإسلام إلى المناطق الجافة من السودان ؛ إذ وقفت أمامه قسوة الجو المشبع بالرطوبة على الساحل ، وكثرة الغابات الملتفة التى لا مسالك فيها ، والمستنقعات المنتشرة فى تلك الأرجاء ، وكثرة الجماعات الوثنية وتنوع عقائدها ، وعداؤها لـكل أجنبي عنها ، وكذلك قوة الممالك الوثنية ذات الـكثرة العددية فى شرقى الساحل ، حيث الملوك هم الرؤساء الدينيون ، وهم الذين بيـدهم إنزال الغيث والإتيان بالخوارق . كل هذه العوامل

حالت دون تغلغل دعاة المرابطين ، كما حالت دون زحف الجيوش الإسلامية .

ولهذا استطاعت بعض القبائل الكبرى أن تحتفظ بمعتقداتها القديمة ، إما بفضل قوة نظامها الاجتماعى الدينى (كما فى البامبارا والدوجون) أو بفضل متانة نظامها السياسى مثل قبائل (الموسى) ، أو بفضل وعورة موقعها الجغرافى فى الأرجاء النائية أو الجبلية مثل قبائل (لوبى) وقبائل (باوتشى) فى شمال حوض نهر (بنوى Benoué) أحد فروع نهر النيجر ، أو بفضل شكل حكمها اللامركزى ذى النزعة الاستقلالية ، حيث لا يخضع الفرد فيه لرئيس . وهو نظام لا يستسيغ أفراده التقيد بوضع جديد مثل قبائل (بوبو) .

وقد لجأت الجيوش الإسلامية فى فتوحاتها إلى تخيير الوثنيين بين خصال ثلاث : الإسلام أو الجزية أو الحرب . ومهما يكن من أمر فإن انتشار دعوة الإسلام فى غالب الظروف لم تقم على القسر ، وإنما قامت على الإقناع الذى كان يقوم به دعاة متفرقون من المرابطين ، لا يملكون حولا ولا طولا إلا إيمانهم العميق بدينهم . وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمى البطىء من قوم إلى قوم ، فكان إذا ما اعتنقته الارستقراطية وهى هدف الدعاة الأول تبعتها بقية القبيلة ، وقد يحدث أن تستفيد الدعوة من الظروف كأن يخلو مكان الرئيس الدينى فى عشيرة وثنية ، فيتقوض بنيانها الاجتماعى ، ويستجيب أفرادها للدعوة الإسلامية . وقد يسر انتشار الإسلام أمر آخر ، هو أنه دين فطرة بطبيعته سهل المتناول لا لبس ولا تعقيد فى مبادئه ، وسهل التكييف

والطبيق على مختلف الظروف ، وأن وسائل الانتساب إليـه أيسر وأيسر ، إذ لا يتطلب من الشخص لاعلان إسـلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح فى عداد المسلمين . ولم يفرض الاسلام على الزنوج أن يغيروا من نظام معيشتهم أو تفكيرهم الدينى . وسنوضح للقارئ أن كثيراً من القبائل الزنجية التى اعتنقت الاسلام احتفظت إلى جانبه بآثار كثيرة من عقائدها وعاداتها . هذا إلى أن عقيدة التوحيد التى جاء بها الاسلام لم تكن غريبة عليهم ، بل كانت تتمشى مع عقيدتهم القديمة فى الاعتقاد بوجود إله خالق . وقد حبب الاسلام إليهم مظاهره البعيدة عن التكلف ، مثل الثوب الفضفاض ، والمسبحة ، والكتابة العربية ، والوقار الدينى ، وشعائر الصلاة ، مما يضفى على المسلم مكانة مرموقة ، وجاذبية ساحرة . فالذى يدخل فى الاسلام ولو فى الظاهر يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة ، وأنه قد ازداد من القوة الحيوية .

ولما كان الزنجى جماعياً بنشأته ، ومعتزاً بانتسابه إلى جمعياته الدينية القديمة ، فقد وجد فى جماعة المسلمين وأخوتهم خير بديل عنها ، وخاصة فى الأيام الأولى للدعوة ، عند ما كان المسلمون قلة . ثم حلت عنده جماعات الطرق الصوفية وأتباعها الكثيرة محل الجمعيات الوثنية الماضية، فى صورة أوسع وأعظم . وقد يحدث أن تجد الوثنية نفسها أقلية ، وسط أكثرية مسلمة ، فتعتنق الاسلام طوعاً تحت تأثير شعورها بهذا النقص، ولو أن بعضهم كان يسخر من صلاة المسلمين ويتخـــذ ركوعهم وسجودهم هزواً .

وبالرغم من أن الاستعمار الأوروبى أوقف زحف الجيوش

الإسلامية فانه مهد للاسلام سرعة الانتشار السلمى ، بما أنشأه من الطرق المهدة الآمنة ، التى مكنت للمرابطين ودعاة الطرق الدينية والاشراف والتجار المسلمين من (الديولا) أو (الهوزا) أن يتجولوا بحرية حاملين مع سلعهم بذور الدعوة الاسلامية . وهكذا كانت التجارة وسيله من وسائل إدخال الناس فى الاسلام ، كما أن بعضهم اتخذ اسم الدين وسيلة للتكفف . وقد مهدت لانتشار الاسلام عدة عوامل أخرى ، منها هجرة العمال من قبائلهم انتجاعا للرزق خارج القرية — وكذلك انتشار النقد فى التجارة بدلا من المقايضة ، وغزو العادات والأفكار الجديدة لكل ماكان قديماً ، وتناقص روح الاحترام للاباء والأجداد التى جرت بها عاداتهم ، ولم يقف فى طريق انتشار الاسلام أفراد , لأن هؤلاء رحبوا به إذ أشبع فيهم الروح الجماعية التقليدية وإنما وقفت أمامه الجماعات المتماسكة ، وخاصة القبائل الزراعية .

ولما جاء المستعمرون إلى تلك الأقطار تضاربت سياستهم إزاء الإسلام ، فنرى مثلا الجنرال (فيدرب) رغما من أنه قاتل المسلمين فى الجزائر وتغلب على جيوش الداعية (الحاج عمر) قد اتبع سياسة التفاهم والتقرب إلى زعماء المسلمين ، واستغلهم لمصلحة الاستعمار الفرنسى وأما القائدان أرشينار Archinard ومانجان Magnin فاصطبغت حروبهما مع (أمادو) ابن الحاج بالروح الصليبيـــة المتعصبة . غير أن السياسة الغالبة على الحكومة المركزية وإدارة المستعمرات رسمت على أساس التفاهم مع زعماء المسلمين ، لما كانوا يتمتعون به من الإحترام والنفوذ بين الناس ولو ظاهراً . هذا إلى تقدير المستعمر للدين الاسلامى ، لوضوح

أركانه ، وسهولة إدراكه ، ومتانة مبادئه ، بينما لم ير فى الوثنية إلا عقائد غامضة ، معقدة متباينة ، تعتمد على قوى خفية عنيفة تنزل الرعب فى القلوب . وكان هذا المسلك الحكومى تشجيعاً أفاد منه الاسلام . فانتشر فى يسر وتؤدة . ومع هذا فقد لقيت تلك السياسة بعض المعارضة ، فقام أحد حكام المستعمرات وهو (بريفيه Breivié) ونادى فى كتابه (الاسلام ضد الوثنية فى السودان الفرنسى ١٩٢٣) بأنه من صالح فرنسا استغلال زعماء القبائل الوثنية فى تلك الأرجاء ، لأن الاعتماد على الجماعات الاسلامية ينطوى على خطر أكيد على المستعمر . وكان من أثر الدراسات فى أصل الأجناس البشرية التى قام بها (دلافوس) وآخرون من بعـــده أن بدأ الأوروبيون يتفهمون الديانات الوثنية ويقدرونها ، حتى أن العالم (جريول) وقف موقف المدافع عنها . إلا أن هذه السياسة لم تؤثر فى سرعة انتشار الاسلام ، بل أن بعض الأقوام الذين كانوا يكافحونه كفاحا عنيفاً منذ أكثر من خمسة قرون ، مثل قبائل (بامبارا) و (موسى) دخل الإسلام بين ظهرانيهم ، ولم يقف بعد ذلك فى سبيله موانع طبيعية ، كالغابات الكثيفة المغلقة المسالك والمدن الساحلية ذات الجو المشبع بالرطوبة ، بل كلها فتحت له مسالكها وأبوابها ، وأصبح فيها من المسلمين جاليات ضخمة .

الاسلام فى شرق السودان :

بدأ الإسلام فى مملكة « كانم Kanem » الوثنية فى الشمال الشرقى لبحيرة شاد ، إذ اعتنق الإسلام أحد ملوكها فى القرن الحادى عشر .

ولعل الصلات التجارية وطرق القوافل الممتدة بين بحيرة تشاد وبين طرابلس عن طريق فزان كانت عاملا هاما فى اعتناقه الإسلام . ولما طرده رعاياه فى القرن الرابع عشر لجأ إلى الجنوب الغربى للبحيرة فى منطقة (بورنو) التى صارت فيما بعد مركزاً لمملكة إسلامية عظيمة ، وفى القرن السابع عشر أصبح الاسلام هو الدين الرسمى لمملكة (باجرمى)فى شرق حوض نهر « شارى » الأدنى . .

ولا يفوتنا أن نذكر أن وادى النيل كان من أهم المراكز التى زحفت منها الدعوة الاسلامية ، فقد كانت مصر من أسبق الأقطار لاعتناق الاسلام ، إلا أن زحف الاسلام منها إلى الجنوب تعطل زمنا عند حدود السودان ، بسبب مملكة « دنقلة » المسيحية التى حالت دون توغله فى أول الأمر حتى عام ١٣٥٠ م حيث فتحت تلك المملكة ، وأسست فيها أسرة ملكية إسلامية ، باسم مملكة « الفونج » التى كانت من قبل مملكة وثنية زنجية . وفى غرب هذه المنطقة وشرق بحيرة تشاد تأسست فى القرن السادس عشر ممالك إسلامية فى «واداى» و «دارفور» و « كردفان » وتسربت قبائل عربية مثل قبيلة « شوا » وغيرها إلى تلك المناطق حتى بحيرة تشاد . فلم تكتف قبائل تلك الممالك بدخولها فى الاسلام ، بل طبعت بطابع عربى ، بسبب انتشار اللغة العربية فى تلك الأقطار .

وفى ١٨٢١ غزا « محمد على » السودان وأسس مدينة الخرطوم ، وتوغل خلفاؤه حتى بحيرة « البرت » ، وشجعوا إرسال بعثات دينية إلى تلك الأرجاء ، فالتقت هذه البعثات عند بحيرة تشاد بجماعات من المسلمين

من ليبيا ، منهم السنوسيون ، ومنهم عرب من قبيلة « ولد سليمان » ولما استقل المهدى بالسودان أرسل رسله لنشر الدعوة الاسلامية فى البلاد الواقعة غربا .

وأما سكان الجنوب (فى المناطق الجبلية لشمال الكامرون ، وفى حوض نهر شارى الأوسط ، وفى بحر الغزال وفى أعالى النيل) فقد ظلوا على وثنيتهم وقاوموا كل تدخل بالقوة ، ولم يحل ذلك دون وقوع قبائل أعالى النيل فريسة لتجار الرقيق ، الذين اتخذوا (دارفور) و(كردفان) مركزاً لإغاراتهم . وأشهر هؤلاء التجار (رابح الزبير) الذى مد غاراته إلى الغرب حتى بحيرة تشاد ، وأسس له ملكا ، واستنزف فى تجارة الرقيق معين السكان من تلك المناطق ، وظل فى تلك التجارة الخاسرة حتى دخلت جيوش فرنسا تلك المناطق وقضت عليه حوالى عام ١٩٠٠ .

أما فى أثيوبيا (الحبشة) فإن الإسلام عند ما وفد إليها من الجزيرة العربية اصطدم بالهضبة الوسطى ، التى كان يسكنها المسيحيون من قديم الزمن ، فتحول الإسلام عنها إلى السهول والسواحل الصومالية ومنطقة هرر . على أن هؤلاء السكان وإن كانوا سودا هم من أصل حامى لا يدخل فى موضوعنا . وأما السكان الزنوج الأصليون القاطنون على السفح الغربى للهضبة الوسطى وهى المنطقة الحارة الرطبة من أثيوبيا فقد ظلوا على وثنيتهم ووقعوا بدورهم فريسة سهلة لتجار الرقيق إلى زمن قريب .

وأما الساحل الشرقى لأفريقيا ، المطل على المحيط الهندى فقد كان ينزل به الملاحون من العرب ومن الإيرانيين منذ القرن العاشر الميلادى

فتألف من هذا الخليط شعب يسمى بالسواحيليين ، يدينون بالإسلام ويتكلمون برطانة بين العربية والزنجية المسماة لغة (البانتو Bantou)

ولم يحاولوا بعد احتلالهم الساحل أن يتوغلوا فى القارة ، ولو أن تجارتهم كان لها رواج بداخلها ، ولم يكف المسلمون عن ممارسة التجارة فى تلك الأرجاء حتى بعد استعمار البرتغاليين الذين استفادوا من هذه التجارة الإسلامية .

ولما اضمحلت الامبراطورية البرتغالية فى القرن الثامن عشر ، غزا سلطان (مسقط) أغلب الساحل الشمالى لشرق أفريقيا ، ونقل حاضرته إلى (زنجبار) التى كانت تتحكم فى طريقين تجاريين عظيمين فى داخل القارة لاستجلاب الرقيق والعاج والنحاس . يمتد أحد هذين الطريقين فى الداخل إلى بحيرة تانجنيكا ، ويصل إلى الكنغو . والثانى يمتد حتى بحيرة فيكتوريا . وما زال أثر الطريق الأول ظاهراً حتى بعد القضاء على تجارة الرقيق ؛ إذ ما تزال تسكن على طوله جماعات متفرقة من المسلمين ورغم أن بعض الملوك والزعماء اعتنقوا الإسلام أو حاولوا ذلك ، فإن عامة قبائل (البانتو) وهم سكان الداخل ظلوا على وثنيتهم أو دخلوا المسيحية فى عهد متأخر .

(ب) المناطق الإسلامية فى الوقت الحاضر

جماعات الطرق الدينية :

يرجع الفضل الأكبر فى نشر الإسلام بين قبائل الزنوج فى أفريقيا منذ القرن الثامن عشر إلى نشاط الدعاة من أرباب الطرق الصوفية

الإسلامية . وقد وجد فيه الزنوج الطمأنينة بفضل نظامه الاجتماعى ، وما يتمتعون فى ظله من يسر وأمن فى أسفارهم للتجارة . كما أنه لم يحملهم من الشعائر الدينية إلا أداء الفرائض اليسيرة ، ثم أنهم وجدوا فى شيخ الطريقة إماما مزودا بقوى علوية ، وفى حلقات الذكر تجلياً وتسامياً روحياً ؟ كما أنه أشبع نزعتهم الطائفية التى تبعث فى نفوسهم فى وقت واحد طمأنينة وحمية . غير أن التعصب لمذهب أو طريقة ما كان سبباً فى مشاكل خطيرة ، تحولت حيناً ما إلى حروب طاحنة .

وأقدم تلك الطرق طريقة (القادرية) التى نشأت فى العراق فى القرن الحادى عشر الميلادى . أسسها أشهر الأولياء سيدى عبد القادر الجيلانى وهم يتعبدون على مذهب الامام مالك ، ولهم أدعية وحلقات ذكر جماعية (حضرة) ولهم المسبحة الكاملة (مائة حبة) ، ويستغرق تعبدهم ساعات كثيرة من اليوم . ويشتهر من أتباع هذه الطريقة فى أفريقيا السوداء شعبة (القادرية كونتا Kounta التى يتبعها فى جنوب مراكش مشايخ (سعد بو) . وكذلك طريقة المريدين التى تكثر فى السنغال فانها أيضاً شعبة من (القادرية كونتا) .

أما الطريقة (التيجانية) فقد نشأت فى شمـــال أفريقية فى القرن الثامن عشر أسسها سيدى أحمد التيجانى المدفون بمدينة فاس . وتتميز هذه الطريقة بتزمتها وشدة مناوأتها للوثنية ومناهضتها للطرق الصوفية الأخرى . روى التيجانى أنه رأى الرسول عليه السلام فى المنام ، وأنه أخذ تلك الطريقة عنه وقد فرض على أتباعه أن ينفردوا بصلاتهم عن بقية الجماعات الاسلامية . ولهم مسبحة خاصة بهم ، تتوسطها خرزة

تفصل الثنتى عشرة حبة الأولى منها عن بقيتها. وانتشرت هذه الطريقة وهى طريقة الحاج عمر انتشاراً واسعاً فى أفريقيا السوداء . وذلك أنها لا تتطلب من مريدها وقتاً طويلا ولا مجهوداً فكرياً . وتفرعت عنها فى السودان شعبة (الحمالة) التى سنفصلها فيما بعد .

وبذلك يقف أصحاب هذا المذهب موقف المعارضة من الحكام وأولى الأمر ، من حيث المبدأ فقط ، دون ما التجاء إلى العنف .

وهناك طريقة أخرى وهى طريقة (الأحمدية) التى منشؤها الهند وهى مذهب ملفق من الاسلام والمسيحية ، يدعو للتسامح وتحكيم العقل وقد وصلت هذه الطريقة إلى أفريقيا عن طريق الساحل فى أعقاب الأوربيين ، بخلاف الطرق الأخرى التى جاءت عن طريق الصحراء . وليس لهذه الطريقة انتشار ملحوظ فى أفريقيا .

الدعوة فى أفريقيا الغربية :

كان الفضل فى نشر الدعوة الاسلامية فى أفريقيا الغربية للجهود الموفقة التى بذلها دعاة الإسلام من المرابطين المغاربة ، وأغلبهم من أتباع الطريقة القادرية ، وبعضهم من أتباع التيجانية . وقد اشتهر نفر من المرابطين بالتضلع فى الشريعة والعلوم . وقد مهد لهم الاستعمار سبل الانتقال فى تلك النواحى لنشر الدعوة ، كما فتح الطريق أمام الفقراء الزهاد للتجوال فى طلب الصدقات ، وامتد نشاط هولاء جميعاً من السنغال إلى غينيا والسودان حتى ساحل العاج ومستعمرة نيجر الفرنسية

وأن التكفف باسم الدين هو أكثر الحرف ازدهاراً بين سكان (موريتانيا) وهى بلاد فقيرة ، ولو أن بها مناجم قد تغير حالها مستقبلا

ويدل الاحصاء على أن ٧٠٪ على الأقل من سكان السنغال مسلمون . ولا يوجد بها من الوثنيين إلا قبائل (سيريس) وسكان (كازامانس) الأدنى . ولما كانت قبائل (الأولوف) المسلمة تحيط بقبائل (السيريس) ، فان تسرب الاسلام إلى هؤلاء يزداد يوماً عن يوم . وأقدم القبائل الاسلامية فى السنغال هى (التوكولير) وهى أكثر القبائل تزمتاً ، وأشدها مراساً .

وأما قبائل (البيل) و (الماندانج) و (الساراكولا) الذين يسكنون صحراء (فرلو) وشرقيها فهم مسلمون أكثر اعتدالا . وأما قبائل (الأولوف) التى تسكن غربى الاقليم فهى أكبر القبائل عدداً ، وأحدثها عهداً بالاسلام ، وأعظمها تسامحا ، فترى أعضاء مجالسهم البلدية فى (سان لويس) و (داكار) يشتركون دون حرج فى حفلات المسيحيين وجنائزهم وعيد القديسة (جان دارك) وغير ذلك مع أن كبار رجال الدين وأشهر المرابطين يسكنون هذا الأقليم نذكر منهم (بابكرسى) فى (تفوان) وهو من التيجانية وكذلك عــــديله (نوروسيدوتل) وهو حفيد الحاج عمر تل ، وهو رئيس المرابطين فى داكار وحلقة الوصل بين المسلمين والاداره الفرنسية فى تلك الجهات وفى (كاولاك) يقيم (إبراهيم نياس) وهو تيجانى ويمتد نفوذه الدينى حتى شمال مستعمرة نيجريا . بينما نجد فى بلاد (باول) مركزين دينين عظيمين فى مدينتى (دجوربل) و (طوبة) يتبعان طريقة المريدين

أما فى الجنوب فهناك كتلة من الشعوب الوثنية تمتد من غينيا الشرقية إلى ساحل العاج وأعالى نهر فلتا وساحل الذهب (وتوجو) و (داهومى) لم يستطع الإسلام النفاذ إلا إلى جزء صغير منها فى الشمال ، ولا سيما الجزء الشمالى الغربى من ساحل العاج . مع أننا نجد التجار المسلمين من (الد ولا) يذرعون تلك الأرجاء ، ويسكنون أحياء خاصة بهم فى بعض المدن . وتدل البوادر على أن الاسلام أخذ فى الانتشار بين قبائل موسى ولكنه يلقى هناك منافسة شديدة من المبشرين المسيحيين ، وخاصة فى منطقة الساحل .

ويقدر عدد المسلمين فى السودان الفرنسى بنصف سكانه ، وهم قبائل (البيل والساركولا والسنرهاى) وجزء من قبائل (الماندنج) وأغلب سكان المدن والطرق التجارية من المسلمين والكتلة المكونة من البامبارا والدجون وثنية .أما قبائل (بوزو) المشتغلون بصيد النهر فمسلمون أسميا فقط والمذهب السائد بين (البيل) و (السونرهاى) هو القادرية ، وبين (الساراكولا) ورعايا الحاج عمر مذهب التيجانية . وتمتاز قبائل (السنرهاى) بوجود طبقة من المتعلمين تسمى (ألفا) Alfa وهى أكثر العناصر ثقافة فى السودان الاسلامى ، وخاصة فى مدينة (تمبكتو) . وكثير من هؤلاء تلقوا العلم فى الأزهر . وعدا ذلك فأكثر المذاهب انتشاراً فى السودان هو مذهب الحمالة .

والغالبية للاسلام فى مستعمرة (نيجر) ويمكن تقسيم تلك البلاد إلى ثلاث مناطق : ففى الغرب على طول نهر النيجر نجد قبائل (جرماً) وهى تمت بالقربى (للسنرهاى) — تعتنق الاسلام مخلوطاً بعقائد السحر والجان والزار . وفى الوسط نجد قبائل (هوزا) وهى إسلامية على

الطريقة التيجانية ، وتعيش مع الوثنيين من السكان جنبا إلى جنب وفى الشرق ــ تجد قبائل (الكانورى) رعايا مملكة (بورنو) سابقا ، وهم من أتباع الطريقتين التيجانية والقادرية .

وأما فى شمال (نيجيريا) فيكاد التقسيم يكون مماثلا . والغالبية للاسلام فى تلك البلاد ، حيث يوجد مركزان دينيان (سوكوتو) و (كانو) وكثير من السلطنات المتفاوتة الرتبة . وفى الوسط يختلط الوثنيون والمسلمون ، إلا أن الأغلبية للمسلمين فى الغرب بينما الأغلبية للوثنيين . فى الشرق . أما سكان الساحل فوثنيون . ويوجد بينهم عدد كبير من المسيحيين . غير أن الاسلام فى الغرب قد خطا خطوة جديدة بين قبائل (يوروبا) التى أصبح نصفها قسمة بين الاسلام والمسيحية ، وإن كان نصفها الباقى لا يزال وثنيا .

الدعوة فى أفريقيا الاستوائية وشرق أفريقيا : دخل الإسلام شمال مستعمرة (الكامرون) فطبعها بطابعه وكان ذلك أول الأمر فى عهد إمبراطورية (بورنو) الإسلامية ، التى حولت قبائل (كوتوكو) المجاورة لبحيرة تشاد إلى الإسلام . ثم ازداد عدد المسلمين بفضل غزوات قبائل (البيل) المسلمة فى القرن الثامن عشر ، إذ كان من أثرها دخول الإسلام فى أعالى نهر بنوى (فرع من النيجر) وفى هضبة (أداماوا) . أما فى جنوب هذه الرقعة فقد اعتنق ملك (بامون) الإسلام فى عام ١٩١٤ وأعلن أن الإسلام دين الدولة ، غير أن أغلبية شعبه لم تتبعه فى ذلك ، وظل سكان وسط وجنوب (الكامرون) على وثنيتهم أو اعتنق بعضهم المسيحية .

وأما سكان منطقة بحيرة تشاد فنصفهم مسلمون (الجزء الشمالى) . فقبائل (كانم) و (البيجرمى) و (واداى) من أقدم الشعوب التى دخلت الإسلام وتعتبر من أمنع قلاعه . غير أن تدينهم سطحى مشوب بالجهل . ويرجع ذلك إلى كثرة الشعوب وتباين أصولها ، وإلى الاضطراب السياسى وعدم الاستقرار الذى ساد تلك المنطقة إذ هى بلاد يكثر بها عبور السابلة والقوافل وتجارة الرقيق . ورغم ذلك فإننا نجد فى (واداى)و (كانم) نظاماً ممتازاً للتعليم العالى وخاصة فى(أبشر) عاصمة واداى لأنها على اتصال دائم بالسودان الشرقى وبلاد مصر حتى أنها يمكن أن تعتبر عاصمة دينية . وقد ظهرت بتلك البلاد حركات تقدمية حديثة . على أن هذا الجزء الشمالى من بحيرة تشاد لا يعتبر من بلاد الزنوج ، لأن بها كثيراً من القبائل العربية . والمذهب الشائع فيها هو التيجانية إلى جانب نفوذ قليل من السنوسية . أما سكان جنوب بحيرة تشاد وخاصة قبائل (السارا) فى حوض نهر (شارى) الوسيط فيؤلفون كتلة وثنية عتيدة .

والسودان شرقى بحيرة تشاد حتى فاشودة ودارفورد وكردفان مأهول بالمسلمين والجنس الأسود الحامى ولكن الجنوب عامة وهو موطن الزنوج الأصليين (مستنقعات بحر الغزال) ما يزال سكانه على وثنيتهم . وكذلك حال الزنوج القاطنين فى السفح الغربى لهضبة الحبشة . ويجب التفرقة بين هؤلاء وبين السود الذين هم من أصل حامى وبين الساميين الذين من ألوان مختلفة والذين يقطنون فى بقيـــة الإقليم .

فهؤلاء يخرجون عن بحثنا فى هـذا الـكتاب ، كما يخرج عنه سكان السودان الشرقى .

وأما فى ساحل أفريقيا الشرقى الإنجليزى فالمنطقة الساحليـة كلها تقريباً تدين بالإسلام وأشهر مراكزه الـكبرى مدينة زنجبار ورغم أن سلطنة زنجبار أسسها أمراء عمان فإننا نجد أن مذهب هؤلاء وهو مذهب الخوارج لا تتبعه إلا أقلية لا تذكر . وأن الغالبية العظمى للسنيين . وفى (كينيا) و (تانجانيكا) توجد مراكز إسلامية متفرقة . وأغلبها من المهاجرين من مسلمى الهنود وهم من أتباع طائفة الاسماعيلية .

وأما بقية أجزاء أفريقيا فلم ينتشر الإسلام فيها إلا انتشاراً ضئيلا والمسلمون هناك أقليات ضعيفة فالإسلام يحيط إذن بالقارة من غربها وشمالها وشرقها من مدينة داكار (غرباً) على ساحل السنغال حتى يبلغ مدينة (كليمان) فى موزمبيق البرتغالية . ويتسع عرضه تارة ويضيق تارة فى شـكل أشبه ما يكون بهلال يذكر الناظر إليـه على الخريطة برمز الإسلام .

(ج) مظاهر خاصة بالاسلام بين الزنوج

العقائد والشعائر والأخلاق : لمـا كان الإسـلام ديناً نبت بين البدويين والحضريين من سكان الجزيرة العربية لم يكن موضوعاً للجماعات الزراعية من الزنوج[1] . .

(١) اعترف المؤلف آ نفاً بأن « الإسلام دين فطرة سهل المتناول لا تعقيد فيه ، سهل التـكييف والتطبيق على مختلف الظروف » راجع ص ٧٩ من هذه الترجمة . (المراجع)

قال (مارتى) Marty وهو فرنسى وضع عدة مؤلفات عن المسلمين فى أفريقيا الفرنسية الغربية : « إن ثوب الإسلام على الرغم من بساطته وسهولته لم يكن مصنوعا على قد الزنوج فأعاد هؤلاء تفصيله على حسب قامتهم ، واتخذوا منه زياً يلائم مزاجهم » . وقد عمل على تحوير شكله عاملان : هما البيئة الزراعية ، والعقلية والوثنية .

ويقتضينا الإنصاف أن نقرر أن هناك بعض المثقفين الذين يقتنون مكتبات عربية تزخر بالمؤلفات الضخمة فى الشريعة الإسلامية . ولكن إلى جانب هؤلاء نجد كثيراً من المرابطين جهلة لا يعلمون من دينهم إلا الشيء اليسير ، ومع ذلك تتبعهم الجماهير ، وكل بضاعتهم منه شعاره العام ، فيقولون إننا مسلمون وينكرون ما عداه من الأديان ، وغالب الظن أن إسلامهم هذا يستر وراءه آثاراً قلت أو كثرت من وثنيتهم القديمة . ولما كان اعتناقهم له يسيراً سهلا لم يغير من أوضاع حياتهم الماضية ، فأحياناً يستمرون على هذه الأوضاع ؛ ولكن الغالب أن يحصل تمازج بين عقائد الإسلام والوثنية ، ويزداد الإسلام قوة شيئاً فشيئاً فى البيئات التى يتمكن فيها الدين أو يكثر فيها الدعاة إليه . وهكذا نرى مظهر الإسلام يختلف باختلاف الناس والبيئات . وقد رسم (مارتى) وغيره من الباحثين صورة للمسلم العادى فى إفريقيا الغربية الفرنسية قالوا ما مؤداه :

إن إعتقاد المسلم بالله يتمشى مع عقيدته الوثنية الأولى ، وهى أنه يوجد خالق أعظم للوجود ، ينعم بالقوى الحيوية على جميع مخلوقاته ، وخاصة مشايخ الطريقة التى ينتمى إليها وهم المرابطون . وأما محمد (النبى)

أو (أمادوا) أو (دودو) فليس فى ذهن المسلم الأفريقى صورة واضحة عنه، وإنما يعتبره صانعا للمعجزات يقوم بدور الآلهـــة الصغرى فى الوثنية، وهو الوساطة بين الله والناس . وقد حلت عقيدة الجن عند المسلم محل عقيدة الأرواح الخفية التى تعمر الأدغال ، كما أن اعتقاده بالأرواح الحامية لكل أسرة ، وبأرواح الموتى من الأسلاف الذين يرعون الأحيـــاء وتقام لهم بعض الشعائر ما زال باقياً على حاله . وأما فكرة الثواب والعقاب فى الآخرة فجديدة عليه . والاعتقاد بها أقل انتشاراً . والمسلم هناك يهتم اهتماماً شديداً بالشعوذة وبالشعائر الدينية الظاهرة وتحاشى الأطعمة المحرمة والنجاسات أكثر مما يهتم بالنيات والأفعال

ويحرص المسلم الأفريقى على أن يؤدى فروض الصلاة فى مظاهرها مع مراعاة الدقة فى تأديتها ، من استقبال وركوع وسجود ، ويرى أن صلاته لا تكون صحيحة إلا إذا انفتل عنها وفى جبهته أثر التراب من السجود . وهناك المساجد الجامعة ، وإلى جانبها زوايا من أكواخ القش أو مصليات صغيرة يحجزها عن الطريق إطار مربع من الحصباء . ويراعى المسلم تأدية فريضة الصوم بدقة تامة وخاصة فى أوائل شهر الصيام ، ولكنهم لا يمتنعون عن التدخين ولا عن مباشرة النساء . وتعطى الصدقة والزكاة لفقراء المرابطين ، ويحتفل المسلمون بكل أعيادهم احتفالا كله بهجة وتسلية . وأما الحج إلى مكة فنادر ، وقد تيسره الادارة الفرنسية عن طريق الباخرة أو الطائرة لمن يرغب من الأثرياء . ولا يزال بعض الفقراء يؤدى فريضة الحج سيراً على الأقدام ، ويحج الكثيرون إلى قبور

الصالحين ومزاراتهم فى نواحيهم كمزار (طوبة) لطائفة المريدين ، بينما تزور قبائل (الأولوف) مزار تيفوان . .

وقد بدل الإسلام مظاهر الحياة فى البقاع التى دخلها من أمد بعيد فنجد فى مدينتى (تمبكتو) و (جاو) مثلا الشوارع « ولو أنها ضيقة » والبيوت ذات السطوح العالية ، والأبواب الضخمة . وهى تشبه بعض الشىء مظاهر المدن فى شمال أفريقيا . أما بقية القرى فلم يتغير شكلها بل بقيت على وضعها القديم فالمساكن أكواخ من القش أو بيوت بدائية من الطين . ويتميز المسلم عن بقية الناس بلباس فضفاض «برنس» وبالعمامة أو القلنسوة . غير أن كثيراً منهم يمشـــون عراة الرءوس . وكذلك يراعى الناس تحريم لحم الخنزير ، على أن شرب الخمر فيه شىء من التهاون . .

ولم يؤثر الإسلام فى عادات المجتمع إلا تأثيراً طفيفاً . فالنساء غالباً غير محجبات فى بيوتهن ، وما زلن يتمتعن بحريتهن المطلقة كما كن قديماً والمرأة من قبيلة (الأولوف) شديدة الميل للتبرج والتعطر والتزين بالذهب . وهى تتغالى فى إبداء زينتها للناس مباهاة وافتخاراً . وتظن العامة أن التحلى بالذهب يساعد على نمو البقول الزيتية . وتقام مراسم الزواج وفقاً للعادات القديمة ، ولكن سن الختان خفضت عن ذى قبل أما مراسم الوفاة فتسير طبقاً للعادات الاسلامية . وتتغلغل الشريعة الإسلامية شيئاً فشيئاً فى المجتمع القبلى بفضل الأحكام الشرعية التى يصدرها رجال القضاء الإسلامى فى تلك البلاد . .

ويقتصر تعليم العربية فى تلك الإنحاء على مكاتب تحفيظ القرآن ، حيث يقضى الطفل شطراً كبيراً من حياته فى استظهار السور بلغة لا يفقهها ، وأما المدارس فيدرس بها منهج دينى أعلى من منهج الكتاتيب، وخريجوها أرقى مستوى . نعم أن هذا الطابع لا يخص أفريقيا السوداء ولكن عقبة اللغة تضاعف مصاعب التعليم فيها .

المرابط يؤدى دور الساحر والكاهن معاً :

من المعروف أن الدين الإسلامى دين ديمقراطى المبادىء ، ليس له كهنوت . غير أنه توجد (أولياء) وهم أقطاب يحف بهم تبجيل أتباعهم من الأتقياء المؤمنين فى شمال أفريقيا . أما فى إفريقيا السوداء فنجد من وراء كبار المرابطين المثقفين من مشايخ الطرق طائفة كبيرة من المتصوفة فى الدرجة الثانية ، جمهرتهم من الجهال ، ولكنهم فرضوا أنفسهم على الناس باسم الدين أو مزاولة السحر . ولهذا بقى السحر الوثنى القديم وعاش . .

ونافس هؤلاء الدجالون الكهنة المتطببين من الوثنيين فى صناعتهم ، وبأساليب تكاد لا تختلف عن أساليبهم . فهم يصنعون ويبيعون التعاويذ وهى تمائم (أحجبة) من الجلد بداخلها آيات قرآنية غالباً . وهم يستحضرون الجن بتلاوة العزائم . وكثيراً ما يتبادل هؤلاء مع غيرهم من أتباع الديانات الأخرى شتى الحيل والأساليب : فالمرابطون يقتبسون من الساحر تمائم من الحشرات والجعارين ، والسحرة يقتبسون من المرابطين تمائم من القرآن وتكهنات عن طريق ضرب الرمل . وبهذه

الوسائل انحدر الإسلام إلى الوثنية . وهكذا حل المرابط محل الكاهن والساحر . والعجيب أنه كلما تضاءلت الوثنية فى ناحية من النواحى أمعن المتصوف فى الادعاء بالإتيان بالخوارق ، وخاصة إذا كان فى بلده يمثل طريقة من الطرق يكون هو (خليفتها) ، فحينئذ يجمع فى يده سلطات روحية مختلفة : سلطة الرياسة ، وسلطة الأجداد ، وسلطة الشفعاء الروحيين . وهكذا حلت جماعات الطرق الدينية محل الجمعيات السرية الوثنية ، وأصبح شيخ الطريقة يتمتع فى نظرهم بالتقديس لأن الله أرسله هادياً . فدعواته وملامسته وريقه كل أولئك يوصل إلى الناس قوته الروحية وسره وبركته . وفى اعتقاد عامة الناس أن طاعتة والخضوع له وتقديم النذور إليه ضمان للنجاة من النار ؛ لأن القوى التى تكمن فى شخصه وفى مؤهلاته لا تنضب .

إلا أن كبار مشايخ الطرق القديمة وأفذاذ علمائهم المعروفين بالتضلع فى الدين الحنيف لا يقرون أمثال هذه الاعتقادات ، ولا يدعون لأنفسهم كرامات أو خوارق . وهم على فضلهم وسعة علمهم لا تعدو علاقتهم بمريديهم علاقة الأستاذ بطلبته . وتعتبرهم الخاصة المستنيرون مربين روحيين يوجهون النفوس ويبصرون الناس بأحوال القلوب . وقد عرف من بينهم أولياء حقيقيون . ولكن العامة تنظر إليهم نظر تقديس ، زعماً منهم أنهم حماة الناس فى الدنيا ، وشفعاؤهم عند الله فى الآخرة . وقد بلغ نفوذهم بين قبائل (الأولوف) فى السنغال أن حلوا محل أرباب الاقطاع فى النظام السياسى القديم لتلك القبائل .

الطرق الصوفية المحلية : هذا التبجيل والتقديس لمشايخ الطرق هو

الطابع الذى تتميز به طريقتان نشأتا فى أفريقيا السوداء ، وهما طريقة المريدين وطريقة الحمالين . ومؤسس الطريقة الأولى فى السنغال رجل يدعى (أمادوبامبا Bamba) من قبيلة الأولوف وأصله من (التوكواير). وكان من أتباع الشيخ (سيديه Sidiya) ، ورغم أن (أمادو) لم ينفصل انفصالا تاماً عن طريقة القادرية ، فقد حرص على أن يجعل طريقته مستقلة بذاتها عن القادرية . وقد اضطهدته الإدارة الفرنسية ونفته من البلاد عدة مرات ، لاشتغاله بالسياسة . غير أنه منذ عام ١٩١٢ قصر نشاطه على الأمور الدينية فقط . وعند وفاته فى سنة ١٩٢٧ كان عدد أنصاره قد بلغ قرابة ٤٠٠,٠٠٠ شخص يستوعبون أكثرية سكان منطقة (باول) ، ويتجاوزونها إلى بلاد (كايور Cayor) و (سالوم Saloum) . ولا يزال قبره يزار إلى اليوم فى مدينة (طوبة) . ولاتزال أسرته على رأس هذه الطريقة ..

والطريقة المريدية طريقة مبتكرة فى تعاليمها . وصفها مارتى بأنها « تعاليم إسلامية تتسم بعقلية قبيلة الأولوف » وشعار هذه الطائفة اتخاذ الزراعة عملا أساسياً ، واعتبارها أشرف الأعمال .... ولكى تحصل منها على أعظم قسط من الانتاج ، نظمت نفسها على أساس جماعى تعاونى ، لكل فرد منهم نصيب معين من العمل ، يقوم به تحت إشراف شيخ الطريقة من المرابطين ، دون أن يشغل الفرد نفسه بأى هم آخر . ولما كان المرابطون هم المسئولين عن الحياة المادية والروحية للجميع ، فقد أخذوا على عاتقهم ضمان الأمن العام ، كما أخذوا على أنفسهم تبعة أوزار الناس . والقاعدة فى هذا النظام الإقطاعى الشيوعى أن غلة

الأرض كلها ملك للشيخ ، وهو الرئيس الدينى ، وهو الذى يقسمها ، فيخصص جزءاً منها للعمال على قدر حاجاتهم ، ويرصد الباقى لأغراض الزراعة وللمصالح العامة ، من شراء أرض جديدة واستصلاحها ، إلى تأسيس المساجد والمدارس . غير أن هؤلاء الرؤساء الدينيين يتمتعون بشيء كثير من البذخ والترف ، بينما نجد الشعب فى حالة خضوع وبؤس شديد . ومن حسنات هذا النظام زيادة الرقعة المزروعة من الأرض زيادة عظيمة ، واستغلال التربة الصالحة استغلالا مستمراً بلغ حد الإرهاق أحياناً . وهنا نرى الناس فى أدنى حدود الإسلام ، بل أن كثيراً منهم خرج عن حدوده ؛ إذ يقدسون (أمادوبامبا) تقديساً يقرب من التأليه . .

وأما طريقة الحمالة فقد نشأت فى مدينة (نيورو) وهى من بلاد الساحل السودانى ، وتقع على بعد ٢٥٠ ك . م على الشمال الغربى من (باماكو) أسسها الشيخ (حما الله) وأصله من مسلمى البربر ، وكان على جانب عظيم من الذكاء . بدأ دعوته بنفسه فلزم التعبد والتنسك ، وكانت تعتريه حالات من الجذب والغيبوبة الروحية . وقد التف حوله جماعة من غلاة الأنصار ، ظل عددها يتزايد يوماً بعد يوم . ويقطن تلك البقعة الفقيرة من الأرض جماعة من حاملى السلاح ، كانت صناعتهم فى الماضى اقتناص الرقيق . ولما بارت تلك التجارة تحولوا إلى التناحر والتقاتل فيما بينهم . وكان تأسيس هذه الطريقة إيذاناً بنشوب النزاع والشغب بين أتباع الطرق المختلفة ؛ إذ باغت الحمالون سكان البلاد المجاورة لهم عام ١٩٤٠ وأمعنوا فيهم تقتيلا حتى لم يفلت منهم طفل

رضيع ، بل أحرقوا المصاحف ، فألقت الإدارة الفرنسية القبض على الشيخ ونفته إلى فرنسا وتوفى فى المنفى عام ١٩٤٢ ولم يخلفه أحد على المشيخة ، ولكن طريقته لم تتوقف عن الانتشار رغم ما طرأ عليها من تحريف قليل . ومن أصول تلك الطريقة أن يذكر اسم الله إحدى عشرة مرة فقط على المسبحة . ولذلك يفصل كثير من أتباعها الإحدى عشرة حبة الأولى بكرة من الزجاج . ومن هنا اشتهر الحمالون باسم (الإحدى عشرة حبة) .

وهم يصلون صلاة القصر وهى رخصة قاصرة فى التعاليم الإسلامية على حالة الحرب أو الخطر أو السفر . وقد دأب أتباع هذه الطريقة على وسم جباههم وأيديهم وأظافرهم بالوشم الذى كان يسم به الشيخ ماشيته . ويتغنون فى أذكارهم ويرفعون بها عقيرتهم فى جلبة ، وترميهم الطرق الأخرى بأنهم يستحلون الحرمات عقب حفلات الذكر . وهنا نجد الإسلام يتضاءل إلى أدنى حدوده ، إذ نجد الحمالة يؤدون صلاتهم متجهين إلى مدينة (نيورو) لا إلى مكة كسائر المسلمين . وهم يغرقون فى تقديس الشيخ (حما الله) إلى حد الإلحاد ، حتى أن أحدهم وهو (يعقوب سلا Sylla) كتب يقول : « إننا لسنا بحاجة لا إلى الله ولا إلى رسوله ، وحسبنا شيخنا حما الله » وهم يناصبون العداء جميع المذاهب الاسلامية الأخرى ، بله المسيحية . وحدث عام ١٩٤١ أن اغتال بعض أتباع هذه الطريقة جماعة من الفرنسيين فى مدينة (بوبو ديولاسو) دون سبب ظاهر إلا أن يكون سبيلا لدخول الجنة فى زعمهم ، وقبضت الحكومة على المجرمين وأعدمتهم ، فقضت بذلك

على هذه الطائفة من السفاكين . إلا أن أمثال هذه المذابح والاغتيالات المتكررة تدل على أن هناك خطراً كامناً يهدد بالانفجار فى أى لحظة بسبب تلك المبادىء الهدامة التى لا تمت للإسلام بصلة .

المجتمعات المختلطة من الاسلام والوثنية :

درس بعض المختصين فى علم أصول الأجناس كيفية إختلاط الإسلام بالعقائد الوثنية والأوضاع الناشئة من تجاورهما ، فاستطاع عالمان فرنسيان هما (بالانديه Balandier) و (مرسيه Mercier) . بعد دراسة عقائد (ليبو) وهى قبائل تعيش من صيد البحر قريباً من (داكار) ، حديثة العهد بالإسلام ، إذ لم تعتنقه إلا عام ١٩٠٠ — استطاعا أن يكشفا عن إنقسام دينى عجيب فى تلك القبيلة ، فالرجال مسلمون ، والنساء وثنيات . والرجال يتعصبون للاسلام تعصباً شديداً ويتذرعون بهـــذا التعصب ليستروا به تفاهة ما يعلمونه عن دينهم ، وأما النساء فيقدسن الأرواح التى تعمر مختلف الأماكن ففى مدينة (روفسك) يعبدن آلهة القطط أو أم القطط ، وفى حى (بونيول) Bounioul بمدينة دكار يقطن الإله (ندك Ndak) ، وهو الإله الراعى للمدينة . وأما الأحياء الأخرى فيهافيرعى كلا منها أحد أبنائه . ومازال المحاريب المنزلية والمحاريب العامة قائمة ، تمثلها أوعية منصوبة فى فناء الدار ، حيث تقدم لها النساء القرابين من الحيوان والشراب . وتتزعم إمرأة شعائر العبادة الجماعية وخاصة عند نحر القرابين السنوية إسترضاء لآله البحر ، لكى تجعل رزقهم من الصيد وفيراً . وكذلك تتزعم المرأة حلقات الزار . .

وينتشر الاعتقاد بالسحر والعمل به بين الجنسين على السواء، فالنساء تحمل التعاويذ لتجنب الحمل أو لاتقاء الجنون ، والصيادون يعلقون فى شباكهم تعاويذ من جذور نبـــات أو قرون حيوان حتى يصيدوا صيداً كثيراً . وأصبح الساحر المغربى يستعمل أساليب السحر الوثنى القديم . ولايزال يخشى الناس هناك أذى السحرة القدماء المعروفين ويزعمون أنهم يستطيعون التحول إلى أشباح مخيفة أو إلى هواء أو حيوان أو حجر، وأنهم ينهشون لحوم الموتى . ويخشون إلى جانب ذلك الشيطان الذى يوسوس فى صدور الناس ويسلبهم عقولهم وهو الذى حذر منه الاسلام .

وما تزال رقصة المطر ، بما فيها من تهوس وتخبط ، تقام بكامل صورها الوثنية بين قبيلتى (جرمة) و (السنرهاى) رغم اعتناقهما الاسلام وقد شاهدها (روش) وسجلها على شريط الصور المتحركة وهم يستهوون آلهة المطر بأنغام الموسيقى ، ويزعمون أن تلك الآلهة تحل فى أجساد نسوة بعينهن حين يرقصن فيصيبهن ضرب من الصرع والغيبوبة والهذيان أثناء الرقص . وعندئذ يجىء رجل يمثل السماء ، ومعه ماء به بعض العشب المقدس ، فيصبه فى حفرة من الأرض ثم يضحى بدجاجة أو بكبش .

ويتضح مما سبق أن كثيراً من العادات الوثنية ما تزال تمارس بين تلك القبائل . أما حالات الجذب والصرع فيرجح إنها وردت من الشرق (كذا) ــ جنوب بلاد العرب أو السودان ــ . وأعجب من هذا

ظهور إله جديد فى عام ١٩٢٧ يسمى (حوكة) Haouka زعم أحدهم أنه جلب تعاليمه عند ماكان بمكة ، وهو إله عنيف يمثل القوه الوحشية ، وقد اقترن ظهوره فى تلك الأرجاء بحركات العنف والتحريق والتخريب والقتل حتى اضطرت الإدارة الحاكمة إلى تعقب أتباعه والقبض عليهم ، ففرت بقـــاياهم إلى ساحل الذهب حيث توارت هناك . .

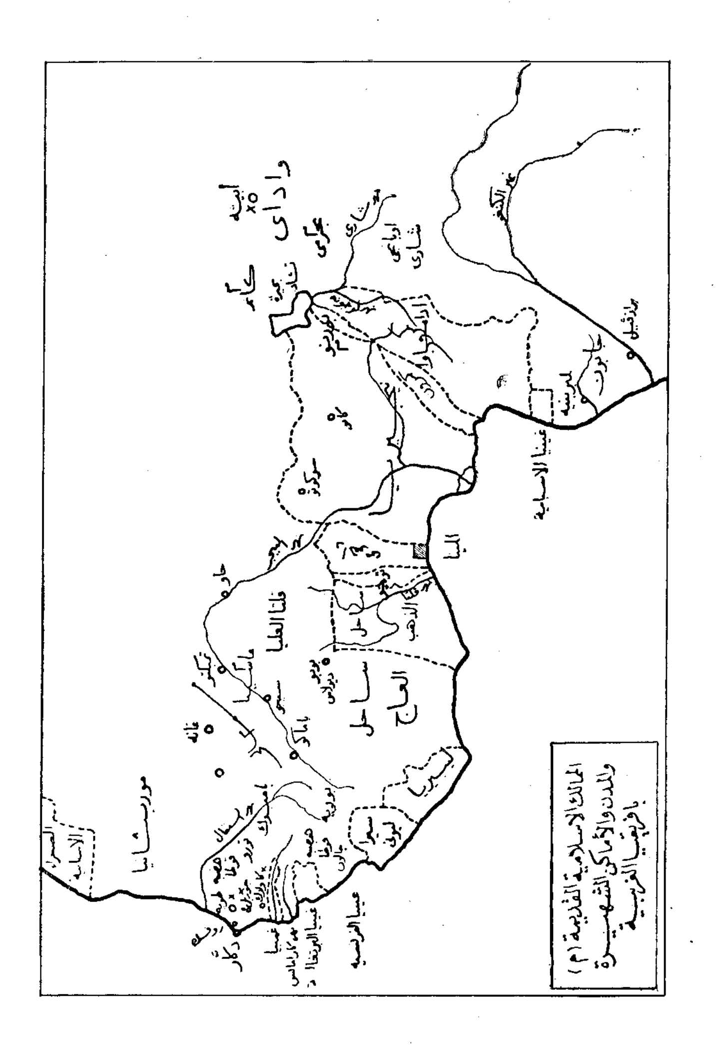
نهضة الإســـلام :

إذا كان الإسلام فى أفريقيا السوداء يبدو فى طابع غريب لا يمت إلى أصوله السليمة بسبب هو دخيل عليه لمخالطته للوثنية ، أو لمسايرته لطبيعة التفـكير الخاصة بالعقلية الزنجية ، أو لتأثره بالتيارات الحديثة الطارئة عليه ، فان الاسلام على رغم ذلك يسير بخطا سريعة نحو نهضة دينية واجتماعية عظيمة . فمن جهة نراه أخذ فى الاتساع بهيئة ملحوظة بين قبائل وثنية دأبت على مقاومته زمناً طويلا ، مثل قبيلة (موسى) وقبائل أخرى فى جنوب مستعمرة نيجيريا . ومن جهة أخرى نشاهد فى بلاد السنغال وغينيا وهى بلاد إسلامية ، اتجاهاً من الطرق الدينية إلى إقتباس النظام الاشتراكى الزراعى السائد بين طائفة المريدين . .

ولـكن أبرز تلك المظاهر وأقواها ذلك النشاط العظيم الذى دب فى أوصال العالم الإسلامى ، وحركة التجديد التى سرت فى كيانه . فقد هب رجاله وعلماؤه ونادوا بوجوب تطهير الدين من الشوائب والبدع الدخيلة عليه . وقد بدأت تلك الحركة فى سوريا والبلاد العربية الأخرى

وقامت مصر بنشرها وإذاعتها ، فوصل صداها إلى أقاصى أرجاء السودان ، ونبه شعوبها العريقة فى الاسلام فأيقظ فيها الوعى الدينى ، وخاصة حيث توجد الطبقات المستنيرة من المسلمين . وقصدت أفواج من طلبة (نيجيريا) ومستعمرة (نيجر) إلى الجامع الأزهر فى مصر ، فتعلموا اللغة العربية ولقنوها أبناءهم ، فأصبحت لغة التخاطب بينهم . واشتدت أواصر الصلات بين منطقة تشاد وبين مصر وشرق السودان الفرنسى ، وأسست مدرسة دينية فى مدينة (أبشر) فى (واداى) وقد تحولت اليوم إلى كلية إسلامية .

وسارت حركة الإصلاح الإسلامى جنباً إلى جنب مع إنتشار اللغة العربية ببلاد السودان ، بفضل سهولة المواصلات ، وأساليب الدعاية التى تتبعها الدول الشرقية . وكان من نتائج ذيوعها وتأثيرها ذلك الاقتراح الذى تقدمت به الجمعية الوطنية فى السنغال ، وطلبت فيه أن تكون اللغة العربية لغة اجبارية فى برامج الدراسة . ولا شك إن هذه ظاهرة خطيرة ، تدل على مدى إنتعاش الحركة التقدمية للاسلام بين الشعوب الزنجية ، وتنبيء بما سيكون لها من أثار بعيدة المدى فى الخطط المرسومة لحكم المستعمرات خاصة والسياسة الدولية عامة ..



الممالك الاسلامية القديمة (م) والمدن والأماكن الشهيرة بافريقيا الغربية

الفصل الثانى

المســـيحية
وحركات التنبؤ

(ا) كيف دخلت المسيحية أفريقيا ؟

قبل عام ١٨٠٠ دخل الدين المسيحى شمال أفريقيا فى نهاية الإمبراطورية الرومانية ، إلا أنه لم يتوغل فى داخلية بلاد الزنوج ، لأن غزو المسلمين لتلك البقاع الشمالية وحلول الإسلام فيها محل المسيحية ، حال دون ذلك التغلغل . وكانت هناك مملكة قبطية فى بلاد النوبه (شمال السودان) تسمى مملكة (مروى) Méroé ظلت على المسيحية حتى عام ١٥٠٤ ولكن قضت عليها فى ذلك التاريخ قبائل الفونج الوثنية .

حوالى ذلك التاريخ كان البرتغاليون قد أتموا استكشاف سواحل أفريقيا ، وأسسوا فرضة سموها (المينا) أى المنجم (منجم الذهب) وهو الساحل المعروف اليوم باسم (ساحل الذهب) ، كما أسسوا مراكز للتبشير فيها ، وفى مصب نهر الكنغو . وفى عام ١٤٩١ اعتنق ملك الكنغو الدين المسيحى ، وخلفه على العرش ابنه الذى عمّد باسم

(ألفونسو) وقد رسم أحد أبناء ألفونسو هذا أسقفاً . وتغير اسم العاصمة القديمة من (بانزا كونغو) Mbanza Congo إلى اسم (سان سلفادور) ورسم عدد من أهالى البلاد قساوسة لها . ولكن تلك الجهود كلها قضى عليها اضطراب الأحوال السياسية ، والثورات ، والجيوش التى كان يستعين بها تجار الرقيق فى أغراضهم ، وارتداد الكثيرين إلى عقائدهم الوثنية القديمة . ولم يبق من كل ذلك إلا علامة الصليب التى اندمجت فى المراسيم الوثنية ، والتى وجدت آثارها بعد ذلك بقرنين من الزمان ، فكانت دليلا على أن المسيحية مرت بتلك الأصقاع . وفى سنة ١٦١٠ أسس البرتغاليون أسقفية مسيحية فى (لواندا) Loanda بمستعمرة أنجولا ولكنهم لم ينجحوا فى نشر المسيحية فى داخلية البلاد .

وأما على الساحل الشرقى لأفريقيا فقد حالت دون نشر المسيحية هناك منافسة الإسلام لها واحتكار المسلمين للتجارة . إلا أن الملك (مونوموتابا) Monomotapa اعتنق المسيحية فى ١٥٦١ واستقر الآباء اليسوعيون والدومنيكان فى حوض نهر زامبيزى . وفى عام ١٦٣٠ اعتنق زعيم (مومباسا) Mombaz المسيحية ثم رجع عنها واعتنق الإسلام . ولم يبق فى أوائل القرن الثامن عشر من الذين اعتنقوا المسيحية إلا نفر قليل .

ثم دخل الإسبان ميدان التبشير ، فأرسلوا عدة بعثات تبشيرية ، ودعا الملك (الادا) Allada ملك (داهومى) إحدى هذه البعثات ، بفكرة تكوين علاقات تجارية . ولكنه لما رأى أن غرض البعثة هو التبشير بالمسيحية ، طردها من بلاده .

وقد لحقت هـذه الخيبة بالفرنسيين أيضاً عند ما دعوا (أنيابا) Aniaba ابن أمير ساحل العاج إلى مدينة فرسايل ، وعمّـده القس المشهور (بوسيويه) Bossuet وجعـل الملك لويس الرابع عشر أباه الروحى ، فإن هذا الأمير ما كاد يعود إلى بلاده حتى ارتد عن المسيحية ، وعاد إلى الوثنية دين آبائه .

وقام الفرنسيون كذلك بجهود تبشيرية فى (جوال) Joal و (سان لويس) Saint louis و (جوريه) Gorée إلا أن الحروب فى القارة الأوروبية قضت على كل هذه المحاولات . ولم يبق منها إلا نواة صغيرة من الكاثوليك فى مدينة (سان لويس) .

وأما البروتستنت الهولنديون فبعد أن دمروا كثيراً من مؤسسات البرتغال على جميع الساحل الإفريقى ، وخاصة فى فرضة (المينا) ، استعمروا رأس الرجاء الصالح . وفى سنة ١٦٦٥ نزل إلى هذه المستعمرة أول قسيس بروتستنتى . وفى نهاية القرن الثامن عشر كان تعداد المسيحيين عشرين ألفاً من البيض ، وبضع مئات من العبيد . وحاول الألمـان من جانبهم أن ينشروا المسيحية بين (الهوتنتوت) ولـكنهم فشلوا فى ذلك .

وفى بداية القرن التاسع عشر لم يـكن للمسيحية قدم ثابتة فى مكان ما من أفريقيا السوداء ، إذا استثنينا نقطاً ضئيلة على الساحل ، يدل على ذلك ما كتبه المبشر الإنجليزى (وليم شو) W. Show عام ١٨٢٣ من مستعمرة الرأس .. قال : (أنه لا يوجد أى بعثة

تبشيرية مسيحية فيما بين المكان الذى أعيش فيه و بين أبعد نقطة فى شمال البحر الأحمر) .

بعد عام ١٨٠٠ فى أفريقيا الجنوبية :

واستمرت الحال كذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر عندما توغلت حركة الكشف فى قلب أفريقيا وكثرت بها البعوث الدينية التبشيرية ، ثم تبعهما الاستعمار الذى يسر عمل المبشرين ، فكان هذا القرن هو العصر الذهبي للتبشير فى أفريقيا . ولم يحل القرن العشرون إلا والمسيحية منتشرة بشتى مذاهبها والكنائس قائمة ، والأمن مستتب فى تلك الأقطار

ففى أفريقيا الجنوبية صارت الأكثرية للهولندين البروتستنت بسبب هجرة البيض إلى تلك البقاع ، وتوغل البوير فى داخلية البلاد إلا أن هؤلاء لم يهتموا بالتبشير ، وإنما اهتموا بشئونهم الدينية الخاصة ، ولم تخطر لهم فكرة نشر المسيحية بين قبائل الزنوج إلا بعد مرور فترة طويلة من الزمن .

وكان أول من اقتحم باب التبشير مبشران اسكوتلانديان وهما (موفات R. Moffat) و (ليفنجستون Livingstone) . وبلغت الجرأة بالمبشر (روبرت موفات) أن أسس مركزاً للتبشير بين قبائل بتشوانا وأن يقيم بين أظهرهم على بعد مئات الأميال عن وطن الرجل الأبيض فى مستعمرة الرأس، فاستخف به هؤلاء فى بادىء الأمر ، ولكنهم لما رأوه أنضم إليهم فى الدفاع عن بلادهم ، ونجح فى صد بعض الغزاة من القبائل الأخرى عنهم وكان سبباً فى انتصارهم دخلوا المسيحية واعتنقوها

أفواجاً . أما دافيد ليفنجستون وهو زوج إبنة (موفات) فقد استطاع أن ينصر أحد ملوك (بتشوانا) واسمه (سيشيله Séchélé) حتى جعله يطرد حريمه ، ويتنازل عن دعوى قدرته الالهية فى إسقاط الأمطار . والعجيب أن تعقب ذلك الحادث حقبة من الجفاف استمرت أربع سنوات ، فرحل (لفنجستون) متجها صوب الشمال المجهول ، فاستكشف نهر زامبيزى وكان (لفنجستون) مبشراً ومستكشفاً وطبيباً . جاهد منذ ١٨٤١ فى كشف المجهول من أفريقيا ، ورفع النقاب عنه . وهو أول من رفع صوته ضد تجارة الرقيق الشائنة . وكان لاستقامته وإخلاصه فى خدمة الزنوج أكبر الأثر فى نفوسهم . وقد عاب عليه الكثيرون تقشفه وتضحياته العظيمة ، فرد عليهم بأنه لا يرى فى ذاك عيباً ، وإنما يرى فيه أرفع ما يتحلى به المرء . وكان يقول : « لقد كان للرب ابن وحيد لم يعرف حرفة غير التبشير والطب » . ولما أنهكه الضعف رفض أن يعود إلى أوروبا التى طبقت شهرته أنحاءها وفى فجر أول مايو سنة١٨٧٣ دخل أتباعه من الزنوج إلى مخيمه ، بالقرب من (بنجويلو Banguélo) فوجدوه ميتاً وهو فى وضع الصلاة ؛ فنزعوا قلبه ودفنوه فى الأرض الأفريقية التى أحبها وأخلص لأهلها ، ثم نقلوا رفاته إلى الساحل ، فأظهروا بذلك مدى حبهم وتعلقهم به .

وتلا ذلك تدفق البعثات إلى داخلية البلاد . فنزل (المثودست Methodistes) فى (الكاب) و (الناتال) و (الترنسفال) حتى مستعمرة (روديسيا) ، وأسس (البرزبتيريان Presbytériens) كلية (لوفديل Lovedale) لتخريج المبشرين والمعلمين ، وانتشر

(الانجيليكان Angelicans) فى المدن وفى الغابات ، وتجنبوا أن يهدم تبشيرهم أى نظام قديم كان للقبائل ، حتى غلا أحد مبشريهم وهو (كولينسو Colenso) فى احترامه لتقاليد قبائل كافريه Cafrés لدرجة أنه أباح تعدد الزوجات ، (فشلحته) الكنيسة لهذا السبب .

واشتركت فى هذا السباق بعوث أمريكية بين قبائل (الزولو) وبعوث سويسرية فى (الترنسفال) كما وجه الألمان جهودهم إلى التبشير فى الجنوب الغربى لأفريقيا .

ونجحت البعثة الايفانجيلية الفرنسية فى اتصالها « بموشه » Mosheh أحد زعماء قبيلة (الباسوتو) حتى أنه دعاهم إليه لحمايته من غزو البوير . كما أسس (فرنسوا كولار F. Coillard) مركزاً جديداً للتبشير فى روديسيا الشمالية ، بين قبائل (باروتسى) وكان هو وزملاؤه من الذين انضموا إلى الرعيل الأول بتلك الجهات .

واستقر الكاثوليك فى مستعمرة الرأس ، والناتال ، و (باسوتولند) ومستعمرة أورانج . كما استقر (الآباء البيض Péres Blancs) فى روديسيا و (نياسالاند) حيث وجدوا المبشرين البروتستنت قد سبقوهم إليها فى أعقاب (لفنجستون) ، ثم عادت البعوث الدينية البرتغالية إلى نشر الدين المسيحى فى مستعمرة أنجولا وموزامبيق بالاشتراك مع بعوث أخرى .

ويدل إحصاء عام ١٩٥٣ عن توزيع المذاهب المسيحية بين الزنوج والملونين فى اتحاد جنوب أفريقيا على أن الغالبية لمذهب (الميثوديست)

٢٫١٠٠٫٠٠٠ نسمة ، ويليهم الانجليكان ٨٠٠٫٠٠٠ نسمة ، ثم الكاثوليك ٦٥٠٫٠٠٠ نسمة ، ثم البروتستنت الهولنديون ٦٠٠٫٠٠٠ نسمة ، ومذاهب أخرى ٦٠٠٫٠٠٠ نسمة . والأكثرية العددية فى روديسيا الشمالية للكاثوليك . على أن المسيحيين يمثلون فيها أقلية بالنسبة لمجموع السكان ، بينما يمثلون الغالبية فى عدد من ولايات الاتحاد.

وترجع سرعة انتشار المسيحية فى أفريقيا الجنوبية إلى عوامل عدة ، منها وجود جالية كبيرة من البيض المسيحيين المتدينين ، أثرت فى السكان الزنوج المجاورين لها ؛ ثم انحلال النظم القبلية بسبب خضوع القبائل للمستعمرين ، واستخدام عدد كبير من العمال الزنوج ، وتأسيس المدن الكبيرة . وقد بلغت دعوة المبشرين أسماع سكان الأدغال حتى أن (موشة) طلب منها تعليم شعبه . وأصبحت هذه المناطق مجالا للتنافس الشديد بين البعثات التبشيرية .

وقد كافح رجال البعوث الدينية تجارة الرقيق ، وعادة تعدد الزوجات، كما نشروا التعليم ، بفضل ترجمتهم الكتاب المقدس إلى لغات تلك القبائل. وهكذا استطاع زعماء القبائل ومنهم زعيم قبيلة (بامانجواتو) المسمى (خاما Khama) أن يفرضوا المسيحية على قبائلهم دون أن يغيروا شيئاً من النظام القبلى القديم .

وتسود العنصرية المتطرفة كنائس المسيحيين الهولنديين ، إذ أن للبيض منهم كنائس يحظر على الملونين دخولها ، أما المبشرين المثوديست

والانجليكان والكاثوليك فلا يقرون فكرة العنصرية ؛ ولذلك وجدت مذاهبهم رواجاً عظيما بين الزنوج . وقد كان هذا التعصب العنصرى سبباً فى أن الزنوج أسسوا كنائس خاصة بهم مستقلة عن سائر الكنائس. وسنوضح هذه الظاهرة فى موضعها من هذا الكتاب .

التبشير فى شرق أفريقيا ، وأفريقيا الاستوائية

كان من أثر استرداد العرب لشرق أفريقيا ، بعد أن طردهم منها البرتغاليون ، أن نشط الإسلام وثبتت أصوله فى تلك الجهات ؛ إلا أن انجلترا بعد أن سيطرت على زنجبار سمحت فى سنة ١٨٠٠ لأحد المبشرين الألمان وهو (كرابف Krapf) بأن يؤسس فرعا (لجمعية التبشير الكنائسى) فى مدينة (ممباسا) فما أن استقر حتى ترجم الكتاب المقدس إلى اللغة السواحيلية ثم توغل فى الداخل ، وبمعاونة زميله (ربمان Rebmann) اكتشف جبل (كليمانجارو) . وفى عام ١٨٦٠ أسس أسقف جزاير الاتحاد بعثة كاثوليكية للتبشير فى مدينة (بوجامايو Bogomayo) على الساحل المواجه لجزيرة زنجبار ، ولكن جميع هذه الجهود لزمت الساحل ، ولم تستطع التوغل فى الداخل بسبب وجودها فى محيط إسلامى قوى . فلم يدخل المسيحية إلا عدد قليل .

غير أن اكتشاف منطقة البحيرات العظمى من منابع النيل (التى اشترك فى اكتشافها لنفجستون وستانلى وسبيك) وما تبع ذلك من استعمار تلك الجهات وتقسيمها ، يسر للبعوث التبشيرية النفاذ إلى داخلية البلاد . وبعد سنة ١٨٨٠ استقر المبشرون الألمان فى تانجانيقا ، والانجليز فى كينيا .

وفى أوغندا بوجه أخص أتت جهود المبشرين بأعظم النتائج فى أقصر زمن . ففى عام ١٨٧٤ قابل ستانلى (متيسا Mtesa) ملك تلك الجهة ، وكان هذا متردداً فى اعتناق الإسلام فعرض عليه اعتناق المسيحية . وفى عام ١٨٧٦ بدأت البعوث للتبشيرية للبروتستنت . وفى عام ١٨٧٨ بدأت بعوث الكاثوليك أن تفد إلى بلاده ، فلما رأى انقسامها وتنافسها فضل ألا يعتنق دينا ، ومات على وثنيته . وخلفه على الملك ابنه (موانجا Mouanga)فاضطهد المسيحيين (أو القراء كما كانوا يسمونهم) ، وأغلبهم من الشباب ، وأمر بقتل بعض حشمه من الشبان حرقا ، لاعتناقهم المسيحية . وانتهز المسلمون تلك الفرصة ، وحاولوا أن ينشروا الإسلام بالقوة فى تلك البلاد ، ففر (موانجا) ثم عاد إلى عرشه بحماية المسيحيين . وكان ازدياد اتباع هذين المذهبين سبباً فى قيام مشاغبات بينهما لم تطل مدتها بل انتهت باعتناق غالبية قبائل (باجاندا) للمسيحية ، مع أغلبية طفيفة للمذهب الكاثوليكى .

ويرجع الفضل فى انتشار المسيحية فى (أوغندة) إلى جهود (الآباء البيض) وهم فى الغالب من أصل فرنسى ، كما امتد نشاطهم حتى شملت المسيحية غالبية سكان منطقة (رواندا أوروندى Rouanda Ouroundi) وكذلك شرق الكنغو البلجيكية . وأما فى بقية الكنغو البلجيكية فقد أرسل إليها الملك (ليوبولد) الثانى بعثات تبشيرية بلجيكية أشهرها بعثة (الآباء شنت P. Schent) مع بعوث أخرى انضمت إليها . كما أرسل البروتستنت الانجليز والأمريكيون ببعوث مماثلة . وقد وكات الحكومة

البلجيكية أمر التعليم إلى المبشرين . ويقدر المسيحيون هناك فى الوقت الحاضر بما يقرب من ثلث سكان الكنغو .

وأما فى الكنغو الفرنسية فإن جماعة (آباء الروح المقدس) استقرت فيها منذ عهد طويل ، ومن بين هؤلاء الآب (أجوار Augouard) الذى كان قبلا فى (جابون) ثم جاء إلى الكنغو عند ما نزل بها (برازا Brazza) و (أجوار) هذا مبشر ومعمدان ، ورحالة ، أطلق عليه اسم (مطران أكلة لحوم البشر) وقد دأب على ارتياد مجرى نهر الكنغو ومستنقعاته وغاباته الكثيفة المجهولة بنشاط لا يكل ولا يفتر . ومن الطرائف أنه عند ما قابل البابا (ليون الثالث عشر) داعبه هذا فى حديثه قائلا : « هل تأكل رعاياك هناك لحوم الآدميين ؟ » فأجابه أجوار : « نعم يا سيدى إنهم يأكلونه كل يوم » فقال البابا : « عجباً إنه لم يرد قط فى سير الشهداء من القديسين من استشهد مأكولا ! » فأجابه « سأجعل نفسى القدوة يا سيدى فى هذا النوع الطريف من الاستشهاد » ورد البابا قائلا : « بربك لا تفعل ! فقد لا تتبقى فضلة من جسدك نضمها إلى التراث المقدس » . وقد بلغ التحمس بأحد المبشرين فى كفاحه لعادة تعدد الزوجات أن يتزوج الفتيات (زواجاً صورياً) ليزوجهن بالتالى إلى أتباعه من الكاثوليك .

ولعل أعظم من اشتهر من المبشرين الفرنسيين الإنجيليين فى جابون هو الدكتور شفايتزر Dr. Shweitzer (وهو الذى كرمته ملكة انجلترا ونال جائزة نوبل للسلام عام ١٩٥٤) ، هذا الطبيب

الفذ موسيقى بارع ، وفيلسوف حكيم ، اعتزل العالم فى قرية (لامبارينيه Lambaréné) فى (جابون) ، وأسس بها مستشفى لمعالجة السكان هناك . وكان مثلا حياً للبعثة التبشيرية الفرنسية . وأقامت فى الكامرون بعوث كاثوليكية وبروتستنتية من الألمان ، وانتشر مذهب الكاثوليك والبروتستنت بين السكان فى جنوب كامرون ، وأصبحت الغالبية هناك مسيحية ، وكذلك قامت البعوث الإنجليزية (البروتستنتينية) والإيطالية (الكاثوليكية) بنشر المسيحية بمذهبيها بين سكان أعالى النيل فى السودان .

غرب أفريقيا الفرنسية :

قامت فى أول الأمر عدة عوامل حالت دون نشر المسيحية فى ساحل غينيا . فوعورة الساحل ، والغابات الكثيفة ، وحمى الملاريا ، والحمى الصفراء ، وتشتت السكان ، وعدم اهتمامهم بالدين الجديد ، كانت أسباباً فى فشل الجهود التى بذلت ، وقضت على كثير من مراكز التبشير بتلك الجهة . ولكن استعمارها فى نهاية القرن الماضى يسر للبعوث التبشيرية شيئاً من الاستقرار . وفى القرن العشرين بوجه خاص جنت تلك البعوث التبشيرية ثمرة جهودها الشاقة وصبرها الطويل .

وفى عام ١٨١٥ عقب تحريم تجارة الرقيق ، نزلت بعوث تبشيرية بروتستنتية إلى ناحيتين على الساحل ، كان قد نزل إليهما عبيد يتكلمون الإنجليزية ويعتنقون المسيحية إلى حد ما . أولاهما منطقة (ليبيريا) نزل بها قساوسة زنوج من الميثوديست ، والأخرى (سيراليون) التى

نزل بها مبشرون لجمعية التبشير الكنسى ، ومبشرون من الوزليين Wesleyens وقد أصبحت (سيراليون) مركزاً للبعوث التبشيرية إلى الشرق . ونزلت البعثة السويسرية من (بال) إلى (ساحل الذهب) وتمكنت من نشر المسيحية بين قبائل (فانتى Fanti) بفضل مثابرة رئيسها (أندريا رايس Andreas Riis) ، ولكنها وجدت صعوبات بين قبائل (أشانتى) ، بسبب عنادها واحتجازها لقسين من البعثة . وعند ما خضعت تلك الجهات أصبح نجاح البعثات ميسوراً . وكان المثوديست من أسبق البعثات أيضاً هناك . واشتهر من قساوسة الزنوج الدكتور (أجرى) Dr. Aggrey وهو شخصية فذة أشرنا إليها فى كتاب آخر [1]

ثم أسست كنيسة مستقلة محلية ، خاصة بالزنوج ، تسمى (كنيسة البريسبيتريان فى ساحل العاج) ، ولكن التقارير عنها متحفظة جداً .

وفى عام ١٨٤٤ أسس اثنان من المبشرين أحدهما من البيض هو تونزند Townsend والآخر زنجى من (بوروبا) هو (كروثر Crowther) فرعاً لجمعية التبشير الكنسية فى (أبيوكوتا Abéo Kouta). وبدأ بذلك نشر المسيحية فى نيجيريا بفضل صلة القربى التى تربط (كروثر) بقبيلة (اليوروبا) ، وبسبب معرفته بلهجات القبائل فى تلك الجهات . وفى ١٨٥٤ رسم (كروثر) مطراناً وظل فى وظيفته حتى توفى فى عام ١٨٩١ . واقترح بعض القساوسة الوطنيين أن يعمدوا الناس جماعات بدلا من تعميدهم أفراداً . وعملت عدة بعثات لنشر المسيحية على ساحل جنوب نيجيريا ، كما عملت بعثات أخرى فى شمالها .

(١) كتاب (تنبه الوعى السياسى فى أفريقيا)

وفى مستعمرة (توجو Togo) كانت تعمل بعثة (بريم Bréme) الألمانية إلا أنها اضطرت لمغادرة البلاد عام ١٩١٩ بعد أن احتلتها القوات الفرنسية والإنجليزية فى الحرب العالمية الأولى ، وتركوا وراءهم كنيسة مستقلة لقبيلة (إيفا) أظهرت نشاطاً ملحوظاً ، ولكنها لم تحاول نشر المسيحية بين القبائل الأخرى . واشترك عدة مبشرين من الإنجليز والأمريكيين بشىء من النشاط فى المنطقة الفرنسية بالاشتراك مع البعثة الفرنسية . وقد استطاع هؤلاء البروتستنت فى (ساحل العاج) الإفادة من جهود (هاريس) المبشر وأكلوها لقمة سائغة . وسنتحدث عن هاريس هذا فيما بعد .

وقام بالتبشير بالمذهب الكاثوليكى ثلاث هيئات هى (آباء روح القدس) فى الغرب و (بعثات ليون) على ساحل غينيا و (الآباء البيض) فى مناطق السودان .

وكان لجماعة (آباء روح القدس) مراكز فى السنغال منذ القرن الثامن عشر . وفى القرن التاسع عشر اندمجت فيها جماعة أخرى كان قد أسسها (الأب ليبرمان P. Libermann) وأثر عنه قوله عن الزنوج : « هؤلاء الناس يقترفون المعاصى أكثر من غيرهم لأنهم أكثر بؤساً وشقاء . ولا بد لنا من أن نجعلهم يشعرون بجمال الحرية والمساواة التى ينعمون بها مع جميع عباد الله » ، وكانت تلك الجمعية هى السبب فى نشر المسيحية فى غينيا السفلى وجنوب السنغال والمناطق المجاورة .

وأسس المنسنيور (برزياك M. Brésillac) جمعية (ليون)

التبشيرية الأفريقية عام ١٨٥٦ وكان هو أول مبعوثيها . نزل إلى مدينة (فريتون) فى ١٨٥٩ ، ولكنه مات بمرض الحمى الصفراء بعد ثلاثة شهور وخلفه (الأب بلانك P. Planque) الذى وجه همه إلى إرسال البعوث المتوالية فى مدى نصف قرن إلى ساحل غينيا دون أن يفارق وطنه . وفى سنة ١٨٦١ كان أول وفود (الآباء) على داهومى . ثم نفذت المسيحية إلى ساحل الذهب ونيجيريا ، وقد نجح أحدهم (دورجير P. Dorgére) فى الفوز بثقة الملك (بهانزان Behanzin) وكان وسيطاً بينه وبين الفرنسيين . وفى عام ١٨٩٦ نزلت بعثة تبشيرية على ساحل العاج . وتاريخ جهاد تلك البعثات فى السنوات الأولى كان سلسلة من التضحية والاستشهاد حيث قضت الحمى الصفراء وحمى الملاريا والفيضانات والحرائق على كثير من المبشرين حتى امتلأت بهم المقابر . ورغم ذلك كان هناك آخرون يحلون محلهم . وما جاء القرن العشرون حتى بدأت حركة تعميد الناس جماعات ، فكان لزاما أن يزاد عدد المراكز التبشيرية فى الغابات وفى الأدغال على السواء .

وقد تأسست جمعية (الآباء للبيض للسيدة العذراء) الأفريقية فى عام ١٨٦٨ أسسها الكربنال (لافيجرى Lavigerie) وهو أسقف الجزائر سابقاً . وقد أرسل فى عام ١٨٧٥ ثلاثة مبشرين (آباء) إلى الصحراء ليقصدوا إلى (تمبكتو) ولكنهم لقوا حتفهم على يد قبائل (الطوارق) . ولما احتل الفرنسيون تلك المدينة فى سنة ١٨٩٤ تمكنت بعثة برئاسة (هاكار P. Hacquart) من الاستقرار فيها . ووجه جهوده لنشر التعليم كوسيلة لنقل السلطة والنفوذ إلى أيدى الطبقة التى

تعلمت فى العهد الجديد. ثم انتشر المبشرون فى جميع تلك الأنحاء السودانية ، ونجحوا فى تنصير الوثنيين وخاصة فى منطقة أعالى نهر (فولتا) .

وإلى جانب ما قام به الآباء المبشرون ، يجب أن نذكر الأعمال التى قامت بها بعثات التبشير النسوية . واشتهر من بينها (إرساليات الراهبات البيضاوات) ، وراهبات (سيدة الرسـل) و (الراهبات الزرقاوات) وراهبات (روح القدس) . وكانت القوة المحركة لهذه الارساليات النسوية تنبثق من شخصية عظيمة هى الأم (جافوهى Lavouhey) وهى ريفية من أسرة فلاحين وكان لها من العمر ثمانية وعشرون عاما عندما أسست فى عام ١٨٠٦ جمعية (سان جوزيف الـكلونى) . وفى عام ١٨١٩ أبحرت على رأس أول إرسالية من الراهبات المبشرات فنزلن فى بلاد السنغال . وكتبت هذه الأم تقول : (إنهم يصفون السنغال بأنها بلد سوء . ولذلك كان من الواجب أن أذهب إليها لأراها عن كثب ثم أكون لنفسى رأيا عنها) ورغم أنها مرضت هناك وكانت على وشك أن تقضى نحبها فانها لم تكف عن العمل بهمة ونشاط نادرين ، فحاربت تجارة الرقيق ، وعملت على رفع مستوى المعيشة بين السكان . وكثيراً ما كانت تقول علانية (إنى أحب أفريقيا حباً جماً وأسجد شكراً لله على أنه سدد خطاى إليها) ثم رحلت عن السنغال إلى أمريكا الجنوبية فى (بلاد غيان) لتبدأ عملها هناك من جديد . وتركت وراءها فى السنغال إخواتها الراهبات وقد تركت هذه السيدة فى كل مـكان حلت به آثاراً تنطق بانسانيتها وأعمالها الطيبة حتى سماها لويس فيليب ملك فرنسا وقتئذ : (هذا الرجل العظيم) .

نشر المسيحية : طابعه ومناهجه :

لقد اشترك فى نشر المسيحية فى أفريقيا أكثر الأمم المسيحية . فالأمم الكاثوليكية على رأسها الفرنسيون ، ثم البلجيكيون ، والبرتغاليون والألمان ، والأيطاليون ، والاسبانيون . والأمم البروتستنتينية وأهمها الانجليز ، ومنها كذلك فرنسيون ، وسويسريون، والمان ، واسكندناويون ، ودول جنوب أفريقيا ، والامريكان البيض والسود ، وأشهر طوائفها الانجليكانيون ، والميثوديست ، والبرزبيتاريان ، ويليهم اللوثريون ، والكنائس الامريكية وخاصة تلك التى يتبعها كثير من السود ، وهى جمعيات الباتست Baptistes والأدفنتيست Adventistes وجمعية برج المراقبة Watch Tower . وقد اتهمت هذه بأنها تتبع سياسة مسيحية مضادة للبيض ، فمنعتها حكومة بلجيكا من دخول مستعمرة الكنغو .

والمذهب الكاثوليكى يسود المستعمرات الفرنسية والبلجيكية والبرتغالية . وأما المذهب البروتستنتى فيسود المستعمرات الانجليزية باستثناء يسير فى بعض بقاعها .

هذا التسابق الشديد بين المذاهب المسيحية وخاصة فى بدء نشر الدعوة حين لم تكن هناك عداوات شديدة ، كان عاملا من عوامل انقسام المجتمع الزنجى ، مما دعا بعض أفذاذ المبشرين إلى استهجان ذلك التعصب المذهبى ، الذى لا يتفق وعادات التسامح عند الوثنيين ، وخاصة على ساحل غينيا ، حيث كانوا يرحبون بالآلهة الجديدة بين صفوف إلهتهم

القديمة . ورغما عن ذلك فان هذا التنافس كان له أثر سريع فى تحويل الوثنيين إلى المسيحية ولعل أهم ما يلاحظ أن المسيحية على اختلاف مذاهبها قد اتفقت كلمتها وتعاليمها على مكافحة الرق والاتجار بالرقيق، كما احتجت هذه البعثات على تجارة الخمور وارتفعت أصوات هذا الاحتجاج من جانب البروتستانت والكاثوليك على السواء.

وكان اعتناق الدين المسيحى فى مبدأ أمره ضئيلا فردياً عندما كانت القبائل تحافظ على تماسكها وتكتلها . ولم تنتشر المسيحية نوعا ما إلا بعد أن مال إليها واعتنقها بعض زعماء القبائل بغية الانتفاع بمعونة هذه البعوث التبشيرية فى تمدين شعوبهم وفى حماية قبائلهم ضد البيض الآخرين : حكومات ، أو جاليات ، أو تجارا جشعين . ولم تدخل المسيحية أفواج كبيرة من الناس برمتها إلا فى زمن متأخر من القرن العشرين ، بفضل عوامل أهمها احتكاكهم بالمدنية الاوربية ، وانتشار المدارس والوسائل الاقتصادية الحديثة ، إذ أن هذه العوامل كانت سبباً فى تفكك مظاهر الحياة القديمة ، وتغير أسلوب التفكير القبلى العتيق وكان من المنطق أن يجد الزنوج فى المذاهب المسيحية ما يشبع فطرتهم من التكتل فى جماعة جديدة وأن يتذوقوا نوعاً من التفكير الحديث ، فدعاهم كل ذلك إلى الاندفاع بجمهرتهم إلى اعتناق المسيحية ، وخاصة عقب الحرب العظمى الأولى . وفى العصر الحالى نجد الغالبية للمسيحيين فى جنوب أفريقيا ، ويوغندا ، وجنوب كامرونى ، وعلى ساحل غينيا . وأما فى المناطق المجاورة وفى الكنغو البلجيكية فنجد أن عدد المسيحيين يتراوح بين الثلث والعشر من عدد السكان . ولايزال انتشار المسيحية فى تقدم مستمر .

وكان من أهم العوامل فى نشر المسيحية موقف التقدير الذى وقفه المبشرون أخيراً إزاء العوائد الوثنية الموروثة ، إذ كان يعتقد بعض المبشرين فى الزمن السابق أن المدنية الغربية والدين المسيحى وحدة لا تتجزأ . ولذلك أطلقوا عليها تسمية مفردة هى « المدنية المسيحية » ولم يكونوا ينظرون إلى الديانات الوثنية الزنجية إلا على أنها خليط من العادات أو الخرافات الشيطانية التى تقشعر لها الأبدان ، فاحتقروها ، وانصرف همهم إلى اقتلاعها ومحوها من نفوس الزنوج ، لكى يشيدوا فى مكانها الصرح الثقافى الذى نشأ بعيداً عن شواطئ أفريقيا . واليوم تقوم وجهة نظر جديدة تدعمها دراسة الأجناس ، وهى على النقيض من النظرية القديمة ، وقد نوهنا من قبل فى هذا الكتاب باسم الأب « أوبيس P. Aupiais » وهو أول من نادى بتلك الفكرة ، فكرة تقدير العقائد الوثنية . وهى فكرة تقوم على أن لكل حضارة قيمتها الخاصة بها . ولهذا كان من واجب المسيحية ألا تعمل على محوها ، وإنما يجب أن تعمل على التغلغل فيها بدراستها حتى تستغل بذورها الصالحة . وذلك بتفهم نفسية الزنوج ، وجعل عاداتهم القديمة عادات مسيحية .

ولذلك فرض على أعضاء البعوث التبشيرية ، قبل أن يقصدوا تلك الجهات ، اتباع خطة مرسومة تقضى بدراسة تلك البيئات دراسة شاملة ، وتفهم نظمها الاجتماعية وعاداتها ولغها . كما أنه يجب على المبشر أن يختلط بالسكان بالزيارة ، وأداء الخدمات ، والإخلاص فى التعاون معهم

فى كل فرصة تتطلب ذلك . فالمدرسة ، والمستشفى أو المستوصف ، والمثابرة على الدعوة المسيحية ، وترجمة الكتاب المقدس والتعليمات الدينية إلى لهجة السكان ، ومعرفة الأعياد المقدسة وغرس شعور الأخوة المسيحية بين الجميع — كل هذه الوسائل يساعد دون شك على توسيع نطاق عمل البعثات ونجاحها . وهكذا يصبح المبشر هو الرئيس الروحى فى تلك البيئة .

وقد ألقت تلك الوسائل الجديدة أعباء عظيمة على عاتق المبشر ، فلم تعد مهمته قاصرة على التبشير ، بل فرضت عليه واجبات إدارية لتنظيم شئون الجماعة ، والعمل على إدخال شعور المسيحية فى قلوب أفرادها . ولذلك أصبح القسيس الابيض فى حالة عجز عن أداء تلك الواجبات بمفرده ، وصار من الضرورى أن يستعين بعدد من المساعدين من أهالى البلاد ؛ فمدرسو المدرسة ، ورؤساء الجوالة ، ومعلمو العقائد والعبادات فى الأحراش ، هؤلاء المساعدون كلهم من أهل البلاد . ومهمتهم ارتياد الجهات النائية عن المدينة والقرية للتأكد من أن سكانها يحافظون على مسيحيتهم ، وإنهم لا يتهاونون فيها ، ولإقامة الشعائر بينهم ، وبذل النصيحة لهم والدفاع عنهم .

وشعرت الكنيسة عند ذلك بوجوب اتخاذ خطوة جديدة بتعيين قساوسة من الافريقيين ، حتى يدرك الزنوج أن الكنيسة ليست احتكاراً للجنس الأبيض وحده ، وإنما تشمل كل مسيحى بصرف النظر عن اللون والعنصر والثروة . وقد رأينا أن البروتستنت فى جنوب أفريقيا

وساحل غينيا كانوا أول من نادى بتلك الفكرة وتبعهم الكاثوليك بعد ذلك فى القرن العشرين . هذا إلى أن البابا (بيوس الحادى عشر) والبابا (بيوس الثانى عشر) شجعا ذلك الاتجاه . وفى الآونة الحاضرة نجد فى أفريقيا خمسة من الأساقفة الزنوج ، كما نرى عدداً من المدارس الكهنوتية التى ينتظر أن يتخرج منها أفواج من القساوسة الزنوج .

من هو الزنجى المسيحى :

كثيراً ما حامت الشبهة حول مدى تأثر الزنجى بالمسيحية ، وعمق شعوره بها . بل تعدته إلى التشكك فى صحة عقيدته وإيمانه بها جملة . فقد لوحظ أن سلوك الزنجى المسيحى كثيراً ما يخالف تعاليم المسيحية ؛ إذ منهم من يسلك سلوكا وثنياً ، ومنهم من يخلط بين المسيحية والوثنية خلطاً عجيباً سنرى بعض أمثلة منه . والمشاهد أن الاعتقاد بالتعاويذ والسحر وأكسير الحب ما يزال سائداً بين الزنوج المتنصرين . (ولا غرابة فى ذلك فمثل هذه الاعتقادات شائعة بين المسيحيين البيض أنفسهم وهم العريقون فى المسيحية) .

والحقيقة أن التنصير قد قلب أوضاع حياة الزنوج فى بيوتهم ومجتمعهم حتى أنه كثيراً ما يوصف هذا الانقلاب بكلمتى : « الموت الشخصى » ، « الاحتضار المعنوى » للدلالة على خطورة ذلك الانقلاب ودأب المبشرون دون هوادة على تحريم تعدد الزوجات ، وعبادة الأسلاف ، ونحر القرابين ، والاعتقاد بالسحر ، كما كافحوا عادة المهر وحفلات التلقين وتغالوا فحرموا الزنوج من متع الحياة البريئة فى

مجتمعهم ، حتى سلخوا كل من اعتنق المسيحية منهم عن قومه وعشيرته وعن مشاعر طفولته المحببة إليه ، فأصبحوا طبقة غريبة عن مجتمعهم القديم . وكثيراً ما ينشأ الخلاف بينهم وبين العرف السائد — وخاصة فى مسائل الزواج . أضف إلى ذلك ما يتعرض له المتنصرون من الزنوج فى كل لحظة من هجمات ومجابهات لا يستطيعون مقاومتها ، فيعودون إلى سابق عهدهم ، إذ من الطبيعى أن يكون إنصياع الإنسان إلى عادات طفولته ومداركها أيسر عليه كثيراً من أن يتغلب على نفسه ويلزمها عادات جديدة ، وخاصة بين الذين لم يؤهلهم استعدادهم للاستقلال بالرأى ، والخروج على صفوف الجماعة . وأما التحمس للدين فأمر هين فقد شوهدت جماعة حديثة العهد بالمسيحية أخذتها الحمية الدينية فحطمت تماثيل الجنود الرومانيين الذين تولوا صلب المسيح . ولكن الصعوبة فى المثابرة وعدم الانقطاع . فالفرد الذى نشز عن قبيلته وتركها إلى المدينة قد قطع كل أواصره الأولى دون أن يغرس مكانها أواصر دينية جديدة ، واستولت الفوضى والبلبلة على عقله فتجده حائراً بين عالمين ، مشتتاً بينهما ، يقع فريسة سهلة لكل دعوة جديدة .

غير أن الأمور لا تسير على هذا النهج عند ما تكون الطائفة المسيحية راسخة قوية البنيان ، قائمة على أسس سديدة ، كالمساواة بين الرجل والمرأة ، وزاول الفروق الاجتماعية ، وعند ما يكون التراحم والتعاطف سائداً بين أفرادها ، إلى جانب الشعور بالمسئولية ، وروح الطاعة والنظام الذى يشعر معه الأفريقى أنه وجد ضالته المنشودة فى هذه الروح الجماعية التى كانت سبباً فى متانة صرح نظامه القديم .

فبهذه الوسيلة تستطيع المسيحية أن تلقح النفسية الافريقية ، لتعمل على خلق هيئه اجتماعية جديدة ، أوسع أفقاً من المجتمع القديم ، فتفتح الأذهان إلى أواصر رحيبة وآفاق عالمية .

(ب) الكنائس المستقلة ـ كنائس المتنبئين والعبادات المستحدثة

أن تلقيح الدوحة الأفريقية بفروع من الدوحة المسيحية أثمر فى بعض الأحيان ثماراً مركبة . وعقائد ملفقة ، يتغلب فيها عنصر النفسية والعادات الأفريقية على المبادىء المسيحية ، حتى طبعتها بطابعها . ونخص بالذكر منها ثلاثة مذاهب لا تمت إلا بصلة واهية للمسيحية الغربية الأصيلة ، بل تزداد بعداً عنها . وهى :

١ ــ الكنائس المستقلة :•

كنائس يكثر عددها فى المنطقة البروتستنتية ، إنفصلت من بعيد عن بعثات المبشرين التى أسستها ، واتخذت لنفسها اتجاهات خاصة .

٢ ــ كنائس المتنبئين :

وهى حركات فردية تلقائية ، قام بها أشخاص تأثروا بالمسيحية قليلا أو كثيراً ، فأسسوا لأنفسهم كنائس فى تعاليمها شىء من الابتكار .

٣ ـ العبادات المستحدثة :

وقد نشأت هذه من محاولة تجديد الوثنية ، عن طريق استيحاء المبادىء المسيحية وتعاليم السحر والقوى الخفية .

وهذه الأنواع الثلاثة من العسير التميز بينها إذ كثيراً ما نجدها متداخلة أو مندمجة . والطابع المميز لها هو الاتجاه السياسى . وهذا هو الذى حدا إلى تسميتها حركات سياسية دينية . والمناطق التى تنتشر فيها هذه الفورات الروحية هى جنوب أفريقيا وساحل غينيا وأفريقيا الإستوائية .

مبلغ إنتشارها فى جنوب أفريقيا :

كان التميز العنصرى الذى يسود جنوب أفريقيا هو العامل الرئيسى لانتشار كنائس مستقلة للسود . فى عام ١٨٩٢ انشق القسيس الزنجى (موكونة Mokoné) عن بعثته التبشيرية ، وأسس الكنيسة الأثيوبية فى مدينة جوهانسبرج . وتبع ذلك تأسيس فوج من الكنائس المستقلة الأخرى ، إما بسبب الانشقاق والتنافس على الرياسة أو بإلهام تنبؤى ، أو بتأثير الكنائس الأمريكية فى أفريقيا . فى ١٩٤٥ أحصى (سندكلر Sundkler) عددها فبلغ ٨٧٠ كنيسة ، وفى ١٩٤٨ زادت ١٢٣ كنيسة جديدة . وقد يتبع بعض هذه الكنائس عدد قليل من المؤمنين لا يزيد أحياناً عن ٨٠ عضواً فى إحداها ، والبعض الآخر قاصر على النساء والأطفال .

ولهذه الطوائف الكنسية اتجاهان . (أولا) الكنائس الأثيوبية ، وهي بروتستنتية ، إلا أنها تتميز بطابع سياسى مناهض لسيادة الرجل الابيض ، وشعارها « أفريقيا للأفريقيين » . (ثانيا) الكنائس الصيهونية ، وقد أسسها أفراد بباعث من وحى ذاتى ، لقى رواجاً بين الشعب . ويتميز بتعاليم هى خليط بين المسيحية والوثنية . وهذه هى الكنائس التى سنخصها بالذكر فيما يلى :

وطريق الالهام فى ذلك هو أن المتنبىء يتلقى إيحاء نفسياً يعتقد به إن الله هو الذى يأمره بمحاربة الرذائل وبتأسيس كنيسة لهذا الغرض ، ويمنحه الرب إلى جانب ذلك القدرة على إبراء المرضى . وفى العادة يخلفه إبنه بعد موته . وقد تتمتع أمه بنفوذ عظيم فى الكنيسة .

ونظام هذه الكنائس يتسع لعدد من القساوسة فى درجات مختلفة ، تختلف باختلاف الرتب الكهنوتية ... وأما شعائرها فمنقولة عن الكنيسة البروتستنتية ، بالإضافة إلى شعائر مأخوذة من الكاثوليكية أو الوثنية : والموعظة الدينية الصاخبة وسيلة من وسائل إثارة المشاعر ، حيث يشترك الحضور فى أناشيدها فى جلبة ظاهرة وحركات جثمانية جماعية . ثم يتبع ذلك مراسم الاعتراف بطريقة علنية مكشوفة ، على غير المألوف . ثم تعقب ذلك جلسة إبراء المرضى وترديد أناشيد الابتهالات .

وأهم شعائر التطهير من الخطايا هو التعميد بغمر الجسم كله فى الماء لكى تزول عن الشخص جميع خطاياه . وقد يعاد غطاسه مرات ، على أن يكون الماء جارياً ، لأن له خاصية محو خطايا الإنسان . والاعتراف

بالخطايا علينا يرفع عن المرء كل معاصية وآوزاره . وتفرض بعض الكنائس على المذنب أن يتناول مسهلا لكى تتطهر روحه . وقد يكون التقايؤ أو الاغتسال بالصابون وسيلة مؤدية إلى النتيجة نفسها ، وهى التطهر . ويفرض على جميع مشيعى الميت من تلك الطائفة أن يتطهروا تطهراً كاملا ، بأية وسيلة كانت من هذه الوسائل ، عقب الانتهاء من تشييع الجنازة .

والأحلام وسيلة من وسائل الاتصال بالرب . وأما ظهور الملائكة فأمر عادى لديهم . ويراعى المتدينون أداء عبادة الصوم . ولا تستطيع المرأة أبان الطمث أن تنال قداسة حلول المسيح . وتحرم تلك الطائفة أكل لحم الخنزير والدجاج والدم ، كما تحرم تعاطى الأدوية إذ أن الابراء من المرض هو أحد المظاهر الأساسية للدين ، حيث يعتقدون أن الأمراض المستعصية نتيجة لحلول الشيطان فى الجسم أو لأعمال السحرة أو لارتكاب الذنوب . وتتخذ هذه الحالات مظاهر متعددة أهمها تسرب أفعى إلى معدة الرجل أو رحم المرأة . ولا براء المرضى يقف المتنبىء فيضع يده على موضع العلة فى الشخص ، أو يلمسه ببرقعه وهو يصيح بأعلى صوته : (أخرج منه أيها الشيطان) وقد ينهال على المريض ضرباً بعصاه ، كى يطرد الشيطان من جسده (وقد يطلب بعض المتنبئين نحر ذبيحة لهذا الغرض) فيصرخ المريض ويرتعد وبذلك يتخلص من الشيطان ومن أوزاره دفعة واحدة .

وللروح القدس شأن عظيم فى تلك الكنائس ، لأنه يحل فى أجساد المتنبئين . وقد يزور بعض الصالحين فيصرخون وينطقون بعبارات

لا تفهم . وقد يوصى الروح القدس رجلا ما بتعدد الزوجات . ويمنح الروح القدس هؤلاء المتنبئين قدرة الكشف عن الأشياء المغيبة ، وخاصة الذنوب الكامنة ، والكوارث المستقبلة ، وسحر السحرة وحماية الناس من أذاهم .

والاشارة إلى ما جاء فى الانجيل وإلى النبي موسى وإلى الرسل تدور على ألسنتهم دائماً ، ويقومون بتطبيقها فى حياتهم اليومية . وأما المسيح فتارة يعتبرونه ملكا وتارة يهملون ذكره ، لأن المتنبىء قد حل محله بينهم . ويعتقد بعض السود فى مسيح ملون مثلهم ، يسكن السماء ويقف على باب الجنة ، وأنهم إذا مروا بحرم كنائس البيض حرموا من دخول الفردوس . وبهذه الوسيلة ثأر الزنوج لأنفسهم أيما ثار من التمييز العنصرى للجنس الأبيض .

الكنائس على ساحل غينيا :

نجد بالمثل على ساحل غينيا كنائس مستقلة . وأشهرها « الكنيسة الأفريقية المتحدة » فى نيجيريا . وهى تبيح لأتباعها تعدد الزوجات . ويرجع الفضل فى نشر المسيحية فى تلك المستعمرة إلى المتنبئين . وأشهر هؤلاء قاطبة هو المبشر (هاريس) .

من هو هاريس ؟ William Wadé Harris

(وليم واد هاريس) زنجى من قبيلة (جريبو) التى تقطن جمهورية ليبيريا . وكان فى أول حياته نوتياً ككثير من مواطنيه ، ثم أصبح

بعد ذلك بناء ، وانضم إلى طائفة (الميتوديست) وتلق على يدهم مبادىء الدين المسيحى ، ثم اشتغل مدرساً باحدى المدارس . وفى عام ١٩١٠ ثارت قبيلة (جريبو) على حكومة ليبريا ، فقبض على هاريس وسجن . وهناك نزل عليه الوحى وهو بين جدران السجن ، إذ زعم أن الملاك جبرائيل هبط عليه ، وبلغه رسالة نبوته ، ثم حل فيه الروح القدس « كما ينزل الثلج عل رأس إنسان » برداً وسلاما . فلما انقضت مدة السجن غادره وبدأ دعوته بالدين المسيحى فى موطنه . ثم هاجر عام ١٩١٣ — ١٩١٤ إلى ساحل العاج الأدنى . وصادف أن كانت تلك المستعمرة تجتاز أزمة روحية عصبية ، بسبب نزول الرجل الأبيض فيها مستعمراً ، وما أعقبه ذلك من الانحلال فى النظام الاجتماعى القديم ، وتحول الأهالى عن وثنيتهم إلى الاعتقاد فى السحر ، حتى تغالوا فى اتخاذ التعاويذ ولم يفلح المبشرون إلا فى عدد قليل منهم لا يزيد عن الألف إلى المسيحية . وفى غمرة يأسهم هذا ظهر (هاريس) فحدثت المعجزة التى وصفها الأب (جورجو Gorju) قائلا « كان عندما يرتفع صوت هاريس تتساقط التماثيل رماداً ، وينزل كاهنها عن قدسيته مختاراً ، فتهرع إليه قرى بأكملها لتعتنق المسيحية على يديه ، ويتبعون باهتمام كل حركاته على طول طريق موكبه ، وكان يسير وهو يتوكأ على عصا طويلة ثبت فى رأسها صليب من الخشب ، وتتبعه ست نسوة يلبسن البياض كما يلبس هو ، ويسمهن تلميذاته ، وكان يذكر الله فى صوت رنان ، برطانة انجليزية خاصة ، لا يفهمها الناس Pidgin English فكانت تترجم إليهم . ويصاحب تبشيره وخطبه توقيع خشخة فى قرعة جافة . وكان يأمر عباد

التماثيل أن يلبسوا صليبه فاذا فعلوا صرعوا على الأرض وصاروا يصرخون فيحنو عليهم ويهدىء من روعهم ، ويأمرهم باحراق أصنامهم بأيديهم . ولقد دخل المسيحية على يديه أكثر من ١٠٠٠٠٠ من الزنوج فكان يعمدهم بوضع الكتاب المقدس فوق رؤوسهم ، ورش قطرات من الماء عليهم ، كما كان يبرىء المرضى ببركة الكتاب المقدس . وكانت تعاليمه سهلة بدائية ، مأخوذة عن كتاب العهد القديم ، ومؤداها أن الله غيور شديد العقاب لمن يتوانى عن تنفيذ وصاياه . وكان يحض الناس ، على العمل ، والطاعة لأولى الأمر ، والاعتدال فى شرب الخمر ، ومراعاة الراحة فى أيام الآحاد . وعاش عيشة القشف والتعفف عما فى أيدى الناس ، رافضاً كل هدية تقدم إليه . وكان يعلن أنه ليس إلا طليعة لمن سوف يخلفونه ويعلمون الناس ما جاء فى الكتاب المقدس . ولكن أتباعه أفرطوا وأساءوا وأحدثوا الفتن ، وخشيت الحكومة عواقب ذلك الاضطراب ، وخاصة أن الحرب العالمية الأولى كانت على أشدها فألقت القبض على هاريس ورحلته . ولكنه قبل مغادرته الميناء جعل يواصل مواعظه وتعميداته وهو على الرصيف فى انتظار الباخرة ، وجعل يوصى أتباعه بالسكينة والهدوء .

وقد استقبلت البعثات البروتستينية طائفة من أتباعه حديثى الدخول فى المسيحية ، ولكن تحريم تعدد الزوجات الذى كان يتعارض وعادات البلاد حدا ببعضهم إلى الاحتفاظ باستقلالهم . ولذلك نرى فى تلك الجهات (وخصوصاً فى منطقة لاهو العظمى) كنائس هاريسية ، ذات شعائر شبه بروتستينية . وتقضى تعاليم (هاريس) بمحبة الله ، وحب

ذوى القربى ، ومعاملة الزوجات بالحسنى ، وتحريم السرقة ، وتوصى بالجد والعمل ، وتبيح تعدد الزوجات . وتقام العبادة ثلاث مرات فى الأسبوع تحت رعاية أحد قدماء الطائفة . ولكل فرد من أفرادها الحق فى إلقاء الموعظة . وأما الصدقات التى تجمع فى الكنيسة فترصد للشئون الدينية . وهذه الطائفة الهاريسية تمجد الآب والإبن فقط دون العذراء . وليس فى تعاليمهم اعتراف ولا مراسم تنصير .

ولقيت حركة التنبؤ ضروباً من الانشقاق . فالمتنبى (اكيه) Aké الذى استغله أحد زعماء القبائل (اوبودجى سوبوا) كان يستعمل خمر (البرنو) من درجة ٤٥ ٪ فى إقامة مراسم المناولة إلا أن الحرب العالمية الثانية قضت على واردات خمر البرنو Pernod وقضت على مذهبه فى الوقت نفسه .

وثمة متنبى آخر هو (جارك بريد) Garrick Braid قام بالدعوة لنفسه حوالى عام ١٩١٥ فى الجانب الشرقى من نيجريا ، وادعى أن روح النبى (إيليا) حلت فى جسده ، واشتغل بإبراء المرضى ، ولقيت دعوته نجاحاً لا يقل عن نجاح (هاريس) إلا أن مذهبه تدهور عند ما اتجه إلى استعمال أساليب السحر ، والدخول فى السياسة ، فقبض عليه وسجن ثم أطلق سراحه . إلا أن صاعقة من السماء قتلته فمات وهو متمتع بكل صفات النبوة !!

ومنهم (سامسون أوپون) Samson Opon وهو من أشرار قبيلة أشانتى ، اعتنق المسيحية وهو فى السجن ، ثم نزل عليه الوحى

وبشر بالمسيحية بين عشيرته التى انصاعت إليه بعد أن كانت تناصب هـذا الدين العداء من قديم . غير أن نجاحه أثار موجة من الفزع بين المبشرين والوثنيين على السواء ، فاحتالوا عليه حتى سقوه زجاجة من الخمر كانت سبباً فى إعادته إلى حظيرة الشيطان ، وكانت فيها نهاية دعوته .

والنجاح الذى أصابه هؤلاء المتنبئون يرجع إلى المظهر المسرحى الذى ظهروا به ، وإلى طلاقة لسانهم ، وبساطة التعاليم التى بشروا بها ، وأنها من عند الله الذى وهبهم قوة النفوذ ، والقدرة على إبراء المرضى ، وأنهم لم يوجهوا تبشيرهم لفرد واحد ، وإنما وجهوه لجماهير الناس جملة . وبذلك لمسوا الروح الجماعية الفطرية عند هذه الجماهير . وكانت محافظتهم على العوائد القبلية ، وتيسيرهم على الرجال بإباحة عادة تعدد الزوجات ، عاملا من عوامل نشر هذا الضرب من المسيحية ؛ كما أن فخامة الحفلات الدينية العديدة حلت فى نفوس الأهالى محل الحفلات الوثنية القديمة . أضف إلى هذا كله أن المتنبي كان زنجياً صميما مثلهم فتبعوه .

وإلى جانب هذه الكنائس المستقلة ، وإلى جانب دعوة هؤلاء المتنبيين التى تقترب قليلا أو كثيراً من تعاليم المسيحية ، نجد مذاهب أخرى جديدة ملفقة من المسيحية والوثنية ، أو تحاول النهوض بالوثنية القديمة وتجديدها . فمثلا ظهر المتنبئ (أدايه Adaé) فى ساحل العاج وكان يعمد بالروائح العطرية ، ويحرم الأوثان ، وكانت له وصايا عشر منها : لا تتلف زراعة جارك ، ولا تغرر بامرأة دون أن تدفع لها أجرها . ومن هؤلاء طائفة (جورو Goro) فى (داهومى) التى قامت لتقضى

على انتشار السحر وتبعها خلق كثير . وفى ساحل العاج قامت امرأة تسمى (ماری لالو Marie Lalou) سنة ١٩٤٦ ، وهو العام الذى منحت فيه المستعمرة حق التصويت العام ، وأسست مذهباً دينياً يعرف باسم (ديما) أى الرماد ، دعت فيه إلى أن يكون للناس مطلق الحرية فى اعتناق دين يلائمهم . وانتشر مذهبها انتشاراً واسعاً ، وتأسست له معابد فيها الصليب ويسوع . غير أن الشعائر تتخللها أساليب السحر القديم . وأعجب من ذلك كله أن النائب الأفريقى فى البرلمان(هوفويت Hophouèt) اتخذه الناس إلهاً هو وأمه زمناً طويلا ، على غير علم منه ، ولم ينصرف الناس عن تأليهه إلا بطلب صريح منه .

تطورات المسيحية فى أفريقيا الاستوائية :

ظهرت فى أفريقيا الاستوائية عدة طوائف شاذة من أصل أمريكى وأشهرها (جمعية برج المراقبة) أو (شهود يهوه) وهى طائفة تدعو إلى المساواة ، والفوضى الاجتماعية ، وعدم دفع الضرائب ، وعصيان السلطات الحكومية . ويزعم فريق من هذه الطائفة أن مسيحاً ثانياً سينزل إلى الى الأرض تنجبه عذراء سوداء ، وأنه سيرسل الصواعق على الجنس الأبيض .

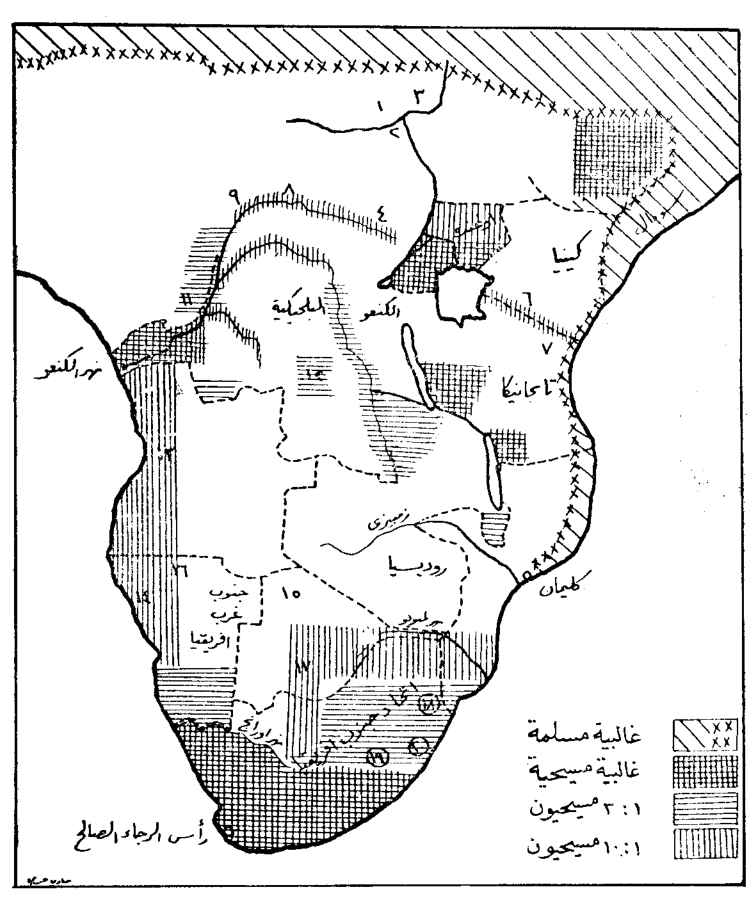
وفى عام ١٩٢١ ظهر فى مستعمرة الكنغو البلجيكية متنبى آخر بين قبائل باكونجو هو (سيمون كمبانجو) أو (جونزا Gounza) وكانت دعوته مسيحية . غير أنه بعد نفيه أعلن إلى أتباعه أنه هو (المسيح المنقذ) وأنه هو (ملك السود) وهو الذى سيعيد إليهم وحدتهم ، ويفتح أمامهم أبواب السماء .

وظهر عند قبائل (بلالى Balali) وهم جيران (باكونجو) حركة سياسية اسمها (الودّية) أسسها (أندريه متشوا) فى الكنغو الفرنسية . ثم تحولت إلى حركة دينية . وقد مات مؤسسها سجيناً سنة ١٩٤٢ غير أن أتباعه لا يصدقون أنه مات ، ولا يزالون ينتظرون عودته . وهذه الدعوة كسابقتها ما هى إلا رد فعل ضد نفوذ البعوث التبشيرية ، والسلطات الإدارية . وهى محاولة من أهالى البلاد لبناء وحدتهم من جديد ، والعودة إلى تماسكهم الاجتماعى الذى هدمه الرجل الأبيض .

وفى قبائل (أوبانجى) عضو برلمانى كان قسيساً ، يدعى (بوجاندا Boganda) يقول عنه مواطنوه أنه هو « الشمس والسماء » ، وأن فى قدرته أن يحول الإنسان إلى حيوان . ويسمون البطاقة الانتخابية « تعويذة بوجاندا » .

وأشهر هذه الحركات وأحدثها ما فعله شعب (الكيكويو Kikouyou) فى (كينيا) وهو شعب غالبيته من المسيحيين ، إذ قام بتأسيس كنائس مستقلة عند ما حرم المبشرون بعض العادات الأفريقية الموروثة ، وجادلهم أهل البلاد فى ذلك قائلين لهم : « إننا لا نجد فى الكتاب المقدس ما يحرم الختان أو تعدد الزوجات ؛ بل على العكس نجد فيه نصوصاً عن الختان ونحر الذبائح للقرابين » .

ولم يقم دليل واضح على الصلة بين هذه الكنائس المستقلة وبين حركة (ماوماو) وإنما هى حركة سياسية ضد البيض المستعمرين ، استغلت قدسية القسم وروابط اليمين ، ولا شك أن استعمال القسم فى أغراض فردية يعد إحياء لسنة دينية قديمة . فمن هذه الناحية فقط يمكن أن تعد حركة (ماوماو) تجديداً دينياً .



أفريقيا الاستوائية والجنوبية

أسماء القبـــائل وأرقامها

١ — دنكا . . .	Dinka	١١ — بالالى . . .	Balali
٢ — نوير . . .	Nuer	١٢ — لوندا . .	Lounda
٣ — شلوك .	Chillouk	١٣ — افيمبوندو	Ovimboundo
٤ — أزندة . .	Azandé	١٤ — هوتنتوت	Hottentot
٥ — باجندا . .	Baganda	١٥ — بوشيمان	Bochiman
٦ — كيكويو	Kikouyou	١٦ — دامارا . .	Damara
٧ — سواحيلى	Souahili	١٧ — بتشوانا	Betchouana
٨ — باندا . . .	Banda	١٨ — سوازى . .	Souazi
٩ — مانجا . . .	Manja	١٩ — باسوتو . .	Basouto
١٠ — باكنجو	Bacongo	٢٠ — زولو . .	Zoulou



خاتمة

تذكرنا الاتجاهات الدينية الراهنة فى أفريقيا ، بحالة الإمبراطورية الرومانية فى عصر شيخوختها واضمحلالها ، فإنه لما حقق الرومان وحدة البحر المتوسط قضوا أيضاً على استقلال دويلاته السابقة ، وترتب على ذلك فى الوقت نفسه أن فقدت العبادات الوثنية المحلية ، التى كانت تمارسها سكان المدن ، مغزاها وقدسيتها فى نفوسهم . وأصبح الأفراد بتحررهم من الأوضاع الدينية القديمة على استعداد تام لاعتناق الديانات الشرقية الواسعة الانتشار ، مثل ديانات أوزيريس ومترا ، والديانة المسيحية . ولم تتغلب هذه على ما سواها من الديانات الأخرى إلا بعد أن عانت الانقسام فى صفوفها وبعد أن تفرقت شيعاً متناجزة متناحرة وهذه المحن والانقسامات إن دلت على شىء فإنما تدل على مدى تحمس كل فريق للدين الجديد ، وعلى مدى تعدد الثقافات وتفاوتها فى الإمبراطورية الرومانية .

واليوم يبدو مثل هذا الاضطراب فى أرجاء أفريقيا السوداء ، وترجع أسبابه إلى تغلغل الاستعمار فيها ، وما تبعه من نشر الأمن بين ربوعها ، وتحسين سبل المواصلات ، وازدياد التبادل التجارى ، وتأسيس المدارس الحديثة . كل هذه العوامل قوضت الحواجز العتيقة ، التى طالما حصرت حضارة كل شعب وديانته فى دائرة مغلقة . وكان

تدهور الوثنية بطيئاً تارة وسريعاً تارة ، تبعاً لبعد موطن القبيلة من المدينة الحديثة ، ومراكز الاستغلال الاقتصادى ، أو قربه منها . . وقد أصبح المتحررون منها أو التقدميون يتنكرون لديانتهم ، ولا يجرأون على الجهر بأنهم وثنيون عباد تعاويذ ، وفضلوا أن يسموا أنفسهم مسلمين أو مسيحيين ، إذ يرون فى ذلك شرفاً لهم بالانتساب إلى المدنية العالمية . ومع ذلك ما تزال الوثنية قائمة بين القبائل التى لا تقبل الهجرة من مواطنها . غير أن تطبيق تداول النقد والمدارس الحديثة والمبادئ السياسية الجديدة قد فعلت فعلها فى هدم المجتمع الزراعى وسقوط هيبة رؤسائه وتصدع الوحدة والطاعة المفروضة فيه . وكان تسرب الآراء الحديثة شيئاً فشيئاً أشبه بفيضان غمر أساس تلك الأسوار البالية ، فتداعت أجزاؤها واندفع السيل ليكتسح كل ما وراءها .

كان كسب الإسلام لأقوام جديدة وراء مناطقه العريضة فى الشمال وإلى الشرق رائعاً حقاً ، وكانت مطاياه إليها اللغات الواسعة الانتشار فى التفاهم وهى لغات قبائل « أولوف » و « بيل » و « ماندانج » و « هوزا » والسواحيليين وكذلك كان للتجارة التى تنقلها القوافل شأن يذكر . .

وأما المسيحية فقد رسخت أقدامها على الساحل الجنوبى وثبتت أصولها فيه وهى تتقدم منه للقاء الإسلام وجهاً لوجه لتعترض زحفه إلى الجنوب . ترى أيهما ينتصر ؟ الإسلام الشرقى أو المسيحية الغربية ؟

يتنبأ البعض بأن مصائر أفريقيا كلها تتوقف على ما يتضمنه جواب هذا السؤال . .

إلا أن المسألة بهذا الوضع فيما استهانة بطرافة العقلية الأفريقية ، بدليل ظهور الطوائف المستحدثة ذات التعاليم المختلطة ، وطوائف المتنبئين ، التى أثبتت أن الوثنية القديمه لم تنقرض بل ما تزال باقية تبدل وتحول طبيعة كل شىء تمسه يدها ويتبين من ذلك أن أمثل الطرق أزاءها هو تلقيحها بالتدخل فيها والتمشى معها ، وليس العمل على القضاء عليها .أن النفسية الأفريقية التى يتغلب فيها الوعى العنصرى أكثر من الوعى القومى تستطيع أن تسمع صوتها للعالم على لسان أديان شتى ولهذا لانستطيع التكهن بمصائرها التى تبدو فى أنواع عديدة مثقلة بالسورة الدينية التى تنذر بالانفجار . .

والحقيقة القائمة فى العصر الحاضر هى تكاثر الطوائف الدينية فيها ، بشكل يذكرنا بتكاثر الكنائس الدينية الشرقية بعد عصر القديس بولس وحتى هؤلاء الزنوج الذين ظن أنهم أصبحوا بمناى أمين عن عاداتهم القديمة وانهم تخلصوا إلى غير رجعة من قبيلتهم ، واستقلوا برأيهم وشخصيتهم ، ما تزال العقلية الجماعية مسيطرة على تفكيرهم فهم يحنون إلى التجمع ويحسون بحاجتهم إلى حماية الجماعة والتعبئة لها ، إذ أنهم لما تجردوا من أواصرهم القبلية لجأوا إلى التدين بحثاً وراء أواصر جديدة . فاذا أخطأهم التدين انحازوا إلى حركات التحزب السياسية . وحتى هذه الأحزاب السياسية نفسها تنشد السند والقوة من الوجدان الدينى أو تجد نفسها مغمورة به دون أن تسعى إليه .

إن روح الطاعة للسلطان المطلق الدينى متأصلة من قديم فى نفس الزنجى الإفريقى بدرجة لا يرضيه معها الانتقال بين عشية وضحاها إلى فردية ذات آراء ناقدة متشككة ولهذا فهو شديد التعطش إلى المشاعر الجماعية ، أياً كانت مبادئها ، وأياً كانت تبعيتها .

لقد انتقلت أفريقيا السوداء من طور الخضوع القبلى إلى طور الإقدام واحتمال المسئوليات . ومن هنا كانت (دراسة الأديان) بأوسع معانى هذه الكلمة ، من أجدى الأساليب الحديثة لاستكمال الكشف عن أفريقيا السوداء . .



احصـــــــاء

لا يخفى أن الإحصاء التالى تقريبي لا يدل على العدد بالدقة وإنما يعطى فكرة عامة مقارنة عن الكتل الدينية . والأرقام عن المسيحية مصدرها نشرات البعثات التبشيرية (وفيها تضارب أحياناً) وقد رجعنا فى إحصاء المسلمين إلى مقال (المسلمون فى العالم) الذى ظهر فى نشرة دورية (ملاحظات ودراسات فى الوثائق رقم ١٦٤٢ لعام ١٩٥٢) ..

مع زيادة نسبية فى الأعداد تتمشى مع التكاثر الطبيعى للسكان منذ ذلك التاريخ .

المنـــاطق	وثنيون	مسلمون	كاثوليك	بروتستنت
أفريقية الغربية الفرنسية وتوجو	٩ر٣٠٠ر٠٠٠	٨ر٠٠٠ر٠٠٠	٦٦٠ر٠٠٠	١٨٠ر٠٠٠
غامبيا وسيراليون	١ر٥٠٠ر٠٠٠	٦٠٠ر٠٠٠	١٠ر٠٠٠	٢٠٠ر٠٠٠
ساحل الذهب	٤ر٥٠٠ر٠٠٠	١٥٠ر٠٠	١٠٠ر٠٠٠	٣٥٠ر٠٠٠

تابع (الإحصاء)

المناطق	وثنيون	مسلمون	كاثوليك	بروتستنت
ليبيريا	٢ر٠٠٠ر٠٠٠	٣٠٠ر٠٠٠	١٠ر٠٠٠	٢٠٠ر٠٠٠
نيجيريا	٩ر٠٠٠ر٠٠٠	١٠ر٠٠٠ر٠٠٠	٦٠٠ر٠٠٠	١ر٠٠٠ر٠٠٠
كامرون	٢ر٠٠٠ر٠٠٠	٥٠٠ر٠٠٠	٦٠٠ر٠٠٠	٢٠٠ر٠٠٠
أفريقيا الاستوائية الفرنسية	٣ر٠٠٠ر٠٠٠	١ر٠٠٠ر٠٠٠	٥٤٠ر٠٠٠	٥٠ر٠٠٠
الكنغو البلجيكية — ورواندا	٩ر٠٠٠ر٠٠٠	١٠٠ر٠٠٠	٤ر٥٠٠ر٠٠٠	١ر٢٠٠ر٠٠٠
سكان أعالى النيل	١ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٠٠ر٠٠٠	١٥٠ر٠٠٠	٢٠٠ر٠٠٠
الحبشة الغربية (زنوج)	١ر٠٠٠ر٠٠٠	—	—	—
أفريقيا الشرقية البريطانية	١١ر٠٠٠ر٠٠٠	٣ر٠٠٠ر٠٠٠	٢ر٠٠٠ر٠٠٠	١ر٠٠٠ر٠٠٠
أفريقيا الوسطى البريطانية	٦ر٠٠٠ر٠٠٠	١٠ر٠٠٠	٢٠٠ر٠٠٠	٥٠٠ر٠٠٠
المستعمرات البرتغالية	٨ر٠٠٠ر٠٠٠	٥٠٠ر٠٠٠	١ر٥٠٠ر٠٠٠	٣٠٠ر٠٠٠
اتحاد جنوب أفريقيا (زنوج)	٦ر٠٠٠ر٠٠٠	—	٦٥٠ر٠٠٠	٣ر٢٠٠ر٠٠٠
المجموع بالتقريب	٧٣ مليون	٢٥ مليون	اقل من ٢٠ مليون	

﴿ فهرس الكتاب ﴾

القسم الاول

القسم الثانى

صفحة

الدينان الجديدان

الخرائط

ملاحظة : يرجع إلى الخرائط فى أسماء القبائل والاماكن

الإشراف اللغوى: حســام عبد العزيز

الإشــراف الفنى: حــــسن كامــــل

التصميم الإساسى للغلاف: أسامة العبد



دراسة متعمقة لتنوع أشكال الديانات الوثنية فى غرب القارة الأفريقية وشرقها وحوض وادى النيل وجنوب القارة، ولدخول الإسلام ثم المسيحية من بعد وتأثرهما بالموروث الدينى، مع التنبيه إلى الأهمية القصوى للدين فى بنية النظام السياسى والاجتماعى والاقتصادى لشعوب القارة السمراء.

هذا الكتاب تأكيد على أن دراسة الديانات هى أحد الأساليب الحديثة لاكتشاف أفريقيا.

علي مولا

تصميم الغلاف: نسرين كشك